

مذاہب و شخصیات



زکری مبارک

دراسة تحليلية لحياة وأثره

بقلم

أنور الجندی



مذاهب و شخصیات

زکی مبارک

دراسة تحليلية لحياة وأدبه

١٨٩٢ - ١٩٥٢

بمقدم

أنور الجندی

حياة زكى مبارك وأدبه

هذا كاتب لم ينصفه جيله • ولكنه ينصف الآن ، فى ظل نهضتنا العملاقة ويقظتنا العربية الكبرى ، التى جعلت الوفاء للعاملين ، والتقدير للباحثين ، من بين أكبر أعمالها •

فقد كان زكى مبارك من أصدق الناس إيماناً بمصر ، والقومية العربية ، واللغة العربية ، غير أن هذا الحصاد الضخم من العمل الأدبى الذى أنشأه خلال رحلته الطويلة قد شابه طابع الاعلان عن النفس • نتيجة لعوامل الاضطهاد ، والاحساس بعدم التقدير الذى كان سمة العصور المتخلفة ، والذى كان يبرز فيها من يتصلون بالأحزاب ، أو يجرون فى ركاب الزعماء والوزراء وذوى النفوذ • وقد كان زكى مبارك أبياً عيوفاً ، لذلك لم يجد المجال مفتوحاً أمام كفايته ، سواء فى ميدان التربية والتعليم أو فى ميدان الفكر أو فى ميدان الصحافة • فقد شق طريقه بنفسه ، ونحت حظه من الصخر - على حد قوله •

قدم من ريف ستريس شاباً معماً • فدخل الأزهر • وكان يمكن أن يكون واحداً من عشرات العلماء والفقهاء ، غير أن ذكاه وطموحه وطبيعته المندفعة اللماحة ، قد مدت بصره الى بعيد • وكانت الجامعة المصرية القديمة قد فتحت أبوابها ، واتجه اليها كثيرون ، فتطلع اليها وبدأ يتعلم اللغة الفرنسية ، ثم وقعت ثورة سنة ١٩١٩ واشترك فيها الأزهر بقدر واضح ، فكان زكى مبارك من أعلام الخطابة فى هذه الفترة مع الشيخين : القاياتى ، ودراز • وامتاز بأنه كان الخطيب الذى يستقبل الوفود الأجنبية ، ويتحدث اليها بالفرنسية • وكان نصيبه السجن والاعتقال • ثم عاد بعد الثورة الى الأزهر ، واشترك فى الجامعة • وكتب فى صحف الحزب الوطنى ، وأحرز الدكتوراه من الجامعة القديمة برسائلته عن « الأخلاق

عند الغزالي « وتطلع الى احراز الدكتوراه من جامعة باريس ، ولم يجد الوسيلة الى ذلك ، فأزمع السفر على حسب مقالات يكتبها في « البلاغ » وترك أسرته وأولاده . ومضى يذهب في اجزة كل صيف ويعود . ثم عزم على الانقطاع ، واكتفى بالقليل من المال ، حتى أحرز اجازة الدكتوراه بأطروحته « النشر الفني في القرن الرابع الهجري » . وعاد عام ١٩٣٢ ليستقبل الحياة الأدبية ويشارك فيها ، بما عرف عنه من عنف ، وحرص على أحداث الضجيج ، حتى أطلق عليه لقب (الملاك الأدبي) . وفي خلال عشر سنوات ، حتى عام ١٩٤٢ ملأ الدنيا ، وشغل الناس . وكانت جريدة « البلاغ » ميدانه . يكتب فيها كل اسبوع « الحديث ذو شجون » فيشير الثائرة بآرائه ونقدهاته ومهاجماته التي خلقت له الخصومات مع رؤسائه في وزارة المعارف ، و (زملائه) من الكتاب . ولكن « مبارك » كان صافى القلب لا يرى في هذه المعارك خصومة شخصية ، وانما يراها وسيلة لتحريك الحياة الأدبية الراكدة وبعث الحياة فيها بآثاره قضايا جديدة ، وأتيح له أن يطوف بالعالم العربي . ويعمل في العراق وتمتلىء نفسه بحب الأمة العربية فيدافع عن القومية العربية ، ويدعو الى أن تحل اللغة العربية في كليات الجامعة بدلا من الاجنبية . ويدخل في معارك مع أكبر شخصيتين في الصحافة والجامعة اذ ذاك هما : طه حسين ، وأحمد أمين ، وهي معارك من جانب واحد ، أدارها زكي مبارك وغذاها ، وشغل بها الناس شغلا عظيما .

وكانت الحياة الأدبية في مصر والعالم العربي في خلال هذه الفترة يتقاذفها الصراع بين تيارى الثقافة الفرنسية والثقافة الانجليزية ، وبين دعوات القومية العنيفة ، كالفرعونية والفينيقية ، وبين دعوات القوميتين العربية والجامعة الاسلامية . وكان الاكابر من شأن الغرب ، والدعوة الى تقليده ، والجرى وراءه ، وكان الغرض من شأن العرب وتاريخهم ولغتهم وحضارتهم وأقطارهم هو طابع العصر . ولكن زكي مبارك قاوم هذا الاتجاه كله بعنف ، وسبح ضد التيار ، في ايمان صادق عميق ، غير أن أساليبه لم تجد من الرصانة والحكمة واللباقة ما يحقق له ابلاغ رسالته الى الناس ، واقناع العقول بها . فكانت العاطفة أغلب ، وكانت الجرأة

نحمل الخطأ والكلمة العنيفة • وكان الطابع الذاتي يبرز كثيراً خلال ذلك كله ، فيقلل من شأن الآراء الصادقة المؤمنة بمصر والأمة العربية وتراثها ولغتها ومكانها •

وكان زكي مبارك مدرعا بالعافية ، كما يقول ، والمستقبل يتفتح له في قوة ، لما كان يملك من وسائل ، ومآلف من كثير ، وما أنشأ من فصول • غير أن اغراقاً وقع ، وامتد ، لم يلبث أن قضى على هذا العقل الناهض الذكي والحس القوي ، وأصاره في سنواته العشر الأخيرة مجهداً ، قد انطوى من أسلوبه البليغ الرائع سحره ، ومن مادته قوتها ، ولم يلبث أن ضعف عن الاشتراك في المعارك ، التي أثرت ضده ، ثم انطفأ السراج مبكراً (١٨٩٢ - ١٩٥٢) •

ومنذ مات زكي مبارك ، لم يذكره ذاكر ، الا كتابات قليلة على فترات متباعدة • فكان حقاً على عصرنا الذي جعل من الوفاء أولى علاماته أن يذكر « زكي مبارك » الكاتب الذي لم ينصفه جيله •

انور الجندى

مطالع الحياة

ستريس بالمنوفية

عندما اتجه زكى مبارك من (ستريس) الى القاهرة ليدرس بالأزهر لم يكن أحد يدري على وجه الاطلاق أن هذا الشاب الذى حفظ القرآن الكريم فى • كتاب • القرية سيكون من أبرز كتاب العربية فى العصر الجديد • وأنه سيثير ثورات فى الأدب والنقد لم يخف آوارها •

وفى الأزهر بدأت شخصية (زكى مبارك) تبرز فى وضوح • انه ذلك الانسان الملىء بالحيوية المتدفق الجرىء الطلعة • الذى يتأهب للتبرير فى هذا المحيط الصاخب •

وقد استطاع زكى مبارك أن يؤكد شخصيته فى ثلاثة ميسادين :
الخطابة والصحافة والشعر • فانه لم يلبث أن انضم الى الجمعية الأدبية التى انشأها الشيخ محمد حسنين العدوى وكيل الأزهر ، لتوجيه الأزهرين الى اجادة الشعر والانشاء • فما لبث أن أصبح أظهر الطلبة • وفى المسابقة التى أقيمت للخطباء فى مسجد محمد بك ابى الذهب كانت قصيدته هى أولى القصائد وأبرزها •

وفى الأزهر التقى زكى مبارك بأستاذين كبيرين ، كان لهما أكبر الأثر فى اتجاهه الأدبى ، وقد ظل يذكرهما حتى أيامه الأخيرة هما :
الشيخ سيد بن على المرصفى • وقد صحبه سبع سنين • والشيخ محمد المهدي • وقد صحبه أربع سنين • وكان الشيخان أديبين ، يدفعان الشباب فى طريق الأدب ، فى الوقت الذى كان أساتذة الأزهر يدفعون الشباب فى طريق الفقه والدراسات الدينية المجردة • وكان لهذا أثره الذى اعترف به طه حسين والزيات ، وغيرهما من شباب الأزهر ، أولئك

الذين كانوا يتطلعون الى حياة جديدة ، تتحرر من القيود • ولذلك حرص الشيخ سيد بن على المرصفي على تجديد شباب • كتاب الكامل • للمبرد وتشذيبه • وقد حدث بين الدكتور زكي مبارك وبين السباعي بيومي صراع طويل ، حول هذا الكتاب ، وحول رأى السباعي في استاذة المرصفي •

وقد كان لصحبة زكي مبارك لهذين الشيخين أثرها في طريقته في التعبير ، وفي اسلوبه في البيان ، من حيث الكيف والكم • فقد كان زكي مبارك ينظم القصيدة في ثلثمائة بيت ، ثم عاد فكان ينظم مقطوعات قصيرة تبلغ أحيانا بيتين أو بيتا واحدا • وقد نشر بعض هذه المقطوعات في « السفور » •

ولا يعرف بالضبط اليوم الذي وصل فيه زكي مبارك الى الأزهر • ولكنه على وجه التحقيق كان طالبا في الأزهر عام ١٩١٠ يعيش بين الحواشي والتقارير ، وله صوت مسموع ، ولا بد أنه كان قد وصل الى الأزهر قبل ذلك بسنوات ••

وقد كان زكي مبارك في الوقت نفسه كاتبا يكتب في جريدة « الأفكار » • ولم تلبث الثورة المصرية ان اندلعت سنة ١٩١٩ ، حتى كان في مقدمة الداعين لها والعاملين • وكان من أبرز خطباء الأزهر في هذه الفترة الى جوار الشيخين محمود أبى العيون وعبد اللطيف دراز ••

وكان قبل ذلك قد اتصل بالجامعة المصرية القديمة • كما اتصل بها عدد كبير من شباب الأزهر • وعلى وجه التحديد انتسب زكي مبارك للجامعة بصفة رسمية سنة ١٩١٦ •

وكانت دراسته الفرنسية من أشق الأمور التي منى بها وأقبل عليها ، وقد اتصل ببعض المدارس المسائية ، لهذا الغرض • ولكنه لم يلبث أن شق طريقه بقوة • فقد ذكر في بعض كتاباته ، أن وفدا من الأجانب زار الأزهر أيام الثورة • فقام فيهم خطيبا ، باللغة الفرنسية • وحاز ذلك إعجابهم حين شاهدوا ازهريا معهما يصعد المنبر ويتكلم الفرنسية بطلاقة •

وليس من شك في أن « زكي مبارك » في خطواته هذه كان يتخذ من

طه حسين والنزيات ومصطفى عبد الرازق ، وغيرهم من الأزهر بين الذين اتجهوا الى الجامعة القديمة ، مثلاً له . . ولم يكن زكى مبارك فى هذا الوقت يصغر هؤلاء الا بسنوات قليلة . . وقد كان عمره اiban ثورة سنة ١٩١٩ سبعة وعشرين عاماً .

وقد كان زكى مبارك الشيخ الأزهرى الذى يطلب العلم فقيراً بسيط الحال . وكان يعيش حياة بسيطة فقيرة . ويسكن ربح النورية . وقد صور الفرق بين حياته الأولى وحياته بعد ذلك بسنوات ، فقال : « كنت لأول عهدى بحياة القاهرة أعيش عيشة بسيطة . فلم أكن أشعر بفوارق كثيرة حين أتقل لقضاء الصيف فى الريف . ثم تحضرت رويدا رويدا الى أن صرت لا أستطيع قضاء ليلة واحدة بمنزلنا القديم فى سنتريس . »

ولم يكن زكى مبارك يعباً بالأدقة ولا بحسن الملبس ولا ببذل اهتمامه بالمظاهر . وقد ظل كذلك الى آخر أيامه .

فى سنتريس

ولد زكى مبارك فى سنتريس عم ١٨٩٢ (١) على وجه التقريب ، وهى تلك القرية المجاورة للرياح المتوفى فى اقليم المنوفية ، وقريبة من القاهرة . أرضها من أجود الأرض . وكان والده من الزراعين الأذكياء الذين عرفوا بالخلق والكرم . وقد أحب زكى أباه . وكان موضع فخاره واعجابه ، وقد رسم له صورة وصفية عندما توفى عام ١٩٣٥ تمثل فيه صباحة الوجه وصحة الدين وصدق القول وفصاحة اللسان وثبات الجنان والعزيمة والرزانة . وقال ان ثغره كان لا يعرف غير الابتسام ، حتى فى أشد الأزمات والخطوب . وأن الدنيا كانت عنده هيئة لاستحق أن يقطب لها جبينه . وهذه هى الصورة التى رسمها زكى لأبيه « عبد السلام مبارك » .

(١) لم يكتب تاريخ ميلاده بالضبط . ولكنه قال فى مقدمة ديوان « الحنان الخلود » الذى كتبه عام ١٩٤٧ « ان ديوان الحنان الخلود يرد الى شبابى وقد جاوزت الخامسة والخمسين » . ومعنى هذا انه ولد عام ١٨٩٢ . وبذلك يكون قد توفى فى سن الستين (توفى فى فبراير ١٩٥٢ على اثر سقطة زلقت فيها قدماه . فكان النريف الذى استنزف حياته ، رحمه الله) .

أبي

• لقد عرفت بموتك حقيقة نفسي • وكنت أتشهى أن أكون أمة وحدي
في عالم الوفاء • فطب نفسا إن كان يعوزك ذلك • فمما أثار موتك في
صدرى الا ذكرين غائبتين : ذكرى أمى التى فقدتها فى سنة ١٩١٧ •
وذكرى أخى سيد الذى فقدته فى سنة ١٩١٨ • أما أطفلى الذين دفتهم
من قبل ومن بعد فقد نسيتهم كل النسيان • لأن حزنى عليهم نوع من
الأثرة •

• أقسم ما رأيت أصبح منك وجهها ، ولا أصبح دينها ، ولا أصدق
قولا ، ولا أنصح لسانا ، ولا أثبت جنانا •

لقد أخرجنى موتك عن وقرى • ورماني بطوائف من التحرق
والالتئاع • فاخذت أتأمل كيف يأفل القمر ثم يعود • وكيف تتعاقب
النجوم فلا يعوقها أفول • ثم نظرت فرأيتك تذهب الى غير معاد • وفكرت
فى الغلالة الانسانية التى وعدت بها الأنبياء • وتمنيت أن تكون الحق كل
الحق • وأقسم ماكفرت منذ آمنت • ولكن موتك قلقل يقينى ، ورمى
بقلبي فى أتون من الجزع •

هل تعلم أنى ما تلفت الا رأيتنى مغمورا بأياديك • فهذا دمك يجرى
فى عروقى • وأنت الرجل الشهم الذى اجتاز مفاوز الدنيا بقلب من الصخر
وعزيمة أمضى من السيف • وتلك رزانتك أتمثلها ، فأزداد سخرية
بالحوادث والخطوب • وذلك ثغرك الذى لم يعرف غير الابتسام فى جميع
الأحوال ، أتمثله فأعرف أن الدنيا أهون من أن يقطب لها جبين الرجل
الشجاع • وذلك إيمانك ، أتذكره ، فأعرف أن اليقين كنز ثمين •

لقد كانت شمائلك تفيض بالعطف والحنان • وكان النظر الى وجهك
ربعا للقلب والروح • وكان اتجاه الفكر اليك يغمرنى بالرفق والروحانية •
وقد رسم زكى مبارك صورتين لحياته الأولى فى القرية : فقال فى

الأولى انه نشأ فلاحاً ، وما زانت في يده آثار الفأس والمحراث • وانه لم يعرف السعادة في ظلال العواطف الا بفضل ذلك العهد • وانه في أيام حداته : « كانت ستريس لا تعرف الطلقات ، فكن الماء يحمل الى المنزل من النيل أو من السواقي • فكنت ترى في الصباح اسرابا من الصبايا يحملن جرات الماء ، وحولهن ظلال من الهوى والمرح والشباب النشوان • وانه في تلك الأيام ، أيام الشباب كن يخرج لصلاة الصبح • ثم ينقل مسرعا الى داره • فيسحب البقرة أو الجاموسة أو الجمل • ويخرج الى الغيط • وهو مسرور جذلان ، لأنه سيشهد أسراب الصبا في طريقهن الى السواقي أو النيل • وكانت تلك المشاهد تتكرر في الصباح ، وفي الأصيل من كل يوم ، فكان شبان الريف يمشون بقلوب مشبوبة في الغدوات والأصائل • وكان الشباب لا يغدو ويروح الا بقلب مفتون • •

أما الصورة الأخرى فيرسمها في مقدمة كتاب التصوف الاسلامي :

• كنت في حداتي - كأكثر من ينشئون في الريف - أشهد مجالس الصوفية • وكنت لأبني صلات روحية بأهل الطريق • وكنت أعرف وأنا طفل أني موصول العهد برجل صالح اسمه محمد سعد • وكذلك درجت على احترام ارباب الصوفية • • وهكذا يجمع زكي مبارك بين شخصيتين مختلفتين في أعماقه ، لعلهما استمرتتا تتنازعانه طوال حياته •

صورة الشاعر المفرد ، والانسان العاشق الولهان •

وصورة الصوفي المؤمن ، المحب لله ••

أما ستريس ، تلك القرية التي أخرجت « زكي مبارك » • فهي - كما وصفها - بلد طيب يمتاز عن أشمون وشطنوف بأشرفه على النيل •

قال : « ولم نهتد الى تحقيق الاسم • وبعض الناس يظن أن التسمية فيها مسحة رومانية • ولكن الأستاذ « محمد رمزي » يؤكد أنها تسمية مصرية • والمعروف أن هذا البلد قديم للغاية • وكانت مساكن أهله على تلال عالية ، آخرها يسمى « جرف العيسوية » • وهو تل لم يرفع الامند

خمسین عاما • وكانت آخر بقاياہ مسجد سیدی سالم ومقامہ •

وسیدی سالم هذا ، كن یظن علماء ستريس انه سالم بن عبد الله
أحد فقهاء المدينة • ولكنی رأیت أخیرا فی شرح العینی علی البخاری أن
« سالم بن عبد الله » دفن بالمدينة • وقد بنی المسجد المقام علی الأرض بعد
أن رفعت بقایا التل منذ ثلاثین عاما •

وكانت ستريس فی العهود الخلیة من المعاهد التي یحج إليها
الشعراء (١)

وقد صور زکی مبارك مشاعره عن ستريس فی بعض قصائد فقال :
لیالی النسل واللذات ذاهبة وجدی علیکن أشجانی وأضنانی
لو یرجع الدهر لی مکن واحدة فی ستريس ویدنی بعض خلانی
اذن تبین دهری کیف یرحمنی من ظلم همی ومن عدوان أحزانی
وقوله :

أه لو یسمح الزمان ونلقى من طوی قریهم عناد الزمان
وتری (ستريس) والدهر غاف ما قضینا من اللالی الحسان
وقد رسم صورة « العید » فی ستريس فقال :

« فی ستريس صورتان مختلفتان لطعام العید • الأولى لعید الفطر ،
والثانية لعید الأضحی • ففي عید الفطر یغیب الکعک • وهم فی بلدنا
ینطقونه بالحاء المهملة • ویکثر كذلك (المنین) وهو أقراص صغيرة تحلی
بالسكر أو بالعجوة • وللمکک فی نفس أهل ستريس صورة الفرح
والانشراح • وهم لذلك یحرمونه علی أنفسهم فی العید ، اذا کان فی

(١) ادعی زکی مبارك فی مقال له بالبلاغ (١٧ من یونیة سنة
١٩٣٢) بأن المتنبي زار ستريس وله فیها قصائد • ثم عاد فی خاتمة
مقاله فقال « وأهل العلم یرتابون فی نسبة هاتین القصیدتین الی المتنبي
وبرجحون أنها من وضع أحد شعراء العصر الحديث » • وهی القصائد
التي نشرنا بعضها من أبیاتها فی هذا الفصل •

البيت حزن • والأهل والجيران يراعون خواصر من مت لهم ميت ، لم يمض عليه العيد فيمتعون عن خبز الكعك • ومع أن المحزونين يحرمون على أنفسهم الكعك فإنهم يصنعونه أحيانا للصدقة على روح الأموات ولصلاة العيد اسم طنان في ستريس • وأشهر مساجدها جامع أبي فراج • وجامع سيدى سالم • وهم يزعمون ان « ابا فراج » من العراق •

وان أهل ستريس يذهبون الى المسجد قبل الفجر بساعة أو ساعتين فيقرأ المتجهدون ورد السحر ، ويرتلون الدعوات والتسبيحات •

وزيارة الأموات فى ليلة العيد من التقاليد المعروفة فى ستريس • ولكن لايبست أحد منهم ، كما يقع فى القاهرة ، ولا يذهب رجل الى المقبرة الا فى يده فانوس • •

وفى خلال فترة حياته فى القرية ، تعلم فى المكتب وحفظ القرآن • وكان متطلعا فى هذه الفترة الى نظم المواويل ولم يلبث زكى مبارك أن وجد طريقه الى الأزهر ، شأن لداته فى ذلك العصر •

مطالع الحياة فى الأزهر

ترك زكى مبارك قريته ستريس ، ويمم نحو القاهرة ليلحق بالأزهر سنة ١٩١٠ وهو فى سن العشرين • وفى الأزهر بدأ حياة جديدة • كانت حياته بسيطة ساذجة ، فى احدى الأزقة القرية من ذلك المعهد الذى كان له أثره الكبير فى تحول حياته ، وقد سكن فى ربيع الغورية العتيق •

وكان من أبرز أساتذة الأزهر الذين تأثر بهم اثنان هما : سيد المرصفى وقد صحبه سبع سنين • ومحمد المهدي وقد صحبه أربع سنوات • وكان لهما أثرهما فى طريقة فهمه للشعر • فبعد أن كان يكيله بالكيال ، حتى تصل القصيدة الى ثلثمائة بيت ، عاد الى المقطوعات حتى كان يكتب بيتا واحدا (١) •

(١) نشر زكى مبارك قصيدة من بيت واحد فى مجلة السفور سنة ١٩١٦ تحت عنوان « ظلام الليل »
وجن على الليل حتى حسبته جفاء كريم أو رجاء لثيم

وقد صور صلته باستاذيه الكبيرين : فقال في فصل عقده عن الشيخ المهدي : أن هذا الشيخ « هو أول من تلقيت عليه الأدب في الجامعة المصرية • وقد صحبته فيها أربع سنوات ، وسمعت محاضراته في عهد الجاهلية وعهد بني أمية وعصر بني العباس • وكنت أصل جناحه بعد المحاضرة حتى يصل الى المحطة • وقد كان رحمه الله يؤثر سكنى الضواحي على سكنى العاصمة • ويمكن الحكم أنه كان من نوادر الأساتذة الذين فهموا روح هذا العصر واستمعوا نداء الجيل • »

كما رسم صورة استاذة سيد المرصفي فقال :

« يأبها الرجل الذي عرفت بفضلها اسرار اللغة العربية ، واستطعت بفضلها أن أرفع رأسي بين أساتذة الأدب وحملة الأفلام •

يأبها الرجل : أنا مدين لك بكل شيء في حياتي اللغوية والأدبية • ولا يزاحمك في قلبي الا انسان واحد ، هو فريد الادب والبيان : الشيخ محمد المهدي • لست وحدي تلميذك أيها الشيخ الجليل • فهناك مئات انتفعوا بعملك وأدبك • ولكني الرجل الوحيد الذي بكى لموتك في حرارة دونها بكاء الأطفال • في سنة ١٩١٣ رأيت في الأزهر رجلا تحيل الجسم غائر العينين لا يفصح سيماء عن شيء • وحوله عشرة من الطلاب وهو ينشد بصوت شجي :

حماسة بطن الواديين ترنمي سقاك من الغر الغواذي مطيرها

أبينى لنا لازال ريشك ناعم ولازلت في خضراء جاد نميرها

فجلست أستمع لأنشاده • وما هي الا لحظة حتى تبينت أن الذي يحرم دروس ذلك الرجل لا يخرج من الأزهر الا بصفقة المغبون • ثم أخذت أحافظ على تلك الدروس في حماسة واعجاب • وكانت عادة الرجل أن يلقي الأسئلة على الطلبة في تجاهل العارف ، ثم يتركهم يستبطلون الجواب

وبعد يومين من اتصالي بدرسه جاءت كلمة ابن عباس (ما عصى الله بشعر أكثر مما عصى بشعر عمر بن أبي ربيعة) فقال الشيخ رحمه الله :

أهذه مثلية أم منفية ؟ نقلت : يريد ابن عباس ن شعر ابن أبي ربيعة
يفعل بالقلوب ما يفعل الشراب • فينقلها من الهدى الى الضلال • •

فقال الشيخ رحمه الله فى حماسة شديدة : «ايه ياعروس الأدب!»

وكانت أول كلمة حييت الى قلبى دراسة الآداب •

كان الشيخ خفت الصوت ، فكنت أبكر الى درسه لأقرب منه، وكنت
أكتب كل ما ينطق به ، حتى جمعت من درسه ثلاثين كراسة ، هى اليوم
أنفس ما أملك من ذكريات الأزهر الشريف • وكان الشيخ قد تعود ان
يرانى أمامه • فجت يومًا متأخرا • ورفض الطلبة أن يفسحوا الى المجل •
فقال الشيخ : أين زكى ؟ • • فأجبت من بعد : «هانذا يا مولاي » • فقال
الشيخ رحمة الله عليه : « وسعوا له لعله ينفع • •

• فان كان من بين آلاف القراء قارىء واحد استطاب ما أكتب ، ولو
مرة واحدة ، فليذكر أن الفضل فى ذلك يرجع الى تشجيع الشيخ سيد
المرصفى ، طيب الله ثراه »

وانى لأذكر انه كان يلقي درسا فى مسجد السلطان برقوق • ثم
حضر الشيخ على الزنكلونى ، حفظه الله • فقال الشيخ : انه ليحزننى
يا شيخ على أن تظل مشيخة الأزهر غثلة عن تشجيع أبنائها • وانى لأخشى
أن يضع منا زكى مبارك كما ضاع منا طه حسين •

ثم ضاعف الشيخ رحمه الله من حرصه على نفعى • فكنت أحضر
جميع دروسه ، وأصحبه فى الطريق • وأمضى الى بيته ، فأطلع على ماله
من مكنون الذخائر الأدبية واللغوية • وأنشده شعري • فيقومه • ويصلح
منه فى رفق كثير • •

ولم يلبث أن اشترك فى ثورة سنة ١٩١٩ • فكان واحدا من خطبائها
المبرزين • وقد ظل طول حياته يذكر موقفه هذا ويزدهى به • وقد حق
له أن يزدهى فان هذا الحظ من المشاركة فى ثورة سنة ١٩١٩ لم يتح
للكتيرين من كتب مصر • وكان يردد دائما كلمته « أقدمت يوم جسد
الخطب غير وجل ولا هيب » •

وقد كتب عن هذه الفترة من حياته عديدا من الفصول والكلمات :
يقول : « كانت السلطة العسكرية تبحث عني لتقتلني • وكنت من
خطباء الثورة المصرية وشعرائها • وكان الجواسيس قد أخبروا السلطة
العسكرية أنني ألقى قصيدة سياسية في الأزهر • وكان يجب أن أحترس
فأمنع السلطة البريطانية من أن تعرف أين مكاني • فقضيت ثلاثة أشهر
وأنا لا أعرف أين أبيت • كان مأوى غرفة في سطح بيت يقيم بها أحد
الشبان الأقباط من أبناء ستريس • وهو شاب على جانب من اللطف والذوق
هو الأستاذ أنيس ميخائيل (١) •

وقد أرسل زكي مبارك خطابات الى صديقه أنيس ميخائيل ، نشر
منها هذا الخطاب في كتابه « البدائع » وهذا جانب منه :

من رسائل المعتقل

• سأضرب صفحا عن الدمة التي سكبها على القرطاس • لأن مني
لا يبكى له • ولا يبكي عليه • إنما خلقت لأكون مثلا في الشمم والأباء •
ولو كان بي حب الدعة والطمأنينة لما مكثت في المعتقل هذه الشهور الطوال •
فقد فكر القوم في مساومتي لأول لحظة وطئت فيه ثكنة قصر النيل ولكنني
أقذيت عيونهم حين أريتهم كيف يطيب الشقاء في سبيل البلاد • وأقسم
لو سلم المصريون جميعا وخرج مصطفى كامل من قبره ليصافح الانجليز
لما كان في ذلك ما يزعجني قيد أنملة عن معاداتهم ، حتى يكون الجلاء
وأعذك أن تحسب أن جلاءهم عن مصر ، ان تم ونحن أحياء ، ينسينا
ما فعلوا بنا ، وبأهلينا ، منذ كان الاحتلال •

ليست انجلترا هي العدو الوحيد للأمة المصرية بل هناك عدو آخر

(١) كان زكي مبارك بلجا الى منزل أنيس ميخائيل بحي القللي
في ضاحية السبية قبل أن تعتقله السلطة العسكرية البريطانية
الدخيلة المحتلة •

مارس ١٩٢٠ - من رسالة الى صديقه أنيس ميخائيل •

ما زال من قبل يبص بآلأمة غير وان ولا راحم • لا وهو بجهل • هذا العدو اللدود ، الذى نستعين به انجلترة لأعصب وادى النيل • وسأعرف ما أصنع حين أعود الى القاهرة ولو بعد حين • سأعرف كيف أحارب الجهل ، وكيف أصب الصواعق على رؤوس من يستغلون جهل الأمة ، فينالون به ما لهم من سبى الأغراض ومنكر الشهوات • كما كب فيما بعد ذكرياته عن هذه الفترة من حياته تحت عنوان :

ذكریات طالب الاشتراك فى الثورة

• كنت من خطباء الثورة المصرية ، فاكثريت بنارها وشهدت آلام التشريد ، والاعتقل شهورا طوالا • ومع هذا فما تثلت هذه الأيام ، الا بدت لى بعيدة غاية البعد ، كأنما ألقى به القدر فى واد من النسيان • • •

ويطيب لى أن أذكر أن عهد الثورة سبقته عهود من الضجر واحواب لمطالعة عهد جديد ، فقد كنا فى أخريات أيام الحرب تنطلع الى الحلاص من الآصار التى أرهقتنا بها مظالم السلطة العسكرية •

وكانت السلطة العسكرية البريطانية المحتلة قد منعت الناس طوال أعوام الحرب من زيارة قبر مصطفى كامل • فلما كان يوم ١٠ من فبراير سنة ١٩١٩ هاج الناس وذهبوا الى قبر مصطفى كامل • وذهبت مع فريق من الطلبة • ورأيت المرحوم الشيخ أحمد ندا يقرأ القرآن • والنسب يستمعون فى صمت ورهبة • وخطب يومئذ المرحوم على فهمى كامل (بك) ولما انصرفنا تجمهرنا فى حى المنشية • وهتفنا بحياة الحرية والاستقلال • وقبضت السلطة العسكرية فى ذلك المساء على عدد كبير من الطلبة • فقصوا أياما وأسابيع • وذلك فيما أذكر أول عهد الطلبة بعد الحرب بالسجن والاعتقال •

ولأذكر الآن أننا ذهبنا الى الأزهر لاقامة مظاهرة ، وذهبت كل مدرسة معها علمها الخاص • ووقفنا صفوفنا أمام الأزهر نخطب ونهتف • وظلت

الطائرات الانجليزية تحوم فوق رموسنا بجويما ، وفتحنا . وبقينا كذلك حتى
اتصفى النهار .

ومن مظاهر ايام الثورة ان الخطاب كانت تتجربى منظمة فى الأزهر
كل مساء . وكان الشيخ عبد ربه مفتوح يفتل أخبارها الى جريدة الأهرام .
كما كانت الخطب والمظاهرات واقامة امتاريس والاستحكامات فى كل مكان
فى مصر ، بين جميع الطبقات ، وبين الجنسين ، وكان الأزهر يموج كل
مساء بالآلاف المؤلفة لسماع الخطب الوطنية . وكان رئيس الخطابة يومئذ
الشيخ محمود أبو العيون . وكان الانسان لا يصل الى موقف الخطيب الا
بجهد جهيد . وكنت أبحث عن فرصة للخطابة فلا أستطيع . وظللت أياها
لأخطب . وطال الانتظار . وفى مساء يوم حضر وفد الصحافة الأجنبية .
وخطب خطيبهم باللغة الفرنسية ، فسألني الشيخ أبو العيون أن أرد تحيتهم
فتقدمت بجرأة وحماسة . وخطبت خطبة فرنسية رنانة ، شهد الشيخ
الزركلوني بأن لسانى فيها كان أفصح من لسانى بالعربية . ومنذ تلك
اللحظة كنت أصل الى موقف الخطيب بترغبة الجمهور الذى كان ينتظر
خطبى كل مساء . وأشهر خطباء الثورة يومئذ أبو شادى (بك) والشيخ
مصطفى القايتى . والدكتور محجوب ثابت . وغيرهم من الأساتذة والطلبة
والثقيف والشبان والفتيات .

ومما سجله فى بعض كتاباته قوله عن هذه الفترة :

« كان الانجليز قد سمحوا للمعتقلين أن يستحموا فى البحر
مرتين فى الأسبوع . فكنت اوغل فى البحر ابعثا شديدا . فيرفع الجنود
بنادقهم ويهددوننى بالرصاص اذا لم أرجع الى الشاطئ . ولكن الوهم
عندهم أننى قد أسبح الى أن أصل الى الشاطئ الفرنسى » (١) .

كما ذكر أنه كان يشتري فى المعتقل بجزء من طعامه (كبا) .

ولا شك أن هذه الفترة من حياة زكى مبارك تعطى خطا عريضا من
خطوط تلك الشخصية . ولقد كان مجهول هذا الأثر ما صور فى قوله :

(١) من مقدمة ديوانه « الحان الخلود » - ١٩٤٧

• لقد تمردت على الظلم كما تمرد أجدادى • فكت بين خطباء الثورة
المصرية سنة ١٩١٩ • فاعتقلنى الانجليز وصيرونى أسير حرب •

ان أيام الاعتقال أورثتنى أحزاناً كثيرة ، وهى أحزان ما زالت تعطر
قلبى • ولكنى أفدت من أيام الاعتقال • فقد عرفت معنى الاغتراب فى
الحياة ، وهو معنى جميل • •

وفى خلال حياة زكى مبارك فى الأزهر ، تلك التى امتدت من
(١٩١٠ - ١٩٢٢) كانت هناك عوامل متجددة تظلى كالمراجل ، تريد أن
ترسم صورة حياته المستقبلية :

- هذه العوامل هى : (بعد ثورة ١٩١٩) : (١) اتصاله بالصحافة •
(٢) واتصاله بالجامعة المصرية القديمة •

كان الشيخ زكى طالب الأزهر يعيش بين احواشى والنمون والتقارير
وقد افتتحت الجامعة المصرية أبوابها • فأتجه اليها اسباب اسطلع الى الظهور
وكان هو فى مقدمة من اتجه اليها • ولم يلبث أن تطلع الى أن يعبر البحر •
فراح يتعلم اللغة الفرنسية ثم يدرسها • وفى خلال ذلك كان هو الشاعر
الذى يقول الشعر ، ويكلف لونا من ألوانه • هو شعر الغزل • فيلقى
أولى محاضراته فى الجامعة عن حب عمر بن ابي ربيعة وشعره • وكان فى
خلال ذلك قد حفظ عددا ضخما من قصائد الشعراء ، بلغ على حد قوله
ثلاثين ألف بيت من الشعر العربى (١) •

• ولم يكن كلامى ضربا من التحدى المؤقت ، وانما كان حقا من
الحق • وما اكتفيت بالثلاثين الفا الا اشفاقا على طلبة الجامعة • فقد كانت
مختارات البارودى من بعض محفوظاتى • وكنت أحفظ دواوين برمتها

(١) يقول زكى مبارك فى عام ١٩٢٧ « خطر للدكتور طه أن يفهم
اساتذة اللغة العربية فى احد دروسه بالجامعة المصرية • فقال : كيف
يجوز لهؤلاء أن يتولوا تدريس الادب فى المدارس الثانوية او العالية
وليس فيهم من تصفح ديوانين اثنين من دواوين الادب العربى •
فنهضت وقلت « ارجو استثنائى من هؤلاء فاننا أحفظ ثلاثين ألف بيت
من الشعر العربى • وأستطيع انشادها جميعا فى أى وقت » •

من الشعر الفرنسى • وقد حفظت معظم كتاب (تليماك) عن ظهر قلب
سنة ١٩١٩ •

ولم أكن أعرف نظام الجذاذات عند الشروع فى تأليف كتاب
« الأخلاق عند الغزالي » فكنت أرجع الى الشواهد فى مؤلفات الغزالي ،
بغير أن احتاج الى دليل •

ثم يعلق على ذلك بقوله : « ما استطعت ذلك كله ، لأن ذاكرتى أقوى
من سائر الذاكرات • أو لأننى أذكى من سائر الناس • وإنما استطعت ذلك
لأننى لا أعرف المسامحت فى صيف ولا شتاء • ولا أذكر أنى انقطعت عن
الدرس فى يوم من أيام الدراسة والأعياد ، حتى أيام البواخر ، قرأت
فيها أشياء ، وكتب أشياء • »

اتصل زكى مبارك بالجامعة المصرية القديمة رسميا عام ١٩١٦ •
فبدأ فيها حياة جديدة ، تطورت حين تقدم برسالته للحصول على الدكتوراه
عام ١٩٢٤ •

وفى الوقت نفسه ، أو قبل ذلك بسنوات كان قد اتصل بالصحافة فقد
كان يكتب سنة ١٩١٤ بامضاء « الفتى الأزهرى » • وألف لجنة لاصلاح
الأزهر والمعاهد الدينية ، وكتب رسائل مختلفة فى نقد المعاهد الدينية •

وقد تولى رئاسة تحرير جريدة الأفكار عام ١٩٢١ • وكانت صحيفة
الحزب الوطنى يقول : « وكنتم أكتبها من الألف الى الياء • وعلى
صفحاتها تقدمت أعمال لجنة الدستور بصورة لاتخطر على البال • »

عمل زكى مبارك فى الصحافة منذ وقت مبكر ، منذ كان طالبا فى
الأزهر • فقد كان حريصا على أن يؤكد ذاته بالحديث عن الحياة ، وعلان
رأيه فيها • وكان فى أدبه الصحفى ناقدا جريئا يتمثل فيه كل عهده
وجرأته واندفاعه •

وقد صور استهلال عمله فى الصحافة فقال :

« فى أوائل سنة ١٩٢١ دعانى الصوفانى (بك) لرئاسة تحرير

جريدة الأفكار • وكنت من محرريها قبل الاعتقال • فبذلت ما بذلت من الجهود في تأييد الحزب الوطنى • ولكن الأقدار لم تمهلنى فى رئاسة تحرير الأفكار غير عام وبعض عام • فقد اتفق الصوفانى (بك) مع الأستاذ عبد القادر حمزة اتفاقا يقضى بأن تصبح الجريدة وطنية وفدية • واشترط الأستاذ عبد القادر شروطا كان أهمها أن يكون حر التصرف فى اختيار المحررين • واشترط الصوفانى (بك) ان يكون للحزب الوطنى محرر يعتمد عليه فى رعاية ما يهم الحزب من دقائق الشؤون • وكان ذلك المحرر هو زكى مبارك • وقبل عبد القادر هذا الشرط وفى نفسه أشياء • ومن أجل هذا لم يسمح بأن أنشر من الأفكار غير مباحث أدبية لاتقدم ولا تؤخر فى السياسة الحزبية •

ثم فوجئ عبد القادر حمزة بأن وجد أن لى نشاطا صحفيا يغيب عن عينه الواعية • وهو مقالات كنت أرسلها الى جريدة الأمة بامضاءات مختلفات • فأدرك أنه لا أمل فى أن أسير كما يسير •

عندئذ بدا لعبد القادر حمزة أن يصحب شابا له أهداف • فوثق بى فدعانى الى الاشتراك فى تحرير البلاغ عند ظهوره فى أوائل سنة ١٩٢٣ • ولكنى رفضت بحجة أن هواى سيفل مع الحزب الوطنى ••

وهذه بعض نماذج من كتابته فى هذه الفترة :

♦ « نريد أن نعرف لم يحرم طلبة الأزهر دراسة الآداب العربية • ونريد أن نعرف متى تدول دولة المؤلفات السقيمة ، التى وضعها قوم ، أقل عيوبهم أنهم لا يفقهون لغة القرآن المجيد • ونود لو تفضل القائمون بإدارة المعاهد الدينية فدلونا على الغرض الذى رموا اليه حين ألقوا بالطلاب فى بيداء من الخلط والتقصير • لنطمئن كما اطمأنوا ولنترحم مثلهم على المؤلفين الأغبياء الذين أفسدوا ما للمطلبة من قلوب وعقول • »

♦ لانجد كتابا من الكتب الأزهرية قد خلا من الحكم على الشعر : احرام هو أم حلال ؟ وهذا خلاف قديم • رويت فيه هذه النكتة الطريفة • وهى أن « سعيد بن المسيب » سمع رجلا يذكر أن انشاد الشعر ينقض الوضوء ، فأنشد من فوره :

ابنت أن فتاة جشت أخطبها •• عرفوا بها مثل شهر الصوم في الطول.
تم أقام الصلاة •

• رأى الكاتب المرفص الحديث لأول مرة • وهو شيخ يلف على رأسه العمامة ويرتدى الجبة والقفطان • وكان ذلك في أوائل سنة ١٩٢٢ • فكتب في وصفه هذه الرسالة الساذجة التي تمثله وهو يفتح عينيه على فتن الوجود في دهشة وانجذاب :

• أعرف أنني شيخ • وأعرف في نفسي أنني من حماة الدين الحنيف • والله عليهم بذات الصدور • ولكنني تذكرت بجانب ذلك أنني صحفي • وأن المهنة تقضي على بارتياح مواطن الشبهات ومواقف التهم ، لأرى كيف يعيش الناس • ولأقابل بين ما أراه على لوح الوجود ، وما أراه على لوح التاريخ • وعندى أن الصحفي كالطبيب • فكما يجوز للطبيب أن يرى أجمل ماتستر المرأة ، ليقف على موقع الداء ، يجوز للصحفي أن ينظر أغرب ماتكم الأمة ، ليقف على مواطن الداء •

وتذكرت أنني كاتب • والكاتب كالمصور • لاغنى له عن رؤية كل مكنون • ولن يعذره أحد إذا أخفق في تصوير الغرائب المستورة ، والعجائب المكنونة ، بحجة الدين والأخلاق • لأن (الفنان) لادين له في قرارة نفسه •

• • ان طلاب الأزهر لا يعرفون غير متاعب الحياة • فهم في سنى الدراسة يعانون الآلام بين الكتب المعقدة ، والدروس المتعددة • ثم اذا اجتازوا عقبات الامتحان بعد العمر الطويل ، والهمم الجزيل ، دخلوا في حياة لاحظ لهم فيها غير حظ الأعزل من النصر ، في ميدان كله رماح طوال وسيوف صقال •

ان النبوغ الذي امتاز به بعض الأزهرين في الزمن القديم والحديث ليس أثرا من آثار الادارة التي تولاهها زعماءه الأقدمون أو المحدثون ولكنه أثر من آثار الذكاء الذي انفرد به بعض الشبان الذين هبأت لهم ظروف خاصة أن يخرجوا على التقاليد البالية •

في الأزهر الآن جماعة من عشاق النهوض تراهم اذا زرت الجامعة
المصرية أو مدرسة الأزهر الفرثية تراهم فلا تشعر بغير الإعجاب بهم
والاعظام لهم • • • • •

ماذا تستطيع أن تعطينا هذه النماذج لرسم صورة زكي مبارك ؟ • •
الواقع انها تعطينا صورة الاندفاع والحماسة والايمان والرغبة في الإصلاح
والاتجاه نحو التبريز والشهرة • • ولكن من هذه النماذج ما يعطى صورة
زكي مبارك التي عاشت معه الى آخر الحياة :

صورة الاعتزاز بشخصيته والبعد عن مزلق النفاق والمصانعة •
يقول في مقال له ، نشرته جريدة الأفكار (نوفمبر سنة ١٩١٩) :
• تنصحنى يا هذا بأن أجامل • وأن أصنع • بل تريد أن أناق •
ويحك • انما ينافق الضعفاء • •

ان الله لم يخلقنى لأكون ألعوبة • أدارى هذا وأجامل ذاك • أناخير
منكم جميعا • أنا فى نعمة من الله • لا أبالى بعدها أين يكون سخطكم وأين
يكون رضاكم • وان الله لأكرم من أن يضطرنى الى مصانعة جماعة من
الكسالى لاقيمة لهم فى هذا الوجود • ان فضيلة الوفاء هى التى تضطر مثلى
الى أن يجامل بعض الناس • كلا : لن يكون هذا • انكم تنافقون لتعيشوا •
أما أنا فحتى بالرغم منكم • لأن الله لا يريد أن اموت • وسوف تعلمون • •

هذا هو زكى مبارك سنة ١٩١٩ • وهو زكى مبارك الى آخر الزمن •
لم يتغير بعد ذلك • ولم يجامل • ولم يتملق • ولم يصانع السلطان • ولذلك
عاش حياته غريبا لم يقتعد مكانه الحق فى الحياة •

وفى هذه الفترة من حياة زكى مبارك لن ننسى الجانب الروحى •
فقد اتصل زكى مبارك فى الأزهر بالطرق الصوفية • كما اتصل بالجامعة •
يقول :

• فى سنة ١٩١٢ وأنا طالب فى الأزهر اشتدت رغبتى فى صحبة
الصوفية • والى الشوق فأخذت أنتقل من ناد الى ناد • حتى تعرفت الى
رجل فاضل من أساتذة الأزهر الشريف • كان يومئذ من كبار الصوفية •

فأخذت عليه العهد • وبدأت أقوم بالأوراد على طريقة الشاذلية • وكان في صوتي من المرونة ما يساعد على القاء الأناشيد • فكنت من المتقدمين في الأشاد • وفي سنة ١٩١٥ رآني ذلك الشيخ صالحا للأستاذية في الطريق فأضاف اسمي الى قائمة الخلفاء • وكان لي في ستريس وغير ستريس مریدون وأتباع •

وفي عام ١٩١٨ قام بيني وبين الشيخ الطماوى نزاع • فقد كان يرانى قليل الرعاية للتقاليد الصوفية • وانتهى ذلك بالقطيعة ••

ومرت أيام عانيت فيها من الضجر ماعيت • وحاولت أن أصلح ما بيني وبين الشيخ • ولكنى لم أفلح في جذب نفسى اليه • فقد اقتنعت ان بعض الصوفية أرباب ظواهر • وان ادعوا انهم أرباب قلوب •

وفي خلال تلك الأزمة ألفت كتاب « الأخلاق عند الغزالي » • ذلك الكتاب الذى نلت به اجازة الدكتوراه من الجامعة المصرية سنة ١٩٢٤ • وهو كتاب تجتبت فيه على التزمت في التصوف • ورميت بعض أشياعه بالغفلة والجهل ؟ وهكذا تبدو حياة زكى مبارك في مطلع الشباب ، وقد غمرها اضطراب عفيف •

حياة الأزهر ، تلك التى أمضى فيها اثني عشر عاما ، قد تخللها الكثير من عوامل التحول عن الأزهر الى الحياة الحديثة والتعليم الحديث ، فولى وجهه شطر الجامعة ، وحاول اتقان اللغة الفرنسية • وكتب في الصحف • وأحب التصوف ، ثم هجره • وبدأ في صورة الرجل الذى يريد أن يعارض الآراء المعروفة والتقاليد حتى يكون ذلك مصدرا للشهرة والتبريز •

حياة في الجامعة

اصلت حياة زكي مبارك رسميا منذ سنة ١٩١٦ ، ثم زادت اتصالا عميقا . وفي الوقت نفسه بدأت تنقطع من ناحية الأزهر ، بل ربما شأبه كثير من القنور والأعضاء . غير أن اثر الأزهر في زكي مبارك ظل قويا عميقا طوال حياته . فلأزهر هو الذي أهدي اليه أعظم خصائصه : أسلوبه البليغ ، وتراث العربية والاسلام ، ممثلا في الشعر والنثر ، وصلته بالشيخين المهدي والمرصفي . كل هذا ظل واضحا بارزا في إنتاجه ، وأدبه ، وحياته وان كان قد تطور ففهم بعض أصول الأدب ومراميه وفنونه ، بعد أن اتصل بالجامعة ، ثم اتصل بالثقافة الفرنسية .

ولكنه حين تحول الى الجامعة ، تحول عن بعض معتقداته وآرائه . فهو الذي كان محبا للصوفية . ثم أنكر بعضهم . بل لقد بلغ في ذلك غاية العنف حين هاجم الغزالي ، فأثار الناس ثورة عنيفة ، رجع عنها بعد ذلك ، وأنكرها من نفسه ، وكتب يقول : « اليك اعتذر أيها الغزالي » .

أما في هذه الفترة فقد استطاع أن يدرس العلوم التي تؤهله للاشتراك في الجامعة . فحصل على الليسانس ، وكان من أساتذته في الامتحان ، أستاذه ورائده والرجل الذي ظل ينظر اليه ويترصده خطاه طوال حياته : طه حسين . وقد أسقطه طه حسين في امتحان الليسانس مرتين . فلما أن ظفر بها بدأ يعد رسالته عن الدكتوراه . وكان موضوعها « الأخلاق عند الغزالي » عام ١٩٢٤ حيث تحقق له ذلك الحلم . فأحرز اجازة الدكتوراه وكان زكي مبارك قد أثار ضجة قبل ذلك بسنوات ، حين حاضر في الجامعة عن « حب ابن أبي ربيعة وشعره » . ولم يكن هذا النوع من الحديث مقبولا في ذلك الوقت ، وخاصة اذا صدر من أزهري يلبس العمامة . . . اذ لم يكن الحديث عن الغزل وعن وصف النساء والتشبيب بهن أمرا

سهلا أو يسيرا حتى يكون موضع محاضرات تلقى ، أو كتب تألف . ولكنه كان حريصا على أن يثير الناس ليطفر بالشهرة . فعل ذلك فى الأزهر حين كان يكتب المقالات الطوال فى نقد نظم الأزهر وأساتذته . ثم فعل ذلك بمحاضراته عمر بن أبى ربيعة . ثم فعل ذلك وبلغ الذروة برسالاته فى الدكتوراه التى نوقشت مناقشة علنية على مدرج الجامعة فى ١٥ من مايو سنة ١٩٢٤ .

وقد صدر زكى مبارك رسالته عندما طبعها بهذه العبارة :
« هذا هو الكتاب الذى نلت به اجازة الدكتوراه من الجامعة المصرية .
والذى سلقنى العلماء من أجله بالسنة حداد . هذا هو كتاب « الأخلاق عند الغزالى » . أقدمه للجمهور ليكون المرجع لمن يريد أن يتبين مبلغ المغرضين من الصدق . وحق المرجفين من الصواب . هذا هو الكتاب الذى رميت من أجله بالكفر والزندقة ، والذى فجر لحسادى ينبوعا من اللهيو والثرثرة لا ينضب ولا يغيض . وما أنا والله بنادم على رأى رأيته ، أو قول جهمرت به . فلست ممن يخافون فى الحق لومة لائم . أو يقيمون وزنا لكيد الحاسدين ولفو اللاعنين من مرضى القلوب وضعاف العقول . »

وقد كتبت الصحف غداة هذا الامتحان بأن « زكى مبارك » هو ابن الجامعة الخامس . فقد أحرز اجازة الدكتوراه بدرجة « جيد جدا » وقالت صحيفة الأفكار : « ان جو الامتحان كان عنيقا . وان الأسئلة دارت حول القديم والجديد . وكان أنصار القديم كثيرين » وأنصار الجديد قليلين . ولكن زكى مبارك لم يجد حرجا فى أن يظهر ، ولم يجد حرجا فى أن يصدم من أنصار القديم . ولم يجد حرجا فى أن يلين لهم حين بصر بهم ينضبون ورأهم يشورون ، ليهديهم من نورتهم ، ويخفف من غضبهم . »
وقال الأستاذ محمد جاد المولى ، مفتش اللغة العربية ، بالمعارف فى ذلك الحين ، يصف هذه المعركة :

« كنت فى تلك الأيام لا أعرف الدكتور « زكى مبارك » معرفة شخصية وإنما كنت أعرفه عن طريق ما يكتب فى الصحف والمجلات . فكنت

أثصوره شابا بعيد الهمة ، كلفا ينقد الشعراء والكتاب والمؤلفين ، محبب
للظهور بمظهر السيطرة والاستعلاء .

ولما أطلعت على رسالته التي قدمها لامتحان الدكتوراه في تلك الأيام
وهي الأخلاق عند الغزالي ، رأيت فيها صدق ظني : رأيت يهجم على حجة
الاسلام الغزالي ، ويقسو عليه ، فلم أجد بدا من أن أتشدد في حسابه ،
لأعجم عوده وأسبر غوره .

فلما أخذت في محاسبة الدكتور زكي مبارك على ما صنع في نقد
الغزالي تكشف جوانب ، أثارت فضيلة الشيخ اللبان ، فتدخل ، وتدخل
معه جماعة من جلة العلماء . وكاد الجمهور يموج من الغيظ . ولولا حكمة
رئيس اللجنة : الدكتور منصور فهمي ، لاضطراب النضاء ، وانفرط عقد
الامتحان .

وحين خلت اللجنة للمداولة أسفر نقاشها عن منح زكي مبارك اجازة
الدكتوراه بدرجة « جيد جدا » . واقترحت أن ينص في محضر الجلسات
على أن اللجنة غير مسئولة عما في الرسالة من الشطط والجموح .

وكت أظن أن المشكلة انتهت عند هذا الحد . ولكني تبينت مع
الأسف أن هجومي على الدكتور زكي مبارك كانت له عواقب . فقد حمل
عليه جماعة من العلماء في جريدة المقطم ، وجريدة الأخبار ، يحملواهم
الشيخ يوسف الدجوى ، والشيخ أحمد مكى .

وعند ذلك عرفت أن الدكتور « زكي مبارك » قد يقضى حياته في
المصاولة والمجادلة لما قد استقر في النفوس من أنه باحث متعسف مشاغب ،
وهكذا كان استهلال زكي مبارك لحياته الفكرية : « باحث متعسف
مشاغب » على حد تعبير الاستاذ أحمد جاد المولى .

وقد وصف عبد الله حبيب صديقه « زكي مبارك » في هذا الجانب من
جوانب حياته : فقال :

« أما ما أثاره من ضجة حول آرائه الجديدة في شعر ابن أبي ربيعة ،

فقد ظهر لى بعد ذلك أن هذا هو دينه فى كل ما يتناوله من موضوعاته • وهو فى هذا كأنه خلق ليسبب للعقول (رجة) لا قبل لأحد على احتمالها • وأشار زكى مبارك فى بعض كتاباته الى أن الشيخ « حامد الفقى » وقف يوم الجمعة التى تلت امتحانه • وخطب خطبة الجمعة • فقال : ظهر فى مصر ملحد اسمه زكى مبارك • ذلك الذى فرحت الجامعة المصرية بالحاده • فمنحته الدكتوراه • ومثل هذا الملحد فرصة لمن يريد أن يدخل الجنة • • وقال : « ان خطيب مسجد الهدارة حرض المصلين على قتله » أحب زكى مبارك كل مدينة عاش فيها : أحب باريس ، وبغداد ، والقاهرة ، والاسكندرية • • وكانت جميعها مصدر الوحي له • •

« لماذا أحب الاسكندرية ؟ » • يقول : « السبب يرجع الى انى دخلت الاسكندرية أول مرة ، وأنا حزين ، دخلتها فى قفص • دخلتها فى سيارة مقفلة من سيارات السلطة العسكرية الانجليزية فى أيام الثورة المصرية • دخلتها فى الظلام • فلم أر من جمالها غير أطراف • ثم نقلت من ذلك السجن المتحرك الى مقر الاعتقال فى ضاحية نائية هى اليوم صباية ومدارج فتون • ومن يصدق أن ضاحية سيدى بشر كانت معتقلا يسجن فيه من هتفوا باسم الحرية والاستقلال • • ؟ !

• قضيت فى هذه المدينة شهورا ضواليا بدون أن أشهد من جمالها غير ما يطوف بالأوهام والظنون • ولن أنسى أبدا كيف كان هدير البحر يقرع سمعى وقلبى فى غفوات الليل • ولن أنسى كيف فرحت يوم خرجت من المعتقل لأرى الاسكندرية بعينى ولا طوف فى رحابها حيث اشياء بلا حارس ولا رقيب (١) •

وهو يتنزه كل فرصة يكتب فيها عن أى موضوع ليزود القارى بمزيد من التاريخ والثقافة :

• وسكان الاسكندرية يرجعون فى الأغلب الى عنصرين اثنين :

(١) وصف زكى مبارك الاسكندرية اكثر من مرة فى مقالاته • وقد أوردنا صورة أخرى لها فى مكان آخر •

العصر الوافد من الصعيد • وهو عصر معروف بالعداء ، والعصر الوافد عليها من المغرب بعد سقوط الأندلس فى أيدي الأسبانيان ، وهو عصر معروف بقوة المراس ••••• كما أقبلت على الاسكندرية طلائع الجيش الاسلامى ، وجعلت للاسلام دولة على شاطئى المحيط • وقد كان بحر هذا أول بحر خفقت فيه الراية الاسلامية • وسيظل الى الأبد همزة الوصل بين حضارة الاسلام فى الشرق وحضارة النصرانية فى الغرب »

أما القاهرة فلها عنده صور متعددة : فهويراها شيئا ضخمًا مهولًا •• ويراهها ملاذ كل خائف ومأمن كل ملهوف •• وفى مقال له عنوانه « ويسألونك عن القاهرة » يقول (١) •

قل القاهرة بغداد الأمس وباريس اليوم •

أكتب هذه الرسالة ، وقد هربت من ضجيج القاهرة • فى مسسات العيد •

نعم هنا القاهرة • ولكن أين مكان الأديب فى المدينة التى أصبح عاصمة الشرق ، هنا فى القاهرة زادالعقول والقلوب والعواطف والأحاسيس فأين مكان الأديب يا قاهرة ليؤدى ما أداه عشاق بغداد فى القديم ، وعشاق باريس فى الحديث •• ؟

وسأذكر بعد فوات الوقت أننى جنيت على شبابى حين أضلعت بين سواد المداد وبياض القرطاس فى زمن لا ينفع فيه غير الاتجار بالتراب •

وهل يستطيع قاهرى ان يمضى يوما واحدا بلا كفاح ، وهو يعيش فى مدينة مقدودة من صخور الصبر على مصاولة الحياة ؟

ان هذه المدينة التى تفتنكم لم تخلق فى يوم وليلة • وانماهى عصابة العزائم الشداد فى الأجيال الطوال • فمن أقام فى القاهرة وله عقل وذوق فليحاسب نفسه على اللمحات واللمحظات ليؤدى الزكاة عن قلبه وعقله وذوقه ان كان من الموفقين •

(١) الرسالة - ٥ من فبراير سنة ١٩٤٠

فى كل بلد من بلاد الشرق يستطيع الرجل الوسط أن يعيش ، لأن
الدنيا فى بلاد الشرق ما زالت ، وستظل ، تتسع للأوساط من الرجال •

أما فى مصر - ويرحم الله أهل مصر - فليس فيها للرجل الوسط
مكان العالم الوسط • فهو لا يستطيع العيش • والأديب الوسط لا يجد
الرزق • والصحفى الوسط لا يملك الوصول الى خبر صغير •

أليست القاهرة هى التى فرضت الخمول على مئات من الشعراء ،
لأنهم لم يكونوا فى عبقرية شوقي وحافظ وصبرى ومطران ؟
ويسألونك :

أليست القاهرة هى التى فرضت الخمول على مئات من الكتاب ،
لأنهم لم يكونوا فى عظمة محمد عبده ، وعلى يوسف ، وعبد العزيز جاویش
ومصطفى المنفلوطى ، ومحمد المويلحى ؟

عندنا مئات من الكتاب والشعراء ولكنهم سيموتون بفصة الحسرة على
أن نشئوا فى القاهرة لهذا العهد ، عهد الزحام العنيف الذى لا يسلم من
كرهه غير الفحول الصوالية •

لو كان الماضى ينفع لجاز لرجل مثل أن يعتمد على ما ضيه فى خدمة
الحياة الأدبية والفلسفية • ولكن القاهرة تعيش فى وجه الرجل الذى يعتمد
على ما ضيه • لأن ذاكرتها تضيق عن مراجعة الأسماء • أسماء المجاهدين
الذين عطروا باسمها أرجاء الشرق ، هى حسنة لعوب لا تعرف حتى
العاشق المزود بأطياب الثروة والعافية •

فى مثل هذا العيد من سنة ١٩٣٢ كذبت على أبى مرة • ولم أكذب
عليه غير تلك المرة • كتبتا ليه أقول انى سأقضى أيام العيد فى الاسكندرية
ولم يكن الا حيلة لأحبس نفسى أيام العيد فى البيت ، لأكتب فصلا من
فصول « الشر الفنى » • وهو الفصل الخاص بتطور السجع فى اللغة
العربية •

انما أنا قاهرى يحبس نفسه فى البيت يوم العيد ، ليحفر بسنان القلم

تقبا يتطلع منه على ضوء العظمة فى القاهرة ، عساه يقنع القاهرة بأنه رجل
مجتهد يستحق أن يعيش .

• القاهرة لا تعرف الرجل الوسط • فافهموا هذه الحقيقة ، يا أبناء
هذا الزمان • والا فهناك سلة المهملات تنتظر الألوف ممن يرسلون الجرائد
والمجلات •

زرت سفح المقطم منذ أعوام لأستوصى روح سيدنا عمر بن الفارض
قبل أن أشرع فى كتابة الفصل الخاص به فى كتاب • التصوف الإسلامى •
فراعى أن أعرف أن تلك الناحية هى انفع مكان فى القاهرة من الوجهة
الصحية • وكذلك ألفت أن القاهرة تدخر أجمل بقاعها للأموات •

وطنى ! لقد شقيت بعظمتك • ومن أجل هذا أحبك ، وأستعذب
الصناب والعلقم فى هواك •

فى باريس

تعقب زكى مبارك خطوات أستاذه طه حسين ، الذى أحرز الدكتوراه
من الجامعة المصرية القديمة ، واتجه الى فرنسا • كذلك فعل هو مع
اختلاف الوسائل والأساليب • فقد ذهب طه حسين على حساب الدولة • أما
هو فقد عجز عن تحقيق هدفه عن هذا الطريق فسافر على حسابه • كان
فى السنوات الاولى يقضى الشتاء فى مصر ، والصيف فى فرنسا ، يدرس
ويتأهب ، ثم انقطع عامين فى باريس ، عاش خلالهما على مورد ضعيف من
جريدة البلاغ • واستطاع أن يحقق أمله ويظفر بالدكتوراه من السربون
برسالته • الشر الفنى •

وكان ذلك عملا ضخما يرسم صورة لطبيعة زكى مبارك وصلابته فيما
يؤمن به ، وإيمانه بالوصول الى هدفه مهما وقفت الصعاب فى وجهه •
وقد صور زكى مبارك هذه المرحلة من حياته فى مقدمة كتاب « الشر
الفنى » فقال :

« هذا كتاب الشر الفنى فى القرن الرابع ، وهو كتاب شغلت به نفسى سبع سنين . فان رآه المنصفون خليقا بأن يضم قلب مؤلفه بشماع من نشوة الاعتزاز ، فهو عصارة مجهود عشرين عاما قضاه المؤلف فى دراسة الأدب العربى والأدب الفرنسى . وان رآوه أصغر من أن يورث المؤلف شيئا من الزهو ، فليذكروا أنى الفته فى أعوام سود لاقت فيها من عنث الأيام ما يقصم الظهر ويقصف العمر : فقد كنت أشطر العام شطرين . أقضى شطره الأول فى القاهرة ، حيث أودى عملى ، واجنى رزقى . وأقضى شطره الثانى فى باريس ، كالطير الغريب ، أحدث العلماء واستلهم المؤلفين الى أن ينفد ما ادخرته أو يكاد ، ثم صممت على أن أنقطع الى الدرس فى جامعة باريس حتى أتصر أو أموت . وكانت العاقبة أن أنعم على الله عز شأنه بالنصر المبين » .

وفى كثير من كتابات زكى مبارك وصف لحظات العبور وما تبطن نفسه اذ ذاك من مشاعر بالظلم « أسلمنا القطار الى الباخرة فى غير عاء ونقلت أمتعتى الى مكانى فى السفينة . ثم جاءت ساعة الغداء ، فشغلنا عن توديع الاسكندرية ، ان كانت تحتاج منا الى توديع . وهيهات ، فقد تمادت بنا مظالم الحياة . وكدنا لا نعرف ما الوطن وما فراقه : اذ كنا فى بلادنا غرباء . والمظلوم فى وطنه غريب »

وفى مكان آخر يقول تحت عنوان « غريب فى يوم العيد » .
كان أول يوم دخلت فيه باريس سنة ١٩٢٧ من الأعياد الاسلامية :
كان يوم عيد الأضحى . فلم أشعر بضجر ولم يساورنى اكتئاب . فقد كنت أعرف ان أهلى فى مصر يجتمعون للعيد ، ثم يسألهم الناس عنى ، فيحيون بآنى على سفر ، فتجرى على الأفواه كلمة « رعا الله » . ثم بادرت يومئذ الى الجامع ، لأشهد المسلمين وهم يتصافحون . فازدودت أنسا الى أنس . وزالت عنى وحشة الاغتراب . واليوم يحتفل الفرنسيون بعيد ميلادهم . ويتسابق الأقرباء والاصدقاء والمحبون الى التحف المختلفة . فيتهاذونها ، وعلى وجوههم علائم البشر ، وعلى شفاههم أشعة الابتسام . أما أنا فوحيد فى غرفتى . لا أنتظر أحدا . ولا ينتظرنى أحد .

وقد صور زكى مبارك فى مقدمه كتابه « ذكريات باريس » كيف
وصل الى باريس بعد يأس وبعد شوق • وانه أمضى بها خمس سنوات •
ويوم دخل باريس كان يعترف من دقائق اللغة الفرنسية ما لا يعرفه الا
الأفلون • وكان قبل ذلك قد ألف هذه اللغة ألفة شديدة (حتى كان
لا يتكلم بها جماعة فى جد أو هزل الا تعقت ما يقولون تعقب الدارس
الفاحص)

وقال أن اقامته قد طالت فى باريس ، لأسباب علمية ، سدد الله عليها
خطاه • وان صورة باريس تبدو فى نفسه فى صورة كرام الناس الذين
عرفهم هناك • وهما مسيو بلانشو وابنة خاله كريمة الجنرال بوزن •

وفى باريس لم يترك زكى مبارك صلابته واندفاعه وعنفه ، حتى مع
أسانديه • فانه سرعان ما اختلف معهم فى صميم العمل الذى ذهب من
أجله • وهو رسالة الدكتوراه •

وكان فى مقدمة من اختلف مع مسيو مرسيه ، رأس المستشرقين
الفرنسيين اذ ذاك ، ذلك الذى كان مفروضاً أن يرأس لجنة امتحانه •
فهو يخالفه فى رأى • ولذلك فقدهم بمهاجمته عندما وصل باريس ،
لأن له آراء مدونة فى نشأة النثر الفنى عند العرب ، تختلف مع آرائه •
وقد نصحه مسيو ما سنيون بألا يفعل • وأنهم أن مسيو مرسيه رجل صعب
المراس ، وان منزلته عظيمة ، وأن المستشرقين يحبونه • ولكن ، هل
انتصح زكى مبارك ؟ لا بل انه يقول :

• ولكن كتب الله ألا أتصح برأى مسيو ما سنيون • فابتدأت
رسالتى التى قدمتها للسربون بفصلين فى نقض آرائه من الأساس •
فغضب الرجل ، وثار • وأصر على حذف الفصلين ، بحجة انهما لون من
الاستطراد لا يوائم الروح الفرنسى فى البحث • وأصررت على ابقاء
الفصلين ، بحجة انهما العماد الذى تنهض عليه نظريتى فى نشأة النثر
الفنى •

وكانما عز على الرجل أن أهاجمه فى عقر داره • فمضى يعادبنى

عداء خفيا ، كانت له آثار بشعة لا أتذكرها الا انتفضت رعبا ، من عجز
الرجل عن ضبط النفس وقدرتهم على تقويض دعائم الانصاف . وقد
قابلت خصومته بلدد أقسى وأعنف . ورأيت الحرص على آرائى أفضل
من الحرص على رضا . فأبقيت الفصلين اللذين أعضباه ، واتتهنا الى عاقبة
أفصح عنها مسيو ما سنيون كل الافصاح اذ قل حين لقيته أخيرا فى
باريس :

ان مسيو مرسيه لا يحبك . ولكنه لا يستطيع ان ينساك . أما
أنا فأحب هذا الرجل وأذكره بالجميل . لأنه من خيرة الأساتذة الذين
تلقيت عنهم فى باريس . ولأنه كن رئيس لجنة الامتحان الذى ظفرت
فيه بدبلوم الدراسات العليا . والله سبحانه هو القادر على أن ينسينى مالايت
على يديه من ظلم واجحاف .

وقد أحب زكى مبارك باريس حبا يفوق اتحاد . وأعجب بها أشد
اعجاب . وهو يقول أن دراسته فى باريس لم تحل بينه وبين التأمل فيما
يقع فى مدينة النور من صراع بين الهوى والعقل والهدى والضلال .
فأنشأ كثيرا من القصائد والرسائل فى أغراض مختلفة .

وقال ان باريس تتمثل فى صور تلك الوجوه الصباح التى رأتها
عيناى وألفها قلبى ، ثم أقصتنى وأقصتها ضرورات الحياة الى حيث لا أمل
فى تراسل أو تلاق . وقال انه قد ألف الفراق وراحت قلبه الايام بعد
الجموح فأصبح يجمد ويتحجر أمام أهوال الفراق .

وفى أول أسفاره (يونية - ١٩٢٨) الى باريس يصف فراق مصر
فيقول :

« خليت مصر وخليت ورائى فيها هموما مريرة أثقلت كاهلى ،
وأقصت عيشى ، وراصتنى بعد الجموح . وكنت أحسبني أقسى وأصاب
من أن أعترف بأن فى الحياة غيوما تحجب شمس النعيم من حين الى حين .
ثم قامت بنا الباخرة فلم تطرف عيناى لفراق الاسكندرية . ولم يخفسق
القلب لفراق الوطن العزيز . ومرت بالنفس طوائف من الذكريات

الحزينة تمثلت فيها كيف شقيت بأهلى وأصدفنى • وكيف ضن وادى
النيل بنفحة من نسمت البر على من يشقى ليسعد • ومن يغنى ليقدم
له أسباب الخلود •

ثم ماذا؟! هذا جرس يصلصل ! وهذه افواج من المسافرين تمضى
الى الغداء ، وأنا كذلك أمشى الى حيث يمضون بين الفتور والنشاط •

فى السربون

اقام زنى مبارك فى باريس سنواته الخمس ، حتى ظفر باجزة
الدكتوراه ، فى ٢٥ من ابريل سنة ١٩٣١ • ثم عاد الى مصر حيث بدأ
حياته الجديدة •

كانت حياته فى باريس هى حياة طالب العلم الفقير ، الذى لا يملك
أحيانا الا قوت يومه • كانت الجنيهات الخمسة عشر التى يرسلها اليه
عبد القادر حمزة هى كل ما يملك من مورد • ولكن مراسلة البلاغ كانت
تقتضيه أن يتعمق فى فهم الحياة فى باريس •

وقد سجل هذه المرحلة فقال : « كنت حين انتسبت الى جامعة
باريس أقضى أربعة أشهر فى كل سنة فى مدينة النور ، ثم أعود الى
وطنى لأجمع بين الصحافة والتدريس ما أستطيع به الرجوع الى باريس
من جديد • ودام ذلك بضع سنين • ثم عرفت انى لن أصل الى غرضى
الا اذا قررت بطريقة حاسمة الا أفارق باريس الا فى أحد حالين : النصر
أو الموت • وكانت الألفة الدائمة فى باريس تبدو من المستحيلات • لأن
أبى رحمه الله لم يكن يقدر على امدادى بكل ما أحتاج اليه • وكان
ما ورثته عن أمى طيب الله ثراها لا يزيد على بضعة قرايط • وكانت
زوجتى أفقر منى • ولم يكن لى فى الحكومة المصرية عم ولا خال •

فى تلك الظلمات استطعت أن اتفق مع الاستاذ عبد القادر حمزه على
مراسلة البلاغ فى باريس ، بمرتب قدره خمسة عشر جنيها • فتوكلت
على الله • وقررت الاعتكاف بالقبلة القديمة فى السربون •

وكان لا بد من الاتصال الدائم بأساتذة السربون ومدرسة اللغات الشرقية لأظفر بما تساميت إليه من الألقاب العلمية » .

وكان اتصاله غنيا . فن « زكى مبارك » الفلاح لم يفقد (فى باريس) ، طبيعته المندفعة ، وعبراته الجريئة ، ولم تعلمه باريس المجاملة ولا المداراة . فل زكى مبارك فى قلب السربون : « جئت لأصحح أغلاط المستشرقين » . ومن هم هؤلاء المستشرقون ؟ هم اساتذته والذين يمتحنونه ، ويدهم أمره كله . وقد حدثنا كيف وقف فى وجههم فى ديارهم . وقد صدق فى قوله هذا . وجرى تاريخه بعد عودته من باريس نقيا قويا مؤمنا باللغة العربية ، مدافعا عنها . ولم تفلح باريس أن تحول أماته للأمة العربية الى فرنسا واللاتينيات ، كما فعلت بعشرات غيره

ولكن هل اكتفى زكى مبارك فى باريس ، بحياة الطالب فى باريس؟ كان لابد له من معرفة الحياة فى باريس ، لينجح فى مراسلة البلاغ . ذلك الذى كان يدنح له مرتبه الشهرى الذى يعيش به هناك . وقد صور هذا فقال :

« هدتنى الفطرة الى قضاء أوقات الفراغ فى الملاهى والملاعب والمراقص والقهوات ، فكنت أقضى فى هذه النزعة الطريفة ساعات من النهار وساعات من الليل . كنت شابا ، ورحمة الله على شبابى ، الشباب الذى بددته فى طلب الحب والمجد . كنت أذرع باريس بقدمى لأخلق لماقالاتى جوا من الحقيقة لا من الخيال . وأعانتى على ما أسموا اليه لسان مرن فى اللغة الفرنسية مرونة محببة ، تقدر على جذب من أحداث من أسراب الظباء .

والفرنسيين يغفرون للرجل جميع الذنوب اذا أمدته العناية الالهية بلسان فصيح . وكان لى فى باريس ثلاث قهوات : قهوة صغيرة جدا فى يوليش بجوار قهوة الرجل التى كان يجلس فيها الدكتور طه حسين ، يوم كان طالبا فى جامعة باريس . وكانت هذه القهوة الصغيرة مخصصة

للمواعيد الغرامية والتأملات الفلسفية • فكيف صارت اليوم ؟ ليتنى أعرف
أما القهوتان الأخريان فهما الروتوند والدرم فى حى مونيارناس •

وفى قهوة الدوم وقعت المأساة أو الملهة التى أدونها فى هذا الحديث

دخلت ذات صباح فوجدت سيدة تطنع سفر الوجود بعينين زرقاوين
يندر أن يكون لهما شبيه أو مثيل • وجلست بانقرب من تلك السيدة
عسانى أنهب منها نظرة أو نظرتين ، أستعين بهما على اتمام بعض الفصول
فى كتاب (سحر العيون) وما هى الا دقائق حتى تلاحظنا برفق وعطف •

ثم أشارت بأن اقرب • فاقتربت ••••• رياه متى تعود أيامى ؟!

وبعد أن دار كأس الحديث نحو عشرين دقيقة ، عرفت أنها من
البلغايا ، أعوذ بالله • أمثل هذا الحسن يكون من نصيب الفجوة (الأوباش) ،

أنكون هذه الحسناء الفاتنة شبيهة الشمس ، نعم بضوئها من يشاء
ولو كان من الخذفيش ؟ أتكون هذه التحفة الفنية الشبيهة بكرائم الأنهار
يشرب منها البهائم والدواب ؟ ألك يا رياه حكمة فى اذلال هذه الروائع
الفنية التى زينت بها الوجود ؟

وهجمت على تلك السيدة بعنف • فقالت :

• أنا امرأة شقية خدعها شاب مثلك باسم الحب • وكان ثمرة الحب
طفلا • هو اليوم بمدرسة (••) وقد هجرنى الحبيب والد الطفل • وتركنى
وحدى أربيه وأرعاه فأنا أتسول باسم الحب ، لأنفق على ذلك الطفل
المسكين ، الى أن يظهر أبوه ••

وما كدت أسمع هذا القول حتى دارت الأرض تحت قدمى •

ومن أين أنفق على هذه السيدة وعلى طفلها • وليس لى من جريدة
البلاغ ، ومن الدروس الخاصة (الخصوصية) ، الا مبلغ ضئيل من المال ،
لا يزيد على ثلاثة آلاف من الفرنكات ، والحياة قاسية أشد القسوة على
الغرباء فى باريس •

ثم نظرت فرأيت هذه المرأة تعرض مشروعا نبيلًا قد يرفع روحى

بعد اسفاف • وقالت فى استحياء ان لغرفتي مفاتيح • لك مفتاح ، ولى
مفتاح • فخذنى لنفسك • وراقبني كيف تشاء • فان استطعت ان تشهد
على ما يريب بعد اليوم ، فاقتلنى • والمهم أيها السيد أن ينجو طفلى من
الجهل والجوع • •

• • وقد أنسى كل شيء • ولكن لن أنسى طلعة مورييس •••••

وسألنى الطفل : أين كنت ؟ فأخبرته انى توجهت الى الشرق لزيارة
القاهرة وبغداد وبيروت ، واخترعت له أقاصيص تعجبه وتلهبه •

وفى تلك الليلة شعرت أن روحى ارتفع الى أجواز السماء •

وفرحت مرجريت بما صارت اليه من راحة البال وصفاء النفس ،
بعد الهيام الأليم بأحياء باريس • ومضت تقترح ما تشاء من المغامرات ،
فعلمتنى الرقص ، وطوفت بى على المكنونات من صناديق الليل •

وبفضل مرجريت عرفت من خبايا باريس مالا يعرف الشياطين •

ولم تكف بذلك • بل نقلتنى الى دران والهافر • وأطلعتنى على
المستور من شواطئ المانش ، وأقامت معى فى الضواحي النائية أسابيع •

والله وحده يعلم كيف عاشرت تلك الحسناء • فلو أنى قلت انى
كنت فى حبها من الأظهار ، لما صدقنى مخلوق • وأجمل ما نلت منها لم
يزد على قبلة شهية ، طبعتها على جبينى ، حين أخبرتها أنى متأهل ، ولى
أبناء • وقد قهرتنى على قبول هدية من العطر والكريم لأرسلها الى ابنتى
أو زوجتى • وقد قبلت الهدية ثم ألقيتها خفية فى نهر السين •

وكانت مرجريت متعبة الى أبعد الحدود • قالت لى ذات يوم :
• أنت يا دكتور معرض للمسمنة لكثرة ما تشرب من البيرة • •

كانت مرجريت ضجرة من حياة الفنون • وكنت ضجرت من حياة
الفنون • وكنا نشتهى أن نعرف معنى التصوف فى الحب • وكيف
لا نتصوف فى الحب ، وقلوبنا معمورة بحب الطفل العزيز مورييس ؟

وبعد أن دام هذا النعيم النبيل خمسة عشر شهرا ، وصلت الى ما أريد من امتحانات مدرسة اللغات الشرقية ، وامتحانات السربون . وأصررت على الرجوع الى أهلى وأبنائى . ولم يكن بد من توديع مرجريت وموريس .

وأى توديع . كان من الواجب أن أرد المقاسح الى مرجريت . فرفضت والدمع فى عينيها الزرقاوين . وقالت : « احفظ المفتاح . لقد صل على حين غفله الى باريس .. »

في بغداد

عاد زكى مبارك من باريس سنة ١٩٣١ وسافر الى بغداد سنة ١٩٣٨ للتدريس فى دار المعلمين العليا ببغداد . فى خلال هذه الفترة عمل زكى مبارك رئيسا للقسم العربى فى الجامعة الامريكية ، وموظفا فى وزارة المعارف .

وكتب خلال هذه الفترة فى جريدة البلاغ . ويمكن أن يقال ان هذه هى أخصب فترة فى حياته الادبية . كن يكتب كل خميس مقالا تحت عنوان « الحديث ذو شجون » وفى خلال ذلك كان يعد العدة لرسالته فى الدكتوراه من الجامعة المصرية عن رد التصوف الاسلامى « يوم ١٤ من ابريل سنة ١٩٣٧ . حث أحرزها فى الفلسفة بدرجة الشرف .

وهذه هى الدكتوراه الثالثة التى أطلق بعدها على نفسه لقب « الدكتور زكى مبارك » وفى خلال هذه المرحلة أثار زكى مبارك خصومات ضخمة متعددة مع أدباء مصر حتى لم يكن القول انه لم يترك أدبيا بارزا دون أن يطاوله . وفى مقدمة من طاولهم الدكتور طه حسين .

وقد سجل زكى مبارك أنه بعد أن رجع من باريس ، لم ينحرف ، ولم يكن حريصا على أن يقدم ألوانا من الادب الفرنسى وأعلامه ، كما حدث بالنسبة للأدباء الذين سافروا الى فرنسا ، وعادوا . وهو يصور هذه الفترة فيقول :

« حين رجعت من باريس سنة ١٩٣١ ، أخذت أنشئ في جريدة
البلاغ مقالات عن ذخائر الأدب العربي . ولكن الدكتور ابراهيم ناجي
ضاق صدره بتلك المقالات . فقد كان ينتظر أن أكتب عن الأدب الفرنسي
ولهذا كتب مقالات بتوقيع مستعار في إحدى الجرائد الأسبوعية ، تقصم
على الغمز والتجريح . واستمر غمزه وتجريحه سنتين » .

وكان زكي مبارك في خلال هذه الفترة يذكر النشر الفني على أنه
قمة ضخمة من قمم أعماله الأدبية : ما تذكرت كتاب النشر الفني الا
شعرت بنيران تتأجج في عروفي » .

وقد أعلن في أكثر من مناسبة أنه أول حائز لدرجة الدكتوراه في
الفلسفة من الجامعة المصرية القديمة ، وأول حائز لدرجة الدكتوراه في
الفلسفة من الجامعة المصرية الجديدة .

وتعد رحلة زكي مبارك الى العراق رأس مرحلة جديدة في حياته .
فقد أتاح له الفرصة لأن يزداد ايمانا بالعروبة . ويوسع دائرة ثقافته
ويعمقها ، ويحرص على أن يكتب عن العراق والشاعر الشريف الرضي .
وقد ظل زكي مبارك يربط بين رحلته الى باريس ورحلته الى
العراق ، ويؤكد أنه باقته في العراق قد أعز العروبة .

وما أظن أن كاتباً من الكتاب العرب أشاد بجزء من الوطن العربي
وبلغ في ذلك أروع صور الوفاء ، كما فعل زكي مبارك ، حين أشاد بالعراق
وأحيا فيه جوانب الحياة هناك في حب واعزاز . بل ان « زكي مبارك »
ذهب في حبه للعراق الى أبعد الحدود . فلبس السدادة العراقية . وأعلن
أنه سفير للعراق في مصر . وقد كان عام العراق (١٩٣٨) من أخصب
أعوام حياته . فقد شغل مطبعتين في بغداد ، كان عمالهما يطرقون بابه
مع الشروق ، ليقدموا التجارب ويطلبوا الأصول .

يقول : « كوتني بغداد ثم شفتني بغداد ، كوتني لأنني عشت فيها
محبوسا ، لا أدري أين أذهب . وشفتني بغداد لأنني أنست بسواد الليل
حين فتنني الأسس بسواد العيون ، فشرفت نفسي بمراسلة الصحف في

مصر والعراق وبنان ، وخرجت من ذلك سحصول سيملا حمسه
مجلدات » • وثى عجة اخرى يقول : « لقد أخصيت ما كتبت فى هذه
المره فوجدته يزيد على خمسة الاف صحيفه • ونظرت فيما حبيب من
الدروس والمحاضرات فى بغداد ، فوجدته يزيد عما أذاعه الأستاذ فلان
فى عشر سنين » •

ويقول : انه لم يعرف طعم الحياة فى بغداد • فقد قضى جميع
لحظه والقلم فى يده • واشترك فى أكثر اندية بغداد ، ونظم محاضرات
ولم يترك زكى مبارك فى العراق طبيعته ، فدخل فى معارك ومساجلات
بل انه أثر الجهات المسئولة ضده ، على أثر حديث له فى الاذاعة • وكانت
اذاعة أسبوعية كان يشهدها من يشاء من أفضل البغداديين ، وجعل مساء
كل خميس سهره أدبية فى نادى المعارف •

وكان يرى أن مهمته فى بغداد لم تقف عند حدود التدريس •
وانما هى أعظم من ذلك : « أدركت أن لى مهمة تفوق العمل الذى انتدبت له
– وهو التدريس – أدركت أنه يجب أن أجاهد فى السر والعلانية •
ونظرت فرأيت « بغداد » توحى الى قللى بأشياء لم يلتفت إليها من قبل ،
ورأيتنى فى حال أو أحوال تضيفنى الى أرباب القلوب من أهل الاشراق •
وقد كانت من أبلغ أعمال زكى مبارك فى بغداد دعوته الى الجامعة
العراقية التى طالما ردها • وكان مما قاله :

« هل ترانى أنلج فى دعوة الشعب العراقى الى الصوم يوما واحدا
لتكون أثمان طعامه فى يوم واحد كافية لإنشاء جامعة تنافس الجامعة
المصرية ؟ »

ويصور كرم العراق فى أكثر من صورة • فيقول :

« ما ذقت طعم الحياة الا فى العراق ••

ولا رأيت صدق القلوب الا فى العراق ••

ولا عرفت جمال النيل الا بعد أن رأيت لون مائه فى دجلة والفرات

أحب أن تسمعوا سجع الحمام في الموصل • وأن تروا غابات النخيل
في البصرة • وأن تعانوا السحر في بابل • وأن تكحل أعينكم ببغداد
الصحراء في النجف • وأن تستصبحوا بظلام الليل في بغداد • ،

وفي موضع آخر يقول :

• هل عرفت معنى الصداقة السليمة قبل أن أعرف العراق ؟
لقد أحببت أولئك الناس وأحبوني • فلي فيهم أصدقاء ، هم الغاية
في الوفاء • وسأبقى ما بقي من حياتي وأنا اليهم مشتاق • مشتاق • ،
ويصور عبوره دجلة من الكرخ الى بغداد :

• فعبرت دجلة من الكرخ الى بغداد • وأنا في دھول • فحدثني
النفس بحلاوة الغرق في النهر الذي وعى ما وعى • وضع ما وضع من
أسرار القلوب • ثم تذكرت ديونى في القاهرة ، ديونى لجريدة الصباح
التي تعطر بأنفاسها نسائم مصر الجديدة والزمالك • • ،

وقد تساءل هو عن سر شغفه بالعراق ، فقال :

« أنا في الواقع تلميذ بغداد ، قبل أن أكون تلميذ القاهرة أوباريس »
وتساءل كيف سيطر العراق عليه كل تلك السيطرة فقال :

« السبب واضح : وهو أنني نقلت الصدق عن أهل العراق » والحق
ان سر نجاح زكي مبارك في حياته الأدبية لأنه أحب كل بلد عاش فيه •

ملاحـ شخصيـة

لا أعتقد أن شخصية أدبية أوضح في ملامحها وأصرح من شخصية
زكي مبارك فإنه من اليسر الوصول الى شمائل هذه الشخصية من آثاره
وكتابات • فهو أصرح كدائنا المعاصرين في الحديث عن نفسه • وأجرؤهم
في الكشف عن دخائله • وأقدرهم على مجافاة التقاليد •

وهو صاحب مذهب الصراحة ومجافاة النفاق في الكتابه ، والنوع
بمهاجمة المنافقين والذين يظهرون غير ما يبطنون • فهو يعلن رأيه في
كل انسان ، وفي كل شيء في صراحة تامة ، دون أن يبالي عواقب ذلك
في حياته العامة • ولقد جر عليه مذهبه هذا عداوات كثيرة • وكان
سببا في تخلفه في الحياة وعجزه عن الوصول الى مكانه الحق •

ولعل مرجع هذا عنده أنه قد احتفظ بطبيعة الفلاح ، في عنفه
واندفاعه وصراحته وصوفيته • فاذا أحب أو كره ، بلغ غاية الغايات ،
ووصل نهاية الشوط • لا وسط عنده ولا اعتدال • تتحكم فيه عاطفته
وأعصابه • وتذهب به مذهب الرضا أو الغضب •

وهو الى هذا قادر على مواجهة أخطائه ، والاعتراف بها ، ولعل
أبرز مواقفه في ذلك عندما هاجم الغزالي ، في مستهل حياته الفكرية ،
ثم لم يلبث أن رأى نفسه قد أخطأ في ذلك • فكتب في صراحة ينكر
رأيه الأول ويعترف بخطئه •

يقول انه برأ نفسه من المجاملة والنفاق المنصوع ، وانه ترك لعقله
الحرية ، رغبة في تخليص الادب من برائن الرياء والصنعة وقود
الهوى • ولعل هذا هو الذي صير حياته أتوا متقدا من العداء الصارم
الملاحق الذي سد أمامه أبواب الرزق ، وفصله من عمله مرة بعد مرة

وهو من الواقعيين الذين يواجهون الحياة مواجهة عملية ، حين
يرى (ان الرحمة شيء جميل ، ولكن دنيانا لم يقم فيها بناء واحد
على أساس الرحمة • والطبيعة نفسها لم يتسق فيها وضع واحد على أساس
الاشفاق • وانما قام كل شيء في الوجود على أساس القهر والغلبة
وسيطرة القوى على الضعيف •)

ويمضي في فهم الحياة على هذا النحو فيرى أن الشيطان مخلوق
شريف ، لأنه لا ينافق • فهو يعلن في كل وقت أنه من الضالين
المضلين • ولو كشف كل انسان عن سريره كما كشف الشيطان لأصبحنا
جميعا من الملائكة لا من الشياطين •

وقد يتهم بأسرافه فى الاتجاه العاطفى ، وتغلبه على الاتجاه العقلى
فيدافع عن نفسه « أنا رجل يؤمن بأن القلب أدق ميزانا من العقل •
وكيف لا يكون كذلك وهو يأخذ هدايته من الفطرة • على حين لا يهتدى
العقل الا بالبراهين ، وهى فى الاغلب تقوم على مقومات لا تخلو من
تضليل • •

وهو لا يستطيع أن يعيش فى ظل أحكام العقل • ولعل هذا
هو الذى يجعل خصومه يتهمون به أحيانا بالجنون • يقول :

« أنا متهم بالعقل ومتهم بالجنون • فمن وصفنى بالعقل فهو
متلطف • ومن وصفنى بالجنون فهو مسرف • لأننى فى حقيقة أمرى
إنسان يعيش بشرة العواطف ، فوق ما يعيش بقوة العقل • وهى حالة
تجعل أمرى وسطا بين العقل والجنون • والتوفيق الذى ظفرت به فى
حياتى العلمية مدين لحياتى الوجدانية • فثورة الوجدان هى التى
حملتني هلى أن أستقل فى الدراسات الأدبية والفلسفية • وقد يأتى
يوم أعترف فيه بالأسباب الوجدانية التى جعلت عملى يتفوق الى أبعد
حدود التفوق ، فى مثل كتاب « النثر الفنى » أو كتاب « التصوف
الاسلامى » • •

وهو يؤمن بالصدق والصراحة بالرغم مما جرا عليه من متاعب :
« النفاق نعمة عظيمة عرف قيمتها اللثام ، فأوغلوا فيها ، وافتتنوا فى جميع
أسبابها •

والصراحة محنة اقتنع أصحابها بأنها أساس الرجولة والنبل ،
فأسرفوا فى الغناد ، حتى لا أمل فى ردهم الى الحد المعقول • •

وهكذا يكشف زكى مبارك عن حقيقة كان لها أثرها الواضح فى
حظ حياته كله • لقد اقتنع بأن الصراحة محنة • ولكنه ظل عبدا فى
الايمان بها •

وفى هذا يقول مخاطبا نفسه : « لقد وصل ناس لأنهم كذبوا ،
وتخلفت أنت لأنك صدقت • ونعم ناس لأنهم خانوا ، وشقيت أنت لأنك

وفيت • وتقدم ناس لانهم هزلوا ، وتأخرت أنت لانك جددت • وانتفع
ناس لانهم غدروا ، وخسرت انت لآلك وفيت • •

وهو يحول أن يفتح الناس بأن (الصدى لا يفضب عقلاء الرجال ،
وانما يفضبون من التحمد البغيض الذي تمليه اضغاثن والأهواء) ولكن
أحدا لم يقتنع •

وهو لا يحب الهدوء وينفر منه ، ويبحث عن الضجيج : يقول :
« الجنة لا تستهويني لأن الحياة فيها تخلو من المتاعب وأنا أكره الحياة
الخلية من المتاعب • مضيت مرة للبحث عن مكان هدى في إحدى
ضواحي باريس • فوجدت شيئاً كتب على بابه هاتان الكلمتان : (هـدوء
مطلق) • فانزعجت لأنني أعرف أن الهدوء المطلق لا يكون الا في
مساكن الأموات •

وفي بغداد اخترت دارا يجاورها مصنع حديد ، لأفر من الهدوء
المطلق • وبنيت داري بمصر الجديدة في مكان يجور ضجيج الحياة ،
لأسمع اشتجار المعاني في صدر الوجود • •

وهو دائما يسجل أنه وصل الى ما وصل اليه بجهد بالغ ونضال
جبار : « هل عاني أحد في دنيا الادب مثل الذي عانيت : لقد انتزعت
حظي من أنياب الحياة السود • فهو حظ مدون بالسهم الزعاف • ولو
استطاع قوم أن يتجاهلوا وجودي لفعلوا • ولكن كيف يستطيعون ،
وقد ضيقت عليهم الخناق ، وقهرتهم على الاعتراف بأن العاقبة للصابرين
على مكاره الجهاد • وهو يندم على أنه قضى حياته ليعمل في الأدب : • لو
كنت اتجرت بالتراب لصرت من أكابر الاغنياء • ولكني شغلت نفسي بما
لا يفيد ، فذرعت فضاء الله في فرنسا ، الى أن سبحت في بحر المانش •
وذرت فضاء الله في العراق ، الى أن سبحت في شط العرب • وألفت
اثني واربعين كتابا منها اثنان باللغة الفرنسية • واشتغلت بالتدريس
عشرين سنة • وكانت صراحتي تقطع رزقي • فأخرجني الاستاذ
محمد حسن العشماوي من عملي • وأخرجني الأستاذ عبد الرزاق أحمد
السنهوري من وزارة المعارف • •

ويقول : « لم أنتفع بشيء • فمذ عام ١٩١٣ الى سنة ١٩٥٠ وأنا
أحرر فى الجرائد والمجلات ، وأملأ الدنيا ضجيجا ، وأنشئ مدارس
أدبية وفلسفية ، وأنظم القصائد الجياد • ثم أرائى متخلفا فى حياتى
الرسمية • وأنا معتز بهذا التخلف • فما لأحد فى حياتى ما يمن به على
إذا اشتجر بينى وبينه الجدل » •

وهو يعيش فى حيرة دائمة متصلة ، كأنما هو غريب •• يخشى
دائما أن يواجه نفسه • « ما رجعت الى نفسى مرة الا تهيت اقتحام ما فى
شعابها من وعور وصخور وأشواك • وقد وقعت مرة على ساحل النفس فى
ظلمات الليل • فرأيتنى عندها من الغريب • وكيف لا أكون كذلك ، وأنا
منها على بعد سحيق ، سحيق ، يعد بسلايين من الاميل ؟ •

وفى ليلة عيد الميلاد : يمضى يجوب الظلمات • وقد راعه أن يجد
فى قلبه فرعا مخيفا يذكر بالفراغ • وفى كل مناسبة أو فى كل عيد تراه
يقاسى الحيرة نفسها • ويضيق بدياليه وأيامه ، كأنما يبحث عن شيء
مجهول •

وهو الى ذلك قد يمضى العام دون أن يعرف طعم السهر فى مغائى
القاهرة • وترى أن الأزمة الباقية هى أزمة القلب ، فقد بقى قلبه
كالغابة فى ضمير الظلماء • « فن قلت انى أشكو خيبة فى الحب أو
اخفاقا فى المجد أو غدرا فى الأصدقاء ، فاعلم أن هذه كلها مخرجات
هينة ، تزعج النفس لحظة ، ثم تزول •• وأكاد أحسب ان الناس يتخذون
من الحب والصداقة والمجد علالات لقلوبهم وأرواحهم •

وأنا لم أنجح فى شيء من ذلك ، لأن استقلال ارادتى حال بينى
وبين الاندماج التام فى هيئة من الهيئات • وأنا بين المؤمنين ، ملحد •
وبين الملحدين ، مؤمن • وأنا بر عند الفجار • فاجر عند الابرار • فأنا
فى كل بيئة أجنبى • وفى كل أرض غريب • •

ولا يلبث أن يرى نفسه متحررا من كل تبعية فيقول « كان يجب
أن يكون فى مصر كاتب مفكر متحرر من العبودية لمن فى أيديهم الرفع
والخفض ، وأنا ذلك الكاتب » •

وقد صدق ...

وعندما عاد من العراق ازداد احساسه بالغربة ، فرسم هذه الصورة
التي تدل على الامعان في الغربة ...

• هذه داري ، الدار التي أفتتها على أسراف الصحراء بمصر
الجديدة لأفتح أمام قلبي آفاق المجهول في عوانم ابني . وهذا وطني ،
الوطن الذي عنيت من أجله ما عنيت ، ولم اخنه في سر ولا جهر ،
ولم يرمني غير الصدق والوفاء . هذه داري ، وهذا وطني . ولكن أين
أحبائي وأحبابي ؟ من كان يظن أنني أقضي الأيام والأسابيع فلا أجد من
يسأل عني بعد غياب الشهور الطوال . من كان يظن أنني أحبس نفسي
في داري ليالي وأياما ، فلا يسهر لعزليتي جفن ، ولا يحزن قلب ، ولا يرتاع
وجدان ؟ من كان يظن أنني لم أعبر شرع فؤاد غير مرة واحدة منذ
رجعت من بغداد ؟

أنا أطفئ المصباح بعد نصف الليل ، وأفتح النوافذ ، لأرى كيف
يهيم نور القمر فوق رمال الصحراء . آه . ثم آه من حيرة القلب في غفوات
الليل .

أيتها الصحراء : ان حالك مثل حالي . موات في موات . وقد
تمرح فوق تراك الميت هوام وحشرات ، وفوق ثرى قلبي الميت تمرح
هوام وحشرات ، هي السخرية من الناس ، واليأس من صلاح القلوب
وجمال الوجود .

وقد ترق حواشيك بالندى أو الغيث ، فتنبت فوق نراك الأعشاب
أما قلبي فقد أمحل الى الأبد . ولن ينبت فيه شيء .

أيها الليل ، خذ السواد من قلبي ، ان أعوزك السواد . خذ الظلام
من حظي ان أعوزك الظلام . خذ من قلبي ومن حظي ذخيرتك للأحباب
المقبلات .

أيها الليل ، لا تجزع من العزلة ، فأنا هنالك أسامرك وأناجيك
لا تفزع من الوحدة ، ففي قلبي ظلمات تسابير ما تحمل من ظلمات .

انت باق على الزمان • وأنا صائر الى الفناء • • •

تزوج زكى مبارك مبكرا ، ومنذ عمل فى الجامعة سكرتيرالمسيو
كازانوفابدا يتطلع الى المجد • ألم باللغة الفرنسية منذ كان طالبا بالازهر
وخطب بها على منبره • وكان يدرس فى الصباح • وفى المساء ، كن
يلقى دروسا مساءية فى تدريس اللغة الفرنسية بمدرسة الاليانس فرانسيز
• • • وكان له أولاد وأسرة • • • ولم تمنعه متاعبه هذه من أن يجاهد
ويعبر البحر • • • وقد فرق بين الزوجة الفلاحة والزوجة السفارة • •
فاعترف لزوجته بالفضل • • • يسرني أن أسجل اعترافى بالجميل
لزوجتى الفلاحة التى سارت سيرة أمها وأختها • فحفظت قلبى سليما
من الهموم التى تزلزل عزائم الرجال • • •

وذكر أثر الزوجات الجميلات فى حياة ازواجهم : • علمتى
التجارب ان الرجال الذين لهم زوجات سواقر تقضى لهم مصالح لاتقضى
لأمثالنا نحن المحافظين المفضلين الذين يجهلون خلق الزمان • • •

وقد صور أحزانه لفقدائه : « كنت ألقى دروسا مساءية فى تدريس
اللغة الفرنسية ، بمدرسة الاليانس فرانسيز • وكنت أخرج مكدودا بعد
ساعتين من الدرس • دخلت البيت فوجدته فى سكون على غير المألوف •
فعرفت أن (أحمد) مات • وأن زوجتى لا تريد أن ترانى ، لثلا أقرأ
فى سطور وجهها أن (أحمد) مات • أويت الى فراشى ، وهوى الدور
الثانى من البيت • وقضيت الليل كله فى أحلام مزعجات • ان للثكل
طعما مرا للغاية • كفتته يدي • وحملته على كتفى الى مشواه الاخير •

وكان زكى مبارك فى شبابه نحيلا • وقد صور ذلك فى شعر
كتبه تحت صورته فى مقدمة كتابه « حب ابن أبى ربيعة » سنة ١٩١٩ :

لم يبد رسمى ضئيلا	كالبدر عند المحاق
الا لأن اللبس الى	ومالهها من خلاق
ساعات فصارت بلادى	غضنفرا فى وثاق

وقال انه فى هذه السن كان لا يزيد وزنه على ٣٠ كيلو جرام • ثم

زاد وزنه حتى أصبح ٨٤ كيلو جرام . وهو بهذا لم يكن يأكل
الخبر منذ عام ١٩٣٣ بوصية أحد أطباء باريس .

وقد روى عن نفسه أنه كان يصوم رمضان حتى في باريس :

« كانت صحتي قد اعتلت ، فنهاني الدكتور محمد عبد الحى عن
الصيام في شهر رمضان . ولكنى رأيت أن أصوم في الأعوام التى قضيتها
في مدينة الحلال في جميع الأشياء . لقد شعرت بروحانية غريبة حين
صمت عن الطعام والشراب في مدينة باريس ، وهو صيام غريب وعجيب
نم أقصرت حين قرأت قول الشاعر الصوفى :

إذا المرء صام عن الدنيا فكل تنهوره شهر الصيام

وقد عرف بالوفاء ، حتى كان أهل بيته يترقبون عودته من غيابه
في كل مرة .

وكانت لزكى مبارك دقة جرس معروفة . إذا ما وصل
صداها الى أهل منزله عرفوا أنه قد وصل .. وعند ما عاد من العراق
فاجأهم بها . يقول « كانت دقة واحدة من الجرس كافية لأن يطرب جميع
أهل البيت :

قالت زوجتى وهى تبكى من الفرح : ما كنت أحسب أنى سأعيش
حتى أراك . فقلت : أنتم تغفلون نشاطى بهذا الحنان المزعج .. »

ومن وفائه ما سجله من أنه كان لو عاش أبوه حتى يؤدي له بعض
ديونه : « كان في النية أن أؤدي الى أبى في شيخوخته بعض الديون
التي طوق بها عنقى في شبابه . ولكنه مات قبل أن أؤدي بعض الديون
الثقال .. لم يبق ما أتعزى به في عقود أبى الا أنى لم أوجب عليه أن يسهر
ليلة واحدة من أجلى . فلم يمت الا بعد أن عرف أنى مزود ومؤهل
بالألقاب العلمية . »

وهو بالرغم مما اتهم به من حلل أو كفران ، يتجه الى الله بقلب
مؤمن ايمانا عميقا .. فينادى :

« يا ملاذ كل خائف • ومأمن كل ملهوف » لقد مرت أجيال واثت
الماوى الامين لكل من تضيق عنه بلاده • • »

ويرسم للمحق جل وعلا هذه الصورة الرائعة :

« النور القدير على تمزيق الظلمات ، هو نور الله ، النور الغلاب
القهار الذى لا يصده حجاب ، ولو كان فى كثافة أنفاس المحجوبين عن
كرم واجب الوجود • وما تمر بنا لحظة من لحظات الكد والغيظ الا كانت
شاهدا على أن ايماننا بالله ايمان مدخول •

ولا تمر بنا لحظة تعتمد فيها على هذا المخلوق أو ذاك الا كانت دليلا
على أن ثقتنا بالله مزعزة الأركان •

فما بال قوم تطير نفوسهم شعاع حين يهدرون بغضب بعض الخلائق
ولا يجوز لمن يخاف الناس أن يرجو الله

جرب الثقة بالله ان كنت لم تجربها من قبل ، فسترى أن الأس
بالله يرفع عنك اعباء الثقة بالناس ، وما اعتمد أحد على خلق الله الا باء
بالخذلان • »

وهو يصور موقفه من الرضا بعهاء الله فى أجمل صورده ، حين
يقول :

« فى يوم صائف جاءوا بما لا أريد ، فقدموا الى طعاما لا أشتهيه فى
أيام الصيف ، وكانت النتيجة ان أهم بالاعتراض • وفى أقصر من لمح
البصر تيقظ قلبى وأدركت أن الاعتراض على رزق الله بداية الانحلال •
وأثنى لو جحدت الرزق فى أية صورة نذهب الى غير معاد •

ان نعم الله تواجهنا من كل جانب • ويكذب من يزعم ان الله يتخلى
عمن يتوكلون عليه فى النعماء والبأساء • »

وهو يؤمن بأن الله هو صاحب الضر والنفع : « من تلك النعم :
نعمة الرضا المطلق بما كتبه وقضاه • فمما أذكر أبدا انى جزعت أو
ضجرت من مكروء يلم بى • وهناك نعمة أعظم ، تفضل بها على الله ،

وهي الايمان بأنه تباركت أسماؤه ، هو وحده القادر على الضر والنفع ،
فما خشيت غيره ، ولا رجوت سواه .. ،

وهو في كثير من الأحيان يرى نفسه دون ما يرجو من الايمان
بالله :

« هل صفت نفسي كل الصفاء • مازت استكو بعدى عن ربى •
و كنت قبل ذلك في فرايس من الايمان الجميل • كنت كلما رأيت ظلم
الناس ، أقول : لقد بقى لى ذلك الكنز الذى لا ينهد ولا يفنى • وذلك
المعين الذى لا ينضب ولا يغيض • يبقى لى الله • تلمس يدى وترى عيني
أثار رحمته وعد له ، وتكاد تصافحه يمانى • ونوشت لمضيت فى ترديد
هذه الجملة • ولكن أين تقع التعابير من حقائق ما فى القلوب ؟ أنا شتهى
أن ينعم الله على ، بايمان أقوى وأمتع وأشهى .. »

ليس فى الوجود كله ما يغنينى عنك ياسر الاسرار ، وياروح
الأرواح »

هل أحب زكى مبارك ؟ هل حسن رأيته فى المرأة أم ساء ؟
ما تجاربه فى الحب .. ؟ ان مجموع ما كتبه فى هذا الباب لا يعطى
صورة واضحة تكشف عن حقيقة موقفه من الحب والمرأة •

يقول « كيف يصف الحب من لا يحب • أشهد صادقاً اننى لم
أعرف • أنا لا أحب ، لا أحب أحدا • وانى أحب نفسي • أنا لم أحب •
ولم أعرف الحب • لأن قلبى أعظم من أن يحب • ولم يخلق الى اليوم
وجه يكافىء ما فى قلبى من صراحة الصدق وصفاء الحنان • ولو أنى
أنفقت فى سبيل المجد بعض ما أنفقت فى سبيل الحب لكنت اليوم رئيس
الوزراء •

يسألونى عن تجاربى فى الحب • انه تجارة خاسرة ، وأرض
موات •

لقد جربت الحب وهأنذا أخرج من دنياه صفر اليدين • فمن اغر
الحب بعد ما حذرته وأذدرته فهو مضيع مضبون •

ويقول : الحب عاطفة نبيلة لا تعرف غير كرائم النفوس • الحب لغة روحانية يفهمها القلب عن القلب ، وتنقلها الروح عن الروح • وتسرى نشونها في الأفئدة سريان الصبا في الفصن • الحب قبس من الصهباء في كأس من الماس • الحب لمحة من لمحات السحر الذي يفيض به الوجود في ليلة قمرء • الحب نعمة حلوة عذبة تناغى السرائر وتناجى القلوب • الحب نعيم يلبس ثوب البؤس ، أو يؤس يلبس ثوب النعيم • الحب عاطفة ماحقه ، ما يدري الرجل أهى نعمة أم نعمة • ولا يعلم أهى هدى أم ضلال • انما يعرف انها كلمة سحرية تزلزل العزائم وتذك الجبال ، الحب هو ائتلاف روحين وامتزاج قلبين وانسجام نفسيين • الحب هو أن تذوب القسوة في كثر الحنان • وان تأنس الاسود الى الطباء • الحب هو أن تصير قلبا شفافا تجرحه النظرة وتفتنه الخطرة ويأسره الدلال • الحب هو أن تكون دنياك كلها ملكا لمن تحب • الحب هو أن تخاطر بالملك في سبيل من تحب •

ولا شك أن هذه الصورة الرائعة لا يستطيع أن يرسمها الا رجل له في الحب تجارب وقصص ومغامرات بعيدة المدى •

ولعل « زكى مبارك » الذى أحب في أول شبابه تلك الفتاة الفلاحه (فتحة) • فلما ماتت ظلت تلاحقه بطيفها حتى بعد ان ذهب الى باريس والذى بدا حياته يقول شعر الحب ويكتب عن شيخ المحيين عمر بن أبى ربيعة ، يستطيع زكى مبارك نفسه أن يحدثنا عن فجر حياته :

« لقد ابتدأت حياتى الوجدانية بأخضر بداية • ابتدأتها باللعب بالجمر • وما أخطر الجمر فى أيدي اللاعبين • فقد نظمت فى حداثتى هذين البيتين :

أشجاك ما خلف الستار وانما خلف الستائر لؤلؤ مكنون
والناس فى غفلاتهم لم يعلموا انى بكل حسائهم مفتون
وكان ذلك كله مزاحفى مزاح ، ثم انقلب اللهو الى جد صراح • فانا اليوم أتمثل الحسن فى كل مكان • فما مشيت فى الطريق الا افترضت ان تراه قد

نعطر في صبحه أو مسائه ببعض الأقدام اللطاف • وما رأيت نافذة
تفرق عليها ستارة ، الا توهمت أن هناك مليحة تداعب جمالها في
المرآة • وما سكن الليل الا توهمت سكونه بجوى حيين • ولا لاح
نجم أو طلع البدر الا تذكرت أن هناك قلوب تخفق طربا أو حزنا
لمصابيح السماء •• ولا أشرق البدر الا طربت من شبهوا به أسيلات
الخدود ، ولا اهتز الغصن الا انتشيت لما يذكر به من رشقات القدود •
ولا ترنم مزهو ولا عود ، الا تشوقت روحى الى ما توسوس به الاوتار
من ذكريات الهوى والجمال •

فأنا أعيش في دنيا من المعاني بعضها بهيج • وبعضها حزين ،
والحزن والابتهاج يتراوحان في قلبى صباح مساء • فما أدرى أشقى
أنا أم سعيد •

ولى في مشارق الأرض ومغاربها قلوب وأرواح ، أخشى عليها
غدر الزمان ، وذلك أخطر ما أفكر فيه فى ليالى الأعياد •

ومن حذر لا أسأل الركب عنكمو واعلام وجدى باقيات كما هيب
ومن يسأل الركبان عن كل غائب فلا بد أن يلقى بشيرا وناعيا
ويرسم زكى مبارك صورا متعددة لأشواقه وعواطفه • ولكن حبه
مرجريت يفوق كل ما رسم من صور :

« كنت أقول ان مرجريت أوث روحى وقلبي خمسة عشر شهرا
وأمكننتى أن أصبر أبا كريما لطفل جميل • وكنت أقول ان لمرجريت
فضلا عظيما فى مرونة لسانى باللغة الفرنسية • المرونة التى يمكننى من
أن أحاور هيئة الامتحان فى مدرسة اللغات الشرقية خمس ساعات •
وذلك مغنم ليس بالقليل •

كنت أقول ان مرجريت هى التى عرفتنى بدقائق الحياة فى باريس
كنت أقول انى لم أحسن الأكل بالشوكة والسكين الا بفضل مرجريت
وكانت مرجريت تكتب الى كل أسبوع خطابين • وكانت تخاطبني

بالكاف • وكنت أبخل عليهما بالمخضبة بالكاف ، لأنى كنت أخشى أن يكون فى المخاطبة بالكاف ما يشهد بأنى كنت مع تلك المرأة على صلات غرامية • وكنت تقول ان بخلك على بالمخاطبة بالكاف يوحى الى بأن أخفى رسائلك عن موريس • وهى كل ما فى حياة هذا الطفل المسكين من عزاء • حرسك الله يا موريس وبارك فى حياتك الغالية •

وكانت مرجريت تتحدث فى رسائلها عن أشياء دقيقة لا تذكر الا فى رسائل العشاق • وكنت أتبادل عن تلك الأشياء حين أكتب الجواب وكان هذا يؤذيها أبلغ اذى • فكانت تتهمنى بالقسوة والعنف • والله وحده يعلم كيف كنت أسئ الأدب فى مراسلة مرجريت • نانا أعيش فى القاهرة • وهى تعيش فى باريس •

هل تعلم مرجريت أن محبوبها الغالى يحيا فى القاهرة بلا ناصر ولا معين ؟ هل تعلم مرجريت أنى لا أصلح أبدا لما صلح له فكتور كوزان الذى كان أعظم أستاذ للفلسفة فى باريس • ولم تكن له زوجة • وانما كانت له خلية تحرسه وترعاه • ان مرجريت لا تفهم انى مصرى ، يعيش فى مدينة لها تقاليد غير تقاليد باريس • مرجريت اذكرينى بالشعر يوم أموت • • •

وفى الوقت الذى يروى هذه القصة ، يروى قصة أخرى عن حب آخر فى باريس • « أتحدث عن روح لطيفة عرفتها فى باريس • روح جميلة لها فى حياتى تاريخ وتواريخ • كان اسمها مادلين • فسميتها ليلي • ودعنتى فى محطة ليون ، وأرسلت لى برقية على الباخرة شامبليون ثم أخذت مادلين توالينى بالرسائل اللطف ، وبلغ بها الوجد مبلغا قضى بأن تنظم الأشعار فى حبي ، حتى شاء هواها أن تزور القاهرة لترانى • فلما لقيتنى قلت : متى تتزوج ؟

فقلت لها اننى متزوج ولى أبناء • • •

وغير هذا قصص أخرى عن لى المريضة فى العراق ، والزمالك ومصر الجديدة • • • الخ •

بدأت هذه القصص بالأنسة : مى ريدة .. انى كانت زميلته
يوم كان طالبا فى الجامعة « وكانت آية فى اجمال . وكنت امضى معها
الى بيتها ومعى مذكرات الفلسفة . فأملى . وتكتب . وأنا أشرب جديدا
بعيونى » .

ولكن زكى مبارك الذى يحب ، ويصور حب فى مثل هذه المعنى
نه رأى فى المرأة عجب . فيه مرارة وحقد وكراهية .. ونقمة !

المرأة مخلوق جميل ، ولكنه سخي . لأنها تجهل ما فطرت
عليه من الضعف . وهى لا تسيطر ولا تستطيل الا على كرام الرجال .
والرجل الكريم يراعى عواطف المرأة ، بفضل ما فطر عليه من الهيام
بالجمال والرفق بالضعفاء . وتظن أنه لا يراعيها الا بفضل ما تملك من
السحر والجاذبية وفى المرأة سحر وجاذبية وان كانت تسوءه لأنها
باب الى الضلال .

المرأة ، المرأة ... غضبة الله على جميع بنات حواء ..

المرأة الجميلة قد تؤذى زوجها بلا تهيّب . والمرأة الدميمة قد
تسعد زوجها بلا ترفق .

والمرأة تملك أصول الشهوات ، وهى باب الدمار والخذلان .
وما أطاع رجل امرأته الا هان وذل . وأعظم ميزة لدين الاسلام
هى دعوته الى الحذر من النساء .

أعاذنا الله من كيد النساء فان كيدهن أعظم من كيد الشياطين .
ولكن ما الذى أشكوه من المرأة ، حتى أصب على رأسها
هذا السوط .

ليس لى ما أشكوه من المرأة غير غلوه فى الغيرة .

لم تكتف المرأة بالسيطرة على الرجال فى البيوت ، وانما تريد
السيطرة على الحياة الاجتماعية ، وتطالب بحرية الانتخابات والمساواة
فى الميراث . وما وقع ذلك الا لأن الرجال حرموا فضائلهم الاساسية .

فهم اليوم يتظرفون ليقال انهم متمدون • غصبة الله والملائكة على رجال
هذا الزمان •

وبلائي في دنياي أعظم بلاء : لأنى متزوج وعاشق • أنا أرى
المرأة في البيت وفي خارج البيت • أراها حينما توجهت • لأن الله كتب
أن أكون من الأشقياء • وإذا دق النليفون في المنزل تظن زوجتي أن
جميع المحادثات التليفونية آتية من سفير الوجد في الزمالك وحلوان •
وإذا ذهبت الى باريس فهي تظن انى ماض الى محادثة مرجريت •
وإذا مضيت الى بغداد فهي تظن انى ماض الى مغازلة ظمياء • وإذا تقلبت
من مدينة الى مدينة لتأدية الواجبات الرسمية ظنتنى على موعد مع حسان
الاسكندرية ، أو ملاح أسيوط • فمن يفهم هذه المرأة • اننى لا أريد
غير فهم سرائر النساء لأقدم الى الأدب ألوانا من الدراسات النفسية « (١)
• • وهو يصور المرأة في أكثر من موضع تصوير الخير وان بدا
في آرائه بعض التحامل الذى ربما كان مصدره فشله في الحب •

• ان المرأة يؤسسه ويعجبه ويرضيها أن تنكر على الرجل كل
شئ • وهى تجد لذة في الجحود وتسروح به كما تسروح الافعى
بسواد الليل •

• ان الجمال يورث أهله بعض خصال النزق والطيش •

• المرأة التى تجود عليك بابتسامه يكون من حقها عليك أن
تحفظ معها الادب فى السر والعلانية • والمرأة تعطى كثيرا جدا حين
تجود بابتسامه • والعاشق فى جميع أحواله أقل تضحية من العشوق
لأن العاشق يأخذ • والعشوق يمنح • والفرق بين الحالين بعيد •

وقد أعلن زكى مبارك رأيه خفية فى المرأة فاعترف بأنه يحقد
عليها كما يحقد على الأدب : « أحقد على المرأة لأنها لثيمة • وأى لؤم
أشنع من أن تراها تتلمس أسباب الفتنة لتريك أنها تستطيع دائما أن
تجد انسانا سواك ، وهى مع هذا اللؤم شر لا بد منه • لأن الحياة قضت

(١) ص ١٩٥ جزء ٣ ليلى المربضة فى العراق •

بذلك • وعلى من يعشق الجمال أن يطمئن طائعا أو كرها الى سلطان
تلك الحية الرقطاء •

« • فكرت في سر امرأة ، ولكنى لم أستطيع الخلاص • لأن
المرأة شبهت صدف الشمس ، فهي تلقانا في كل مكان ، وليس عن
سحرها مجيد • • »

هكذا وصف عبد الله حبيب (زكى مبارك) • النجم المنكسر •
الوجه الأحمر الطلق • الأنف الكبير المقوس • الألواح العريضة
المنبسطة • المنخر المنتفخ • الصوت الناشز المدوى •

وهو بعد هذا في رأى عبد الله حبيب - • خلق بغير فرامل ، أو
عو كالسيارة الضخمة التى لا تقوى فراملها على ضبط توازنها ودقة
سيرها • فهو ان سار لابد من حادثة تصادم • كان ضالبا يصطدم فى
دروسه بشيوخه ورفاقه • وكان مدرسا يناوش وصفاءه (زملاءه) فى
آرائهم ، ويصاولهم فى بحوثهم • وألف كتباً ، فكانت سببا فى أن يصطدم
كل من يتناولها ، بنقد أو تجريح •

• • فاذا أضيف الى شخصية زكى مبارك الموصومة بالاندفاع ، روح
الفكاهة والسخرية الحلوة ، استطعنا أن نفهم قوله : • لو كانت العيون
نقتل حقيقة لكان لى ضريح يزوره العشاق فى باريس •

♦ « وللخمر فى تصوير ملامح شخصية زكى مبارك حديث » فقد
كان لزكى مبارك رأى فيها • • ثم تحول هذا الرأى الى شئ خطير ، كان
بعيد الأثر فى وضع نهاية حياته • فيقول عام ١٩٣٠ •

« أنا لا أشرب الخمر الا المشبعة مقتولة ، لا ترخى الفصل ، ولا ترخى
البصر ، ولا يسرى روحها الى قرارة الأسرار • وليس لى منها ، يعلم الله
صوح أو غبوق ، الا حين أبكى عهدا سلف ، أو اطرب الى عهد مأمول •

وقد صحا القلب والحمد لله فلم يبق داعية الى معايشرة الشراب
وتذكر الأحباب • وأغرب ما يمر بخاطرى فى هذه اللحظة حديث الشيخ

يوسف الدجوى حين كان يقول فى دروسه ، بالازهر ، انه لا يشرب الا الماء ويعلق على ذلك بقوله : « والماء مع هذا شراب الحمير . »

و كنت اذ ذاك اعجب كيف يتحسر مثل هذا العارف بالله على أنه لم يرزق من الشراب الا ما يشارك فيه الحمير . ثم عرفت بعد ذلك ان الكلام قديم . وأنه يرجع الى الأخطل الشعر النصرانى المعروف ..

ولكن لم تمض على هذا الكلام غير سنوات حتى بدأ زكى مبارك يعاقر الخمر . فيكون له منها صبوح وغبوق .

حتى جاء الوقت الذى أسرف فيها اسرافا . فأصبحت ترخى المفصل وتزيغ البصر .. وتحول اتجاهه كله واتجاه كله الى شيء غير قليل من الضعف والتفسخ .

ولقد كتب المرحوم محمد حمدى فى ٢٩/١/١٩٥٢ ، وهو تاريخ يسبق وفاة زكى مبارك بأسبوعين ، فى مجلة « النداء » تحت عنوان « ثمن العلم » حديثا عجيبا جرى بينه وبين زكى مبارك ، يصور أزمته تصويرا مريرا كان علامة النهاية فى حياة خصبة ، ويعلن انطفاء عقل عبقرى قوى .

وهذا هو نص الحديث :

« قال لى وهو يدفع بالكأس فى فمه دفعا . وكان الوقت ظهرا واليوم من رمضان . والأديب الكبير جالس على قارعة الطريق ، فى أحد بارات ميدان ابراهيم باشا . والناس علينا متجمعون ، يشهدون المنظر العجيب .

— لماذا تقاوم رغبة صديق وزميل لك فى الصحافة والادب . ثق يا أخا الصحافة انى لست مجنونا ولا ملتاث العقل . ولم أفقد ذرة واحدة من ايمانى بالله . وكل ما هنالك اننى ضحية لحقيقة علمية كان من سوء حظى أنها بقيت مجهولة حتى كشفها أنا .

وصب الكأس التى كانت فى يده ، فى فمه ، دفعة واحدة . وشيع السائل الأبيض بجذاذات من الطماطم المملحة ، ثم رمقنى بإتسامة خلتها

تدل على أن الرجل لم يصدق في حرف واحد مما قلته في ، لم خلع نظراته البيضاء الساذجة واستطرد يقول :

- هل تعرف يا صديقي ان الممخ وزنا ونملا وكثافة . هل تعرف يا صديقي أن نوع التفكير الذي يباشره الفكر له علاقة بطول عمر الممخ وبقائه في حالة جيدة . أو نقصان أهليته أو فسادة ؟ وهل تعلم يا صديقي أن مايسمونه القدرة الابتدائية هي أشد أنواع التفكير استهلاكاً للممخ . اذا كنت لاتعلم هذا فعه واستوعبه . وبعد كأس أخرى ، الله وحده يعلم أين تقع في صف الكئوس التي كان يتجرعها يوميا ، وبعد تشييعها بحيات من الفول النبات ، الذي يعشقه شاربو (الزبيب) جذبني بيده جذبة قوية . وهو يكاد يتهاوى في مجلسه . ثم قال :

- انني الآن أدفع ثمن العلم الذي حصلته . لقد استهلكته انشاء اني الكمية الوزنية للعقل الذي ساعدني على أن أجعل من نفسي مجموعة دكترة ، في مختلف الفنون الأدبية . أجل ، استهلكته دراساتي ومؤلفاتي ماكان لدي من ذلك قبل الأوان . وأنا الآن برم ضيق الصدر لأنني أريد مواصلة البحث والدرس ، ولكني لا أجد عندي قدرة على ذلك . وماذا يكون الكاتب والمفكر اذا كف عن الاتساج ؟ هل يكون شيئا أكثر من (ذبالة انسان) ، (عقب أديب) ، (كعب مفكر) . وهل أرضى بخيل هذه المكانة ؟ .. اذن ليكن لي في الخمر مخبأ وملاذ أقضي فيه مابقى من ثمالة العمر دافعا ثمن العلم الذي حصلته .

تحدث زكي مبارك عن مواقف كثيرة ترسم صورة لشخصيته المرححة الجذابة ، لعل أقوى هذه الصور أثرا في النفس ، قصة نزوله الى خليج استانلي بتوب البحر ، حيث لم يلق فقيرا هنديا يقرأ الكف . فنافسه في صناعته . واستطاع ان يجمع الناس حوله ، ويجعلهم ينفضون عن الفقير الهندي . فقد أعلن لهم أنه حصل على شهادة في علم الكف من باريس .

يقول : « ذهبت في ضحى يوم صائف الى خليج استانلي ، ونزلت بشوب البحر الى ملعب الغزلان . فرأيت فقيرا هنديا يقرأ الكف لفتاد

ناهده ، تشبه أفروديت ، أو تشبهها أفروديت • فجلست بجانبها جلسة الباحث المتعقب ، لاجلسة اللاهى اللاعب • وما هى الا لحظات حتى قلت بصوت الواثق بصحة ما يقول :

على رسلك أيها الساحر • فأنت فيما يظهر قليل العلم بأسرار الكف • وما يجوز لك أن تشغل فتاة بمصيرها على غير هدى • أين تعلمت هذا العلم أيها الدرويش الجهول ؟ ••

فانزعج الرجل انزعاجا شديدا • وفقراء الهنود ضاعف العزائم والقلوب فى أكثر الأحيان • ونظرت الفتاة فى استغراب ، وقالت :

— وحضرتك تعرف علم الكف ؟ ••

قلت وأقسم ما قلت غير الصدق : — نعم • أعرف علم الكف • وهو خير ما تعلمت فى باريس •

فانعطفت الفتاة ، فى تحاذل ، وقالت : تسمح تقرأ لى كفى •

فأخذت يدها ، ونظرت الى صدرها مرة ، والى عينيها مرتين • ثم شرعت أقص عليها أخبار المستقبل ، وما فيه من ابتسام وأنين •

وما هى الا دقائق حتى كنت ساحر الشاطىء ••

وتحاذل الساحر الهندى وتضعضع • وأقبل يسر فى أذنى : تفضل بكلمة ؟ •• فقلت نعم • وانتحيت بعيدا عن أسماع الأطباء •

فقال أعرف أنه لا يقل الحديد الا الحديد • أنت تحدث القيسيات بأحاديث أجهلها كل الجهل • ويغلب على ظنى أنك لا تقرأ الكف ، وانما تقرأ العيون •

ثم قال : أرجو أن تبينى هذا الميدان • وقدم عشرة دنانير •

— أنا أترك لك الميدان من أجل عشرة دنانير ؟ هيهات ••

— أنا لم أغنم فى هذا الموسم غير أربعين دينارا •

— اذن تدفع عشرين دينارا ، وتحفظ لنفسك بعشرين • •

هذه هي النخبة التي رواها زكي مبارك ، في عديد من كتبه ، ومقالاته
على نحو آخر ، وهي ترسم جانباً من ملامح شخصيته امرجه الساخرة .

ومع ذلك فقد عاش زكي مبارك فلاحاً أزهرياً حتى بعد أن عاد من
باريس . وهو يفخر بأن « أحمد زكي باشا » ، قال عنه : « أن زكي مبارك »
عاش في باريس ، عاش . وظل مع ذلك فلاحاً من ستريس . . »

وقد تقلب زكي مبارك بين الأزياء . فكان معصاً . ثم مطربشاً . ثم
مضجاً - ثم لبس اسدادة العراقية . . وهو يرى أن من الخير أن يلبس
المرء زي أهل البلد الذي يعيش فيه . .

يقول : « انني تقلبت في ملابس من حال الى حال . فكنت أولاً البس
الطاقة والجلابية . وهو لباس أهلي في ستريس . . ثم كنت معصاً يوم
كنت طالباً في الأزهر الشريف . ولم يظهر أنني كنت غريباً بين الأزهرين
فقد كانت عمامتي أطرف عمامة . وكان هندامى أجمل هندام . وكنت
وحدى في الأزهر أمثل مذهب المعتزلة ، يوم كان الأزهر لا يذكر المعتزلة
الا قال : قبحهم الله . .

وكان في النية أن أظل أزهرياً . فقد انتقلت من مذهب الشافعي الى
مذهب أبي حنيفة ، لأكون مقبلي الديار المصرية .

ثم نقلتني الأقدار الى الجامعة لأصبح من تلاميذ ، منصور فهمي ،
وظه حسين . ومع ذلك فقد ظلمت معصاً الى أن ظفرت بأجازة الليسانس :
في العلوم الفلسفية والادبية سنة ١٩٢١ . ثم أخذت أستعد لامتحان
الدكتوراه ، فبدأ لي أن أصبح (أفندي) فقدمت ماعندي من الجيب الى أحد
الطرزيين (الترزية) في شارع محمد علي ، فصنع منها بذلتين سخيفتين ،
شهدتا بأنني كنت مهندماً في الجبة والقفطان ، ثم أصبحت أضحكوكة في
السترة والبنطلون .

وفي يوم امتحان الدكتوراه اوصاني الدكتور منصور فهمي أن أحضر
في البذلة السوداء . فلم أفهم المراد . ولولا فصاحتني وبلاغتي في ذلك
اليوم لعذبني الحاضرون من السفهاء . .

وجاء في رسالتي أنني قد أخلع العمامة وألبس الطربوش . ولكني لا ألبس القبعة . ولكني لبست القبعة بعد ذلك بثلاث سنين ، حين هاجرت لطلب العلم ، في مارس سنة ١٩٢٧ . ومن الغريب أنني لم أصنع كما صنع زملائي . وعهدى بهم يذهبون الى البواخر بالطرايش ، وانما لبست القبعة من منزلي في مصر الجديدة ، فلم يعرفني المودعون ، وفيهم الشيخ ابراهيم القاياتي ، رحمه الله .

وفي العراق لبست السدارة . وعندي أن الأخلاق الكريمة تقوم على أساس الاندماج المطلق في البلد الذي تعيش فيه . والسدارة العراقية لباس جميل .. »

ولقد رسم زكي مبارك صورا كثيرة لحياته . فلم يحوجنا الى البحث عن هذه التفاصيل الدقيقة التي جاء منها قوله انه كان يضع كل صباح في حافظة كتبه ، وهو في طريقه الى الأزهر الشريف رغيفا جافا يابس متجهم الملامح ، كان لمبارك زاد يومه . وكان يغمس هذا الرغيف في مرق الفول النبات . وانه في يوم أراد أن يهرس هذا الرغيف ، فلم يلبث أن تفجر الدم القاني من يده .

ويقول عن نفسه : « الذين فرءوا » مدامع العشاق » يحسبونني فني لايتجاوز الثلاثين . والذين فرءوا » الأخلاق عند الغزالي » يحسبونني شيخا بصافح الثمانين » .

وانه ورث خضرة العينين عن أمه ، سقى قبرها الغيث .

وان ذاكرته فيها شذوذ فطيع . وضعيفة كل الضعف فيما يتصل بالأرقام والأعلام . وهي قوية كل القوة فيما يتصل بالحوادث والمعاني : فأننا قد أتمثل حادثة بظروفها وأحوالها في غاية من التدقيق كأنني قد شهدتها ولكني أنسى اليوم الذي وقعت فيه » .

وهو في اندفاعه في الحياة يرى نفسه كالثور ، يسمى ليدرج حزمة

الحشيش التي يراها على شبر واحد منه ، فيهلكه السعى ، ولا ينالها أبدا ،
لأنها معلقة بقرنيه ، تسعى أمامه .
ويقول : « ان اعين الناس لا ترى في كل الأحيان . فهم يعيشون في
أعماق ماضيهم ، كصنوف السمك العمياء في أعماق المحيطات !! » .

غربة القلب

أبرز معالم حياة زكي مبارك هو احساسه العميق الدائم بغربة القلب .
انه قد امن بالصرامة والوضوح والجرأة على قول كلمة الحق ، ولذلك
عجز عن المجاملة والمداورة . ولو استطاعها لكان أحسن حظا في حياته .
وبالرغم من أنه اختلط بأجواء مختلفة وأوساط متعددة ، وذهب الى أوروبا
والعراق ، وطاف بالبلاد العربية ، والتقى بعشرات المثقفين والأعلام . وقرا
مئات الكتب ، وفيها فنون القول عن اللباقة والصرامة وإنداداة والتحرز
والتقية فانه عجز عن أن يعمق طبيعته الريفية الفلاحة التي ظلت واضحة
في حياته وأدبه معا ، طوال حياته .

ولعله أحسن كم جرت عليه طبيعته هذه من نتائج ، وأوقعته في متاعب
وأخرت تقدمه في الحياة ، وحالت بينه وبين أن يصل الى المكان الذي وصل
اليه آتراكه . وقد كان دائم الاحساس بأنه غريب منبوذ : يقول :

« أين وطنك يا قلبي . أحب أن أعرف أين وطنك ، لأمضي معك
اليه ؟ أهو مصر . كذبت ثم كذبت . فلو عرفتكم مصر حق معرفتك لكان
لك اليوم مكان مرموق ولكنك في مصر منبوذ مجهول .

قلبي ، قلبي ، رحمة الله عليك فقد سعدت ناس بالرفق المزيف ،
وشقيت أنت بالرفق الصحيح وقد وصل ناس لأنهم كذبوا وخلفت ،
لأنك صدقت ، ونعم ناس لأنهم خانوا ، وشقيت أنت وانتفع ناس
لأنهم غدروا وخسرت أنت لأنك وفيت . قلبي . قلبي . أحسن الله
الك .

ان هذه العبارات عميقة الاحساس بالآلم • فقد كان زكى مبارك يشعر صادقاً بأنه تخلف لأنه تمسك بصدق والوفاء والجد • وان غيرد تقدم لأنه تمسك بالكذب والخيانة والهزل والغدر •

وهو يرى أن الرجل الذى يجاهد فى الحياة عن طريق الشرف يلاقى من عنف معاصريه ألوف الصعب ، وتكاد اسقامه المنطق تصبح مهمة لكل من يدوس على ما تواضع عليه أهل العصر من زيغ وضلال •

والأصدقاء : ما رأى زكى مبارك فيهم ؟ • •

قال : « الأصدقاء يملكون من ايناثك مالا يملك الأعداء • قاعدو • يتهم • وتجريحه اياك يتلقاه الناس ساخرين • والصدق مؤنس • وتجريحه اياك يتلقاه الناس بالقبول • »

وهو يرى أن كلمة الخير مزدرة وهى موضع كراهية الناس • يقول : « ما ذكرت انسانا بالخير فى حديث أو مقال أو كتاب ، الا كان ذلك كافيا لقيام ثورة عنيفة لتصحيح ما أخطأت فيه • ولا ذكرت انسانا بالشر فى حديث أو مقال أو كتاب الا رأيت من يشئ على أدبى ويصفنى بالجرأة والشجاعة والعقريه • »

ولكن هذا كله لايجعله ينحرف عن اسنفة فكره وضميره ••

وهو القائل : « ان الدخيرة الباقية فى حياتى هى أنتى أعيش بروحى وقلمى • انه روح لطيف • وقلم نظيف • فما استطاعت حكومة أن تستأجر قلمى •• » ويسأل نفسه بعد ذلك • فيقول : « هل أفقرنى الشرف ؟! »

وبالرغم مما لاقاه من خصومه من عنف وعنث ، فهو يؤمن بأن الله عز وجل أقوى من كل قوى •

« قد علمتى التجارب وستعلمكم ان الانسان أضعف من أن يقطع رزق أخيه الانسان • فهناك قوة بانية تبيح الجهاد فى سبيل الرزق الحلال وهذه القوة لا تنتظر آراءكم فى التجريح والاعتياب • فانطخوا الصخر ان شئتم فلن يسمع لكم فى مصاير الناس قيل ولا قال •• وانما الأمر كله لله • »

وله في هذا المجال كلمات عميقة المغزى • فهو يؤمن بصداقة الأرواح
ويراها في كل شيء • نفيس • ويرى مودة العقول من ذخائر الرجال •
ويقول : « مثقال ذرة من الورع السالم ، خير من ألف مثقال من
الصوم والصلاة »

ولكنه بالرغم من إيمانه بالمثل العليا ، يحس باليأس بين آن وآن ،
فينعى على زمانه انه لم يصل الى مكانه الحق : يقول :
« ما الذي غنمت وأنا أمتشق القلم منذ أكثر من خمس وعشرين
سنة ، بعزيمة أقسى من الصخر ، وأصلب من الحديد ؟ .. »
ما الذي غنمت ، وقد كنت كاتباً وشاعراً ، قبل أن يولد فريق من
الذين تؤذيهم عندهم نسيمة قلمي •

لقد غنيت أهل زمانى أناشيد أيقظت بها صدورهم من أحلام غافيات
وأحييت بها ما كان في قلوبهم من موات • فأين من يسعدني بكلمة صدق
أدفع بها عدوان زمانى ، لأمضى على سجيته في السجع والغناء • وهل
عاني أيوب في زمانه مثل ما عانيت ؟ • •

وهذه الصرخة تصور مدى عمق احساسه بغربة القلب ، هذه الغربة
التي فرضتها عليه طبيعته ، بكل ما فيها من عنف وصراحة وجراحة •
• • • وانه أحياناً ليحقق على الأدب ، ويحقق على المرأة • وليسكن
لماذا يحقق على الأدب ؟ • •

قول : « أحقق على الأدب لأنه لا يستقيم له حال ، الا اذا حمل صاحبه
على المخاطرة في ظلماء الوجود • ولن تجد في العالم كله أدبياً ذا مكانه
الا كانت له في ميادين الحياة ثارات وحزازات لن تموت • والقراء الذين
يحيا على حسابهم الأدب وأهله لا يؤمنون بوجود الأديب الا اذا رأوا أحشاءه
تحترق بين السطور • وقد نرى أحياناً ناساً يهاجمون الأديب ويتهمونه
بالخروج على التقاليد • وهؤلاء الناس لا يفعلون ذلك حرصاً على الأخلاق ،
وانما يقعون في أعراض الأدباء ، حسداً منهم على مارزق النابغون من

مواجهة أسرار الحياة • • ولكن ما قيمة ذلك • وما الذى فيه من العزاء ؟
ان الأديب سيظل - ولو انتصر • كالشمعة تضيء للناس وهى تحترق •

وقد فكرت كثيرا فى شر الأديب على أهله • ولكنى لم أستطع الخلاص ،
لأنه كتب على ، أن أحيا من مهنة الصحافة ، ومهنة التدريس ، فهل أفلح
إذا اقتصر على أن احادث قرائى وتلاميذى فى فضل الصمت وشرح
دلائل الخيرات • • ؟ ! »

ومع هذا فقد ظل زكى مبارك فى كل مناسبة يسجل على نفسه
حقيقته التى كانت موضع الخلاف •

« لم أخدعك - أيها القارىء - فيما تعرضت لشرحه من الحقائق
الأدبية والفلسفية ، نلم أتهيب مساقط غضبك ، ولم أتلصص مـواقع
هواك • وانما صدقت كل الصدق • فرآنى فريق من الملحدین • ورآنى
فريق من المؤمنين • ونسبني قوم الى المجان • وعدنى قوم من الصوفية •
وما كنت من أولئك ولا هؤلاء • وانما أنا سائر يبحث عن علم الهداية فى
بيداء الوجود • وما بينى وبين الله لا يعرفه عدو ولا صديق • وانما علمه عند
علام الغيوب ، الذى يعلم خئنة الأعين وما تخفى الصدور » •

الشاعر

بدأ « زكى مبارك » حياته الأدبية شاعرا وجدانيا ، وهذا مما يتفق مع
طبيعته العاطفية التى تدافعها الأشواق والأهواء • وقد عرف زكى مبارك
بأنه عشق ومحبة وعبد للحجج ، بل انه ليتمكن القول بأن كل ما كتبه زكى
مبارك هو الشعر من غير التوافى ، لغلبة النزعة العاطفية على كل آثاره •

وقد بدأ حياته الفكرية بدراسة شعرية لعمر بن أبى ربيعة وكان
ينشر شعره فى « الجريدة » « والسفور » • وفى مطلع حياته كان ينشر
القصيدة فى عشرات الأبيات • ثم لم يلبث أن غير اتجاهه ، فكان ينشر أحيانا
قصيدة من بيت واحد • ثم عنى بالموازنة بين الشعراء • ولكنه لم يلبث أن

أصدر ديوانه الأول عام ١٩٣٤ وانتظر ثلاثة عشر عاما حتى أصدر ديوانه الكبير « الحان الخلود » متضمنا كل شعره بما فيه ديوانه الأول •

ولم يكن زكي مبارك ينوى أن يصدر ديوانا آخر على هذه الصورة، بعد أن شغلته الابحاث الأدبية والفلسفية عن الغناء ، والشعر غناء •

غير أن هجرته الى العراق عام ١٩٣٧ خلقت روحا جديدة في حياته الشعرية • فقد ساجل شعراء بغداد مساجلة قصت بأن ينظم أعظم قصيدة - في نظره - بعد قصائد ستريس وأسيوط وباريس • وهي قصيدة «من جحيم الظلم في القاهرة الى سفير الوجد في بغداد ، تلك التي تبلغ ١١١ بيتا •

ثم يجد زكي مبارك أن اشتراكه في مجلة « الرسالة » بضع سنين قد حول طاقته الشعرية الى صور نثرية •

وشعر (زكي مبارك) في الأغلب شعر وجداني • ويمكن القول بأن شعر زكي مبارك يتسم بالحزن • وعلى ذلك فإن «زكي مبارك» • لم يعرف فرحة العيد أبدا • فقد كانت ليلة العيد في بيتهم مشؤمة ، اذ ما كان يمر عيد بدون حزن على ميت ، حتى ان كعلك العيد لم يخبز في بيتهم الا مرة أو مرتين • ويقول زكي مبارك ان أعصابه قد تأثرت تأثرا شديدا بهذه المناظر التي واجهته وهو طفل ومضت تلاحقه من عام الى عام •

ويقول زكي مبارك « ان لفحة الحزن التي تتوهج في أشعاري : انما كانت لأنه ليس لي ارادة في صياغة الشعر الحزين • فما أعرف أن الله ابتلى أحدا من خلفه بالحزن كما ابتلاني » •

وقد صور زكي مبارك أبرز الحقائق في شعره : فقال :

• ان أشعاري تكاد تكون مقصورة على فن واحد ، هو فن « الغزل والتشبيب » ولعل هذا يرجع الى طبيعة ذاتية ، قصت بأن أعيش للتغريد فوق أفنان الجمال • ليس في أشعاري مديح • فما أعرف رجلا أعظم مني لأنظم فيه قصائد المديح •

♦ الاهتمام بتشريح المعنى : فقد أنظم فى المعنى الواحد عشرات من الأبيات • وهذا يرجع الى فطرتى الفلسفية • التفكير عندى هو جذع النخلة • والوصف هو جريد النخل • والمعنى هو عناقيد الأعشاب • والوصف هو أوراق الأعشاب •

♦ النزعة الصوفية : هو التشبيب بالجمال الربانى •

أحبك رب الكون هل أنت شافعى الى سرحة فى شط دجلة زهراء
رأيت فنائى فيك حين رأيتهـ تحول اضلالى وتنسبد افنائى
ومن أنت ياربى ؟ أجبنى، فاننى رأيتك بين الحسن والزهى والماء
♦ تدوين عواطف عزيزة على • وهى عواطف سجلت فيها وفائى لأصدقائى •

♦ دقة الأسلوب فهو يقوم على موازين •

ويؤكد زكى مبارك أنه يحب من الشعراء القدامى (ابو تمام) ويذكره بالتطويل فى مقدمة ديوانه (الحزن الخلود) • وقد قلد « لأمريين » نبي وضع مقدمة لكل قصيدة • وقد نشر شعراء نبي « الهلال » و « الصباح » و « الشعلة » و « الحوادث » و « الأهرام » و « البلاغ » و « الرسالة » •

وعاش شعر زكى مبارك مع الحياة • ففى كل مكان ، يهز النفس ، كان له فيه نظم • فعندما ذهب الى رأس البر ، وزار جمع « المتح » حيث مكان شهداء الاسلام مع الصليبيين قل شعرا • زنى ذكرى ١١ من يوليو سنة ١٨٨٢ فى الاسكندرية له قصيدة « دار الوجد والمجد » عن الاسكندرية بعد ضربها بالقنابل فى الحرب العالمية الثانية • كما أوحى اليه الشيب شعرا فى أعوامه الأخيرة • « وشعري فى الشيب فيه ومضات لانوجد فى أشعار القدماء • لأن أكثرهم كان يصف قسوة الشيب قبل أن يشيب » •

وقد وضع قصيدة فى توديع مكة المكرمة • ونسبها الى الرسول الصادق الامين • وقد ذكر زكى مبارك فى بعض كتاباته انه نظم ثلاثين ألفا من الأبيات فى التغنى بالجمال •

ويرى زكي مبارك أنه يتجه في حياته الشعرية إلى ما يتجه إليه في حياته النثرية ، زعمو سريخ المعاني والعواصف سريخ يصل بها إلى أعظم سية من الوضوح وجزء » •

ويرى أمادي أن « ميزة (١) مبارك ، التي تبدو لي وهي حسن السبب ، وجودة الصيغة • ولقد سميت معنية بعد طي ديوان • ولم يبق في نسي منها أثر ولم يستقر في ذاكرتي منها شيء • ولكن الدأستور « مبارك » أديب نير • باحث وله أثره المشهورة • وه في ذلك فضيل غير منكور ولا يزيد أن يكون شاعرا أو لا يكون » •

وند رد عليه زكي مبارك بقوله « ان اشعر ادي يستخف به الأستاذ المازني لدلالته على معان صغيرة هي العواصف • هذا الشعر هو الدليل على اننا عشنا في هذه الدنيا بقلوب الاحياء • فذات لنا لحظات عقل وايم جنون والعيش مزاج من الوفور والطيش • ومجموعه من التأملات والمهارات •

هان كان سديقي أصبح عتلا كله ، فيما ويحه في الامة بدار ، الحظ فيها للمجانين » •

ولما قال الدكتور محمد صبرى السربونى « ان ديباجة زكي مبارك الشعرية ديباجة بحترية » قل مبارك : « انها كلمة يريد بها انشاء • ولكنى عند نسي أشعر من البحرى ، وأشعر من جميع الشعراء • »

ويقول زكي مبارك : « ان البحر الذى يثير الشاعرية في صدرى هو البحر الحاد بالبرد أو التيف • أما البحر المعتدل فهو موسم خمود • ونعل هذه الطبيعة هي السبب في أن يتسم أدبى برسم العنف والجموح • وقد عاقت على هذا مرة بأنه يرجع الى انى ولدت في شهر أغسطس ، وهو موسم طغيان النيل • والواقع أن الهدوء يزعجنى ، والضجيج الخارجى ينبه العواطف • »

وكما ذكرنا من قبل ، انه سكن في بيت في باريس في مكان هادى ،

(١) نقد المازني للديوان سنة ١٩٣٣ - جريدة البلاغ .

فضاق به وتركه • أما في بغداد ، فقد سكن بجوار مصنع لطرق الحديد ،
وارتاح اليه •

أما بالنسبة للشعر ، فيقول زكي مبارك انه نظم في عهد الحداثة
طوائف من المواويل • ومنازل الوحي في الشعر عنده هي سنتريس وأسيوط
وباريس وبغداد •

وقد أصدر زكي مبارك ديوانه (الحان الخلود) في فترة أزمة
نفسية • اذ كان قد ترك وزارة المعارف ، ووقع في كثير من المشكلات مع
وزراء المعارف وكبار موظفيها • وأحس بأنه لابد أن يطبع شعره • فراح
يجمعه من كل مكان • ويقدم له بمقدمات طويلة • وقد دفع مائة جنيهه
عربونا لطبعه • ويرى أن عمله هذا هو عين الصواب • فان له أبناء • ولكن
ابناء من روحه أعز عليه من أبنائه من بدنه : « انها اشعارى ومؤلفاتى »
اذن يجب أن أنفق على ابنائى من روحى ما أنفقت على ابنائى
من بدنى ••

وكما ذكرنا من قبل أن ديوان «الحان الخلود» يرد له شبابه ، وقد
جاوز الخامسة والخمسين (سنة ١٩٤٧) فهو عصارة عواطف واحاسيس،
قطفتها وأنا أذرع فضاء الله بين شاطئ المانش وشط العرب •

وما كنت أتوهم أنى سأجتاز تلك الأقطار وأنى سأعبر تلك البحار
والأنهار • وانى سأكون أخطر من السندباد • «

وكما أوضحنا من قبل ، نجد أن « زكى مبارك » شاعر بطبيعته •
والدقائق البسيطة في حياته تعطي صورة الشاعر الذى يتأثر بالعصافير
الجميلة التى كانت تعشش حول نوافذ منزله • فيقدم لها الطعام ويحرص
على أن يستيقظ مبكرا لسمع صوت المؤذن وشقشقة الطيور : « سأعود
الى العصافير التى بنت أعشاشها فى شبائك البيت • لقد تعودت أن تأكل
من يدى فى الصباح ، وأنا أراقب الأعيب الشمس • أنا أحضر لتلك
العصافير فتايت من بقايا طعامى وأضعها على كتفى فتجتمع على كتفى لتأكل

تلك الفتافيت • وهى تغنى برفزة ، هى الغاية من حلاوة الغداء • • وقد
استوحى من جمال هذه المناظر ما استوحى •

ولقد تأثر بموت أبنائه الصغار الذين كان يكفئهم بيده ويحملهم الى
مشايرهم الأخير •

وكما ذكرنا من قبل ، فالجسر القائم على نهر السين من ضحيه
سان كلو ، له فى قلبه مكان • والقطرة القائمة على نهر السين فى رواز
لها ايحاء • والجسر القائم على نهر دجلة وقنطرة سدة الهندية لها
آثار كبر فى قلبه •

يا جيرة (السين) فى مرابعكم	فتى الى النيل يشكو غربة الدار
حنت عليه لياليه وأسلمه	الى انحوادث صحب غير أبرار
أحاله الدهر فى لأواء غربته	روحا معنى وجسا نضوا أسفار
يسعى الى المجد ترميه مخاطره	بناقع من شظاياها وضرار
عزاؤه أن عقبى كل عادية	يشقى بها الحر ، اكليل من الغار

جنت على الليالى غير ظالمة	انى لأهل لما ألقاه من زمنى
فما رأيت من الأخطار عادية	الا بنيت على أجوازاها سكنى
ولا لمحت من الآمال بارقة	الا تقحمت ما تجتاز من فتن
أحلت دنيائى معنى لا قرار له	فى ذمة المجد ماشردت من وسن

يا جنة الخلد كيف يشقى	فى ظلك النازح الغريب
الناس من لهوهم نشاوى	ودمعسه دافق صبيب
يقتات أشجانه وحيدا	فلا صديق ولا قريب
أقصى أمانيه حين يمسى	أن يهجع الخفق والوجيب

مبارك الكاتب

بدأ زكى مبارك حياته الأدبية شعرا • ولكنه لم يلبث أن ترسل وأصبح من كتاب النثر • وظل يزاوّل النظم بين حين وحين ، كلما دعت دواعيه ، وفرضت الظروف الالتجاء اليه • وزكى مبارك السكّتب قريب جدا من زكى مبارك الشاعر • فهو الوجداني العاطفي ، حتى فى مجال البحث الأدبى والعلمى • وقد أخذ عليه ، وهو يقدم أطروحة الدكتوراه « النثر الفنى » أمام السربون غلبة الروح العاطفية • ولكن هذا لا يمنع من القول ان « زكى مبارك » الكاتب يكاد يكون نسجا وحده ، بين كتاب عصره ، حيث يمتاز بمعالم أربعة : الوضوح • والصراحة • والجرأة • والعاطفة • وهى صفات لم تجتمع لكاتب سواه فى هذا العصر على النحو الذى عرف عنه •

فقد بلغ فى الصراحة والجرأة الى حد العنف • وقد كان لهذه الجرأة أثرها البعيد فى حياته • اذ خلقت انجفوة بينه وبين كل من تناولهم بالنقد • وكما ذكرنا من قبل ، فقد ردد زكى مبارك العبارة التاريخية التى تقول : « ان قول الحق لم يدع لى الحرية فى علم الكتابة والمجتمع » ومحاربته للنفاق : « سأطّل فى ثورتى الى أن انتصر فى حرب ما أمقت من نفاق التقاليد • • وأستطيع أن أوكد لك أن كثيرا من الأصنام التى تعبد فى مصر والشرق ستتحطم عما قريب • وسينشأ فى مصر والشرق جيل جديد يبنى أحكامه وقوانينه على أساس التجارب والمشاهدات • وسيتهدم صروح العظمة التى تبنى على أساس التوقر والتحفظ : متى أشهد مصر عك ياعصر النفاق ؟ »

وهو يؤمن بأن للأديب مهمة : وهذه المهمة عنده هى حرب الأوهام والأباطيل والأضاليل • ويرى أن الدعوات الوطنية والاجتماعية لم تنجح الا بفضل تحريض الشعراء والكاتب والخطباء •

يقول : « ان الأديب يقضى عمره فى جهاد ونضال وعراك مع الدنيا

والناس ، ومع الأوهام والأباطيل والأضاليل ، وما شرف مشرف أو غرب مغرب في دعوة وطنية أو اجتماعية الا على هدى من وحى الأديب . ولا استبسل جبان أو استقتل شجاع الا بتحريض من عبارة فاه بها ساعر أو كاتب أو خطيب » .

وهو يرى أن أعماله الأدبية تتجه الى الايقاظ من الغفوة والجمود فيقول :

« ما قل أحد بأنه يبغضني ويحقد عـلى ، الا اطمأنت الى تبليغ رسالتي الأدبية ، فأن أخلق الغرض خلقاً لاذكء ناز الغضب والحقد في القلوب التي طال عهدا بالغفوة والجمود » .

وهو يرى أننا نقضي أعمارنا في التصنع والندرة ونريد . ومن أجل ذلك يقل في أدبنا ذلك الجوهر النفيس : جوهر صراحة والصدق . يقول « من أعجب العجب أن أعجز عن قول اصدق ، حتى في الاحوال التي يكون فيها اصدق خيراً محصناً ، لأن الجمهور الذي تعاصره يتأذى من اصدق الذي يسوءه » .

ويؤمن زكي مبارك بالقلم . ويراه في يد الكاتب مثل المشرط في يد الطبيب . ويقول « اتخذت من القلم مشرطاً أعانج به أمراض القلوب » .

وهو بعد ذلك حريص كل الحرص على تسجيل الرأي كتابة ، فهو يخشى أحاديث المجالس ، خوفاً من التزيد والتحريف . ويؤمن بأن على الكاتب الا يقول في السر ما يخشى أن يقوله في العلانية ، وأن يستطيع أن يكتب كلمة يقولها في مجلس من مجالسه .

« أرى أن نخاطب الناس عن طريق الجرائد والمجلات أو عن طريق المؤلفات ، فلا نعلن رأياً الا وهو نص مكتوب يعجز عن تحريفه المحرفون ، ثم أوصيكم بأن تكونوا رقباء على أنفسكم . فلا تقولوا في السر ما تعجزون عن نشره في العلانية . وما أوصيكم الا بما أوصى به نفسي . ان لسانى غاية في التلطف والرفق ، وأن اشتهر قلمي بالشطط والجموح . وما كان

ذلك كذلك الا لأنني أكره المواربة وأبغض الاستخفاء • وما حقد على حاقده ، الا بما قلت فيه بكلام منشور في الجرائد والمجلات ، يملك الرد عليه ، حين يشاء • أما ابداء الناس في السر فلا أستطيعه أبدا • لأن الله تباركت أسماؤه عصمني من رذيلة الاغتياب (١) •

ولكن لزكى مبارك آراء أخرى أشد عمقا • فهو يرى أن الكذاب لابد « لكي يكون مؤثرا ، ويكون لأدبه طابع الحياة والخلود » أن يرتطم بالغواية •

يقول « أن الأديب لا ينبغي الا اذا ارتطم في الغواية والبؤس • وتلك سنة الطبيعة منذ خلق الأدب الى اليوم • ويكاد يكون من المستحيل أن يكون لرجال الأدب روح الا اذا قهرتهم الهموم والأحزان •

أضف الى ذلك انهم لا يؤثرون في قرائهم الا اذا تأثروا هم بما في الحياة من لين وبأساء ، ولا يقع شيء من هذا ، الا ان عاشروا الناس وشاركوهم في جدهم وهزلهم وحلمهم وجهلهم وعقلهم وجنونهم ، وعرفوا ما الهدى وما الضلال ، وما الشك وما اليقين • وهذا كله ، أتحسبه بلائمن؟ هيهات ! فمن ثمنه العرض والعافية •

ويرى زكى مبارك أن الكاتب الصادق لا يصل الى الشهرة والمكانة الا بعد بذل جهد ضخم ودفع ثمن غل ، يقول : « نحن قوم كونتنا صروف الليالي والأيام ، فان اكنوت يدك كما اكنوت أيدينا فستملك من السيطرة على القراء أكثر مما تملك • وقد يلقاك الدهر بأفضل وأجمل مما يلقانا ، وهو عندنا غادر جحود » •

ويرد على الذين انتقدوا بعض من كتبوا في شكوى العيش فقال :
« قد عيب علينا أن نشكو الدهر ونحن في سعة من العيش ، وسيرتقى الذوق فتدرك أن الخواض لا يشكون جوع البطون وانما يشكون جوع القلوب » •

ويعلم زكى مبارك فى كل مناسبة أنه يجب صحة الورق والمداد :
« ان هيامى بصحة الورق والمداد سيضيع على جميع المنافع الدنيوية .

وفد أموت بسبب الكدح الموصول قبل أن يموت فلان ، مع أنه ولد قبل أن
يولد أبى » وهو يهاجم الذين يأكلون الخبز باسم اللغة العربية . يقول
« كان من حقى أن أصوب سنان القلم الى صدور من يأكلون السحت .
صدور الذين يأكلون الخبز باسم اللغة العربية . وقد تمضى الايام ولا
يزود أحدهم نفسه بكتاب ثمنه خمسة قروش يرى الدكتور مبارك أنه
من الخطأ أن يعتمد الكاتب على ماضيه الجميل . وأن يتوهم أن القراء قد
يذكرون حين يخطئ أن الحسنات يذهبن السيئات . وان الذى يحلق
ألف مرة قد يفتقر له الاسفاف مرة أو مرتين . كما يسجل أنه لا يمر يوم
واحد دون أن يخلو الى قلمه ساعة أو ساعتين .

ويؤمن زكى مبارك بأن النجاح فى الأدب قام على سناد من العصيات
المثلة فى الأندية والجمعيات . ويرى أنه يفضل التحزب المستور « لمعت
فى عالم الأدب أسماء كانت أهلا للخمول ، لو واجهت الحياة الاديسية
بلا سناد من الأصدقاء والحلفاء » ويندم على أنه ، وقد فاته التحزب فى
السياسة فهو يعيش بلا أنصار ولا أصفاء .

ويعلم أنه سيعقد محالفة بينه وبين قلمه ، ويراه أقوى وانفع من
ألف الأصدقاء .

ويقول : « قضيت دهرى بلا نصير ولا معين . وسأظل كذلك طول
حياتى ، لأقيم الدليل على أن من يستنصر بالله لا يخيب ولا يضيع ، .

ويعترف زكى مبارك بأنه فى أول أمره بالأدب لم يكن يعرف الفرق
بين التسويد والتبيض ، ولا يستشير معاونة الصنعة على مغالبة الطبع .
وأن قلمه يجرى فى القرطاس جرى الجواد فى الميدان . وهو يرى أن
هذا المذهب فى رياضة القلم هو الذى عرضه لكثير من الجراح ، لأنه لم
يكن يملك صده حين ينطلق ، ولكنه لم يلبث أن روضته الأقدار بعد
الجموح ، وفرضت عليه أن يلتفت ذات اليمين وذات الشمال . فأصبح

إذا كتب شيئاً في المساء يتركه (بلا تعريض) لتسهيل مراجعته في الصباح :
« ولتبقى الفرصة للحذف منه أو الإضافة إليه » • ويعمل ذلك بقوله :
من المؤكد أن للرأى موجات تختلف باختلاف الأوقات • فتد تنكر في
بياض الصباح بعض ما كتب في سواد الليل •

ولكنه يرى أن ذلك من المزعج • إذ لا قيمة للحياة الأدبية ، إذا خلت
من المخاطر والمهلك والحتوف • فهو يؤمن بأن الكاتب لا يعد فارساً ، إلا
إذا استطاع بكل سطر أو بكل حرف أن يعرض قراءه إلى الاشتباك في
حروب مع المعنى والآراء والأهواء (١) •

وهو يؤكد في كل خطوة أن الصدق جره إلى معاطب ومهالك لا يصير
على محررتها ومؤذياتها إلا من كان في مثل إيمانه • وقد صبر حتى
اتهمه الغافلون بالبلادة والجمود • « لأنهم لم يعرفوا أن دنيا الأدب فيها
مبادئ تروض أهلها على الترحيب بسكرد الضمأ والجوع » •

ويقول « الصدق في الدنيا غريب • وأنا في الدنيا غريب » •

وتبلغ به الجرأة إلى أبعد حده ، حين يقول :

« أنا أؤمن بأنه لا يمكن لأحد أن يكون أكتب مني إلا إذا استطاع أن
يكون (أصدق) مني •• ومن المستحيل أن يكون في الدنيا أحداً أصدق
منى » •

ويؤكد أن غايته في حمل رسالة القلم ليست هي الانتفاع المادى
« ولو كان غايتى هي الانتفاع المادى لسلكت سبيلاً غير هذا السبيل
فلأقلام ميادين تصل بأصحابها إلى الشراء العريض •• »

وهو يلج في تصوير هذا المعنى ويوغل فيه ، فيقول :

« يجب أن يخرج الكاتب الأجير من الميدان • فما يكون الرجل
كاتباً إلا إذا شعر بأنه يؤيد بقوة روحانية تعصمه أحلاف الزور والبهتان •

فمن هؤلاء الذين يحصلون الأقلام وليسوا لحصلها بعمل لأنهم عبيد تلاميذهم من القراء ، ولأنهم يتوهمون ان القلم وسيلة من وسائل المنع الترخيص » .
ويرى زكي مبارك أن الخطر في انحراف الكذب عن رسالتهم الاتجاد الى تسليية الجماهير فان ذلك يؤدي الى خطر كبير بالنسبة للأدب ، فيصبح على شفا الهاوية يقول :

« ان الأدب في عصر على شفا الهاوية ، لأن الأدباء يستوحون قراءهم وتلك علامة الغثاثة والهنزال . قد يقبل هذا الحال من الكتب الذين يشغلون بتسليية الجماهير ليأخذوا أموالهم ، كما يأخذها الحاوي في مساحات (الموالد) فما عذر الكتاب الذين أعدتهم مواهبهم ليكونوا هداة صادقين . كنت أعتقد أن يكون للأدب قوة السيطرة على المجتمع . فالمجتمع مريض ونحن الأطباء » .

وزكي مبارك يؤمن بأن على الكاتب أن يعدل آراءه ويطورها مع الزمن بحيث لا تجمد ولا تبدل ولا تتعارض مع الحياة في خطوها الى الامام ويرى أنه ليس في ذلك عار أو خطأ .

يقول : « يجب أن تنظر الى آرائك كما تنظر الى أثوابك » فالآراء تبلى كما تبلى الأثواب . والذي يعيش على رأى واحد ، قد يكون أجهل من الذي يعيش بثوب واحد . فاحذر من العيش وأنت بلى الآراء . وقد يعيرك الغافلون بالتنقل من رأى الى رأى ، مع أنهم لا يعيرون من يلبس ثوبا بعد ثوب . وانما كان ذلك لأنهم يجهلون أن الآراء من صـور الحيوية . ولأنهم يتوهمون أن الثبات على الرأى الواحد من شواهد اليقين . ولو عقلوا لأدركوا أن العين التي تنظر بأسلوب واحد هي عين بليدة لا تدرك الفروق بين دقائق المراتب . وكذلك يكون العقل البليد . وهو الذي لا يدرك المروق بين المعنويات والمعقولات .

الأمر الهام أن تكون أنت أنت ، في تحولك وقرارك . فلا ينبغي أن تكون أداة للتعبير عن أوهام زمانك وبلادك . أو أن تكون ظلا لعظيم من العظماء أو حزب من الأحزاب .

ويذهب زكى مبارك في أن رسالة القلم البليغ هي رسالة مهولة
« يطيب في سبيلها الاستشهاد ، ويرحب في سبيلها بتجميع الآلام » • ويقرر
بأن هذا الايمان هو الذى جعل تلاميذه يتقدمون في الميادين الرسمية •
وتخلف • وهذا هو ثمن الاعتزاز بدولة البيان •

ويرى زكى مبارك كذلك أن الكاتب ليس أجيرا للوطن ولا للمجتمع
وهو مطلق الحرية في جميع الشئون • وان التعبير عن آلام المجتمع وآماله
لا يكون أدبا الا اذا صدر عن الكاتب عن ايمان صادق •
وعنده أن منهاج الذاتية الأدبية يتطلب أن يحرر الكاتب عقله وروحه
وقلبه من جميع الأوهام والأباطيل والأضاليل • فينظر الى جميع الأشياء
والمعاني نظرة استقلالية منزهة عن الخضوع لنظرات من سبقوه ، ولو
كانوا من أعظم الرجال •

ويرى أن على الكاتب البليغ أن يوطن نفسه على الغربة الأبدية • ولو
كان في داره وبين أهله - فالمفكرون في جميع العصور غرباء - وبذلك
لا يكون له ظهير غير قلمة ولا نصير غير روحه •

أسلوبه ومنهجه في البحث

يعكس أسلوب « زكى مبارك » شخصيته وعاطفته المتهبة الحادة ،
ونفسيته الصريحة التي تأبى المداواة أو اصطناع النفاق • ومن خصائصه
الاستطراد والقفز من فكرة الى فكرة ، والاسهاب المتنوع الذى يخدم الفكرة
وميله الى النمو الموروث من التأليف ، وغلبة النزعة الوجدانية والطلاقة ،
ووضوح العبارة مع أصالة المفردات •

وقد تنوع انتاجه ، فكتب في النقد والبحث والمقالة وأحاديث الوجدان
والعاطفة • وهو يقول في هذا • أنا أعيش كما يعيش أميل فاجيه • فأنا
أكتب في كل يوم وفي كل ليلة ، وتحت يدي عشرات من المقالات وعشرات
من القصائد •

وقد ترك لذلك انتاجا ضخما لم يجمع في مؤلفات • فقد أمضى
سنوات طويلة يكتب الفصول الإضافية في « البلاغ » و « الرسالة » •

عرف أسلوب مبارك بالبساطة فى التعبير ، والبلاغة فى الأداء ،
والفكاهة الحلوة • ولم يخل هذا الانتاج الضخم من هئات وسخافات ،
ربما كان مرجعها انه يكتب فى كل أسبوع ، فى موعد محدود ، مفروض
بحكم صدور الصحيفة ، وربما كان مرة منحرف المزاج أو مكدودا •

وزكى مبارك بطبيعته صحفى مجادل قوى الشكيمة جرىء فى الحق ،
أو فيما يعتقد حقا • يغلب عليه اللون الوجدانى ، مع الرصانة والطلاوة •
وأسلوبه حى ينبض بالحياة ، وان كان يدور حول النفس •

يقول : « أنا أعتقد بلا زهو ولا كبرياء أنى وصلت باللغة العربية الى
ماكانت تطمح اليه من « البيان » •

أنا أعتقد بلا استطالة ولا تزيد أنى خلقت عذوبة الأسلوب فى اللغة
العربية وقد صار البيان عندى طبيعة أصيلة لا يعترىها تكلف ولا افتعال •
وما أذكر أنى عرفت التسويد والتبيض فيما ألفت من الكتب أو نشرت من
المقالات ، بعد زمن التمرين الذى سبق سنة ١٩١٦ •

وما أعرف بالضبط ما خصائص أسلوبى : لأننى أصدر فيه عن السجينة
والطبع ، ولكنى أعرف بالتأكيد أن الذى يقرأ مؤلفاتى ومقالاتى يشعر بأنه
يرى الحياة وجها لوجه • ويشهد صراع الأحلام والأوهام والآراء والأهواء
والحقائق والأباطيل • •

وزكى مبارك يصدق فى جانب كبير مما أورده فى هذه العبارات •

ويركز زكى مبارك مهمته فى البحث على العقل واقامة البرهان قبل
تلمس النزوات والتوفيق بين المعقول والمنقول • يقول :

« وأنا أمثل المدرسة التى تحكم العقل فى كل شئ • وتفرض على
الباحث ان ينقد أولا المصادر التى يعتمد عليها وتروضه على ادراك الفروق
بين الأدواق والأحاسيس فى مختلف العصور الادبية •

وفى يقينى أننى سأحول النقد الأدبى فى مصر تحولا جديا ، وسأعلم
القراء كيف يبحثون عن الحجج والبراهين ، قبل أن يغرموا بتلمس

النزوات الصغيرة ، التي يلقي بها الكتاب هنا وهناك ، وهم يتجادلون ويتحاورون • وأنا أمثل المدرسة التي توفق بين المعقول والمنقول ، وتفرض على أنصارها أن يروضوا أذهانهم على فهم الواقع ، وترك ما درج عليه بعض المحافظين من التعلق بالأوهام » •

وفى عرض التراجم الذاتية يرى زكى مبارك أن هناك طريقتين لذلك •

فإن كان الغرض هو بحث الشباب على الافادة من أدب يترجم له كان من الأنسب أن نجسم المحاسن وتنقضي عن العيوب • وإذا كان الغرض درس الطبيعة الانسانية وبيان استعدادها لاصول القوة والضعف ، كان من الأوفق ان نعرض لسير المشهورين ، بتفاصيل ما مر بهم من امارات التحليق والاسفاف •

كما يرى أن تمثل من تترجم لهم كأنهم أحياء • فنفرض أنهم يملكون حق العتب والملام : « فإن كان المترجم له رجلا عرف في حياته بقوة المراس والاستهانة بالقليل والقال ، صح لنا أن نكتب عنه ، في طلاقة وحرية •• وإن كان رجلا عرف في حياته بالتحرز من المعارك الأدبية ، وجب أن نكتب عنه في لطف ورفق ، كأنه حي يؤذيه الهجوم » •

وهو يعلن أنه لاصحة لما شاع عنه افك وبهتان بالولع بالغض من أقدار الناس • ويقول : « أقسم أنني لا أهجم على رجل الا بعد أن أدرس مقاتله دراسة جديده لاتحاماها عند النضال ، فليس من المروءة ولا من الشرف أن يسخر القلم وهو نعمة من الله علينا فيما لا يليق بالأدب الصحيح (١) » •

وقد اتهم زكى مبارك بدأوة الطبع في السجال والمناقشة • وقد دافع عن نفسه • فقال « ان بدأوة الطبع التي كثر الكلام في ذمها وتجريحها لم يكن من المثالب الا في كلام الشعرية • وهم قسوم أرادوا الغض من الشمالي العربية • ولولا ذلك الهجوم الأثيم لبقيت من المحامد • فكيف ينكر على رجل مثلي ، ظل بدوى الطبع ، في زمن توارث فيه الصراحة ، وكثر فيه تنميق الأحاديث ؟! » •

وقد حاول زكى مبارك أن يبرر في أكثر من موضع بعده عن ميدان
 القصة : يقول « . . اننى لم أكتب فى حياتى غير قصتين : قصة قصيرة ،
 وهى فى صدر كتاب « الأسمار والأحاديث » . وقصة طويلة ، هى قصة
 « لىلى المريضة فى العراى » والقصتان مأخوذتان من الواقع لا من الخيال .
 ومن رأى أنه لا يجوز للكاتب أن يعيق فطرته ، فيكتب فيما لا يحسن
 من الفنون . وأنا مفضول على النقد الأدبى . وقد تفوقت فيه . فمن الواجب
 أن أقصر جهودى كلها عليه .

ومن الصعب أن أناقش الأستاذ توفيق الحكيم فى القصص ، ومن
 الصعب على الأستاذ الحكيم أن يناقسنى فى النقد الأدبى . فلكل رجل
 هنا ميدان . . .

وقد سجل زكى مبارك رأيه فى القصة عام ١٩٣٧ . فقال : القصة
 فى مصر مطية من لا يعرف . وعوام الناشئين يؤكدون أنها فن جديد .
 وهم يزعمون أن القصة قد توجب التحلل من القواعد النحوية والانشائية ،
 ولا يصلح لها غير المقتل من الأساليب . وأكثر من أن يصرحوا من الأفاقيص
 المصرية ليس الا انتهاجا من القصص الصغيرة التى تباع فى (محطات)
 أوربا لينتهى بها المسافرون « . ان الكاتب الأوروبى لا ينشئ قصة الا بعد أن
 يدرس آراء المفكرين فى القديم والحديث ، وبعد أن ينظر فى مشكلات
 عصره نظرة الباحث المتعمق ، فيعرف ما يحيط به من المضلات الذوقية
 والاجتماعية والاقتصادية ، فيكون لقصته مغزى مأخوذا من أزمات النفوس
 والقلوب (١) . . .

ويسجل زكى مبارك فى أكثر من مناسبة ، أنه مولع بدرس سرائر
 النفس الانسانية . وهذا المعنى هو الذى حملته على الصراحة فيما يسجل
 ويفيد من الأفكار والمعانى . ويخشى أن يكون ضحية للدراسات
 الفلسفية . ولا يغريه الا شئ واحد ، هو الشعور بأنه أنقذ الأدب العربى
 من كابوس الرياء والنفاق .

ولعل أبلغ ما أخذ عن الدكتور زكي مبارك في منهجه في البحث
« الحديث عن النفس » . فقد كان موضع النقد . حتى قال عنه المازني :
« لو أخذ زكي مبارك كتابته من الحديث عن زكي مبارك لكان أحسن مما
هو الآن » . وقال طه حسين : « إن أكثر أدب زكي مبارك في الحديث
عن زكي مبارك » .

وقد دافع زكي مبارك عن نفسه في كلمة وجهها الى المازني .
فقال (١) .

« ماذا تنكر من حديثي عن نفسي ؟ .. هل كان أدبك يا صديقي
المازني الا دورانا حول نفسك ؟ .. وهل كتب العقاد مقالا أقوى من مقاله
عن الأزمة التي صاوت روحه يوم احتلال العلمين ؟ وهل كتب الدكتور طه
أقوى مما كتب في الحديث عن طفولته وصباه ؟

ان تصوير هموم النفوس وما يحيط بها من مخاوف وآمال ، هو
أدب صحيح جعلته الكتب السماوية من شمائل الأنبياء .

وهل يمكن أن اتعرف الى الوجود قبل أن أتعرف الى نفسي ؟
وهل كانت روائع الأدب في جميع الأمم الا أحاديث نفسية ؟ الم
تكن اصالته في التعبير عن المخاوف الروحية ؟ وهل كانت أكثر القصائد
الخيال الا افصاحا عن عواطف ذاتية ؟

قال ديكارت : « أنا افكر . فأنا اذن موجود » .

ومن معاني هذه العبارة أن الشعور بالنفس هو أساس الشعور
بالوجود .

ثم أشار زكي مبارك الى التناء على النفس ، ذلك الذي يقع فيه من حين
الى حين . فقال : « هل جال في خاطرك أن تبحث عن السر في هذه
الزعة النفسية ؟ ، لو أنك فعلت ، لعرفت أنني لا أكبر الامتجديا . والتحدى
نزعة طبيعية تطوف بالنفس حين تفكر في دفع الجمود والعقوق » .

(١) الرسالة : ٢٦ من أكتوبر سنة ١٩٤٧

وجملة القولى : ان أسلوب زكى مبارك هو مزاج من الأسلوب العربى القديم ، والأسلوب الغربى الحديث : فقد حفظ زكى مبارك القرآن فى مطلع حياته . وحفظ خمسة آلاف بيت من الشعر . وقرأ أمهات الكتب العربية ، ثم اتصل بأدب الغرب ، فقرأ فى الأدب الفرنسى أساليب جديدة ، ومعانى متجددة ، كانت بعيدة الأثر فى أسلوبه وتفكيره واتجاهاته .

ولعل حرية فكره واندفاعه تغرى الى الاتجاه الفرنسى فى التفكير . كما أن اصرار مبارك على الجدل ، وايغاله ، يعزى الى ثقافته الأزهرية . أما دعوته الى الحرية ، ومقاومة التدليس ، وتحطيم تقليد التفكير القديم ، فإن لهذا صلة بالفكر الغربى ، الى حد ما . وله صلات بما قام فى نفس زكى مبارك من كراهية للأزهريين الذين ناوهوه اصدار كتابه « الأخلاق عند الغزالى » .

ولا شك أن « زكى مبارك » قد أخذ الطريق الذى سار فيه طه حسين ، وأغرم مثله بالرأى الغربى والثير . وكما حاول طه حسين أن يكسب الشهرة فى صدر شبابه ، بآراء مثيرة ، عن المنفلوطى ، والمعري ، وحديث الأربعاء ، والشعر الجاهلى ، فقد اندفع مبارك الى مهاجمة الغزالى فى آرائه ، واتهامه بالجمود . ولكن زكى مبارك يمتاز فى هذا الاتجاه بأنه لم يلبث أن عاد الى الحق ، واعتذر للغزالى ، وصحح آراءه فيه ، فى كتاب « التصوف الاسلامى » ولكن زكى مبارك عاش حياته كلها ، راغباً فى الامارة ، مندفعاً نحو القول الجديد الجرىء ، الذى يهز ، ويدوى ، ويحدث الضجيج .

وجدانيات مباركة

هذا بحر لاساحل له في أدب مبارك • ولو شئنا أن نضيف كل
أدب زكي مبارك الى الأدب الوجداني ، لما كان ذلك غريبا • فقد عاش
مبارك بعاطفته • حتى أبجائه العملية اتسمت بالعاطفة • ولما كان زكي مبارك
شاعرا بطبيعته فان العاطفة تصبغ كل فنون ادبه • ولقد اتجه الى الوجدانيات
في سنواته الأخيرة • وكاد أن يقف أدبه على فن الكتابة الذاتية
والوجدانيات •

زجميع مراحل حياته تبين عمق هذا الاتجاه • فهو في مسستهل
حياته الفكرية ، اتجه الى دراسة شعر ، عرف بعمق اتجاهاته الوجدانية ،
هو عمر بن أبي ربيعة • فقد ألقى محاضراته الاولى في الجامعة المصرية
عن (حب ابن ابي ربيعة وشعره) ثم لم يلبث أن شغل نفسه بدراسة
شعر الحب في الأدب العربي القديم في حلقات أطلق عليها « مدامع
العشاق » •

وكانت دراساته للنثر الفني والتصوف الاسلامي متصلة أشد الاتصال
بالأدب الوجداني • وقد سجل مبارك في مقدمة كتابه عن النثر الفني ،
ان الأستاذة في جامعة باريس عابوا على كتابه ، « غلبة النزعة الوجدانية » •
وقد اعتذر عنه مسيو ماسنيون يوم أداء الامتحان في السربون ، فذكر أنه
شاعر • والشعراء لا يستطيعون الفرار من نزوات الوجدان •

ولكن زكي مبارك اتجه فيما بعد الى خلق مذهب في الكتابة الوجدانية
قوامه الأدب الصريح • وقد برز هذا الاتجاه واضحا بعد سفره الى بغداد
وكتابه فصول كتابه الضخم « ليل المريضة في العراق » بأجزائه الثلاثة ،
وهي عبارة عن يوميات وجدانية بدأ في تدوينها في أغسطس سنة ١٩٣٧ ،
وانتهى منها في مارس سنة ١٩٣٩ • وبذلك يكون قد شغل نفسه بهذا
الحديث سبعة عشر شهرا ويزيد •

وقد أراد أن يكتب قصة رحلته الى العراق « في أسلوب وجداني »
فجعل أساس الفكرة بيتا من الشعر هو :

يقولون ليلى فى العراق مريضة . فياليتنى كنت الطبيب المداويا

وقد رمز مبارك للعراق بليلي . وجعل نفسه « الطبيب المداويا » ،
وأراد أن يصور قصة هذا الجزء من الوطن العربى . وقد أصابته
المتاعب والأوصاب ، نتيجة لظروف الاستعمار التى منى بها . .

ثم استطرد الكاتب ، فأخذ يكتب يوميات لرحلته وزياراته لمسند
العراق . ويستطرد ، فيتحدث عن مقابلاته وقراءاته وأفكاره .

وفى خلال هذه الرحلة الطويلة كشف زكى مبارك عن نفسه ،
وحياته وأفكاره ومشاعره ، بصورة جريئة . وقد استهل مبارك كتابه
بكلمات وجهها الى الدكتور محمد حسين هيكى . أشار فيها الى كلمة
جاءت فى كتابه (ثورة الأدب) قال فيها « ان هناك آفا من المعانى يتحاماها
كتاب العصر الحديث ، وقال انه سيشق هذا الطريق « ويكفر » عن سيئات
أولئك الكتاب ، فيتحمل المشاق فى ارتياد تلك المجاهيل . قال : « وقد
اقتحمت تلك الآفاق بلا زاد ولا ماء . وأنا أعرف أنى أعرض سمعتى
للأقاويل والأراجيف . لأن الناس عندما لا يفهمون كيف يدخل الطبيب
على نفسه ، ليشرح على حسابها أهواء النفوس والقلوب والعقول . اقتحمت
تلك المهالك ، وليس لى الا سناد واحد ، هو الشعور بأنى أودى خدمة
للأدب والطب . وهل يخدم الأدب والطب أفضل من التغفل فى تشريع
النزعات والأهواء ؟ »

وقد أحب فى أكثر من مناسبة أن يصور هذا المذهب ، ويكشف عن
جوانبه يقول :

« عز على ، أن يقال ان شعراء أوروبا قد تمردوا باجادة القول فى
الوجدانيات ، فألفت كتاب (مدافع العشاق) ، ليكون شاهدا على سبق
العبقرية العربية الى شرح ماأسى الأرواح والقلوب . وسأنى أن يقال
ان « راسين » هو أعظم من شرح عاطفة الحب . فألفت كتاب « ليلي المريضة
فى العراق » لأقيم الدليل على أن فى كتاب اللغة العربية من يتفوقون أظفر
التفوق على راسين . »

كما اشار الى أنه سلك في هذه اليوميات (ليلى المريضة) مسلك الرمز والايماء ، ومسلك الغمز والتجريح . ورأى أن الأدب يوجب أن يرى الأديب جميع الأشياء ، وأن يعرف جميع الناس . « فانا أشرب المر من عصير الحياة . لاجلة الى شراب ساتع للشاربين » .

وهو في سبيل هذه الغاية التي آمن بها ، تسلل الى كل بيثة ، وتغلغل في كل مجتمع . لماذا ؟ . « لأرى كيف يعيش الحيوان الناطق الذي يرى نفسه سيد المخلوقات ، وهي دعوى أعرض من الصحراء » . وهو يؤمن بأن الأديب أحوج الرجال الى اختلاجات العواطف والافكار والاحاسيس ، ولا يتم ذلك الا اذا استطاع معايشة الناس من جميع الاجناس . والأدب عنده كالفن : « يجب أن يسمو عن الأوضاع والتقاليد ، حتى لا يفتر ويضوى بوضعه تحت رحمة المتزمتين من رجال الدين ورعاية المتحرجين من دعاة الاخلاق » .

ولا شك أن « زكى مبارك » في اتجاهه هذا يبدو جريئاً غاية الجراءة . ولقد سبق أن هوجم من أجل هذا الاتجاه ، حينما أصدر كتابه « مدام العشاق » ذلك الذي قال عنه طه حسين في نقده الذي نشرته جريدة السياسة ، وضمته مجموعته « حديث الأربعاء » في الجزء الثالث : « ان كتاب مدام العشاق يحرض على الشهوات . ومعنى هذا أن « زكى مبارك » من أنصار الادب المكشوف » .

انه يقول في مقدمة كتابه « حب ابن ابي ربيعة وشعره » ، ما نصه : « الأدب كالفن يجب أن يسمو عن الأوضاع والتقاليد ، حتى لا يفتر ويضوى بوضعه تحت رحمة المتزمتين من رجال الدين ، ورعاية المتحرجين من دعاة الاخلاق . والأدب المستور انما يفشى بالحجب المحلية التي لاندرى أتبقى سائغة مقبولة أم يعدو عليها البدع المستطرف ، فيلقى بها في مهاوى الخمول » .

ولكن زكى مبارك عاد الى تناول هذا الموضوع في كتابه « ليلى المريضة » فقال : « ما أردت به الا الصديق في تصوير العواطف والأهواء » .

ليكون في ذلك مادة تنفع في دراسة علم النفس ، ومن المستحيل أن أريد الدعوة الى الفجور والمجون . لأنني بحكم أعمالي الرسمية من رجال التربية ، ولأنني رجل متأهل ولى أبناء . . قد يكون في القراء من يخفي عليه أنني ادعو الى مبادئ خلقية سامية أغشيها بالفتون ، كما يصنع الطبيب في تغشية « البرشامة » المرة بغشاء من الحلواء . . »

ويرجع مبارك اتجاهه الى دراسة النفس الانسانية الى غرامه بالأدب الفرنسي منذ سنة ١٩١٥ : « فراعني أن أراه يتحدث عن أزمت القلوب والنفوس والعقول ، بأساليب لا أجد لها نظائر في الأدب العربي . فقررت أن أرجع الى نفسي لأقتش عما فيها من أسرار وغرائب واعاجيب لعل أن أمد الأدب العربي بذخيرة جديدة من ذخائر النفوس والقلوب . ومضيت فدرست طوائف من الفرائز والطباع والميول لأستطيع تأريخ النفس الانسانية في العصر الحديث . وقد جمعت من ذلك كله محصولا يعز على من رأس ويطول . ثم هالني أن أرى الناس ينظرون الى ، نظرات الريبة والاحتراس . . »

وقد رأى مبارك أن الأدب العربي أصبح على شفا الهاوية ، بفضل شيوع التدليس في تصوير العواطف والفرائز والطباع . من أجل هذا كله ، عمد زكي مبارك الى كتابة هذا اللون من الوجدانيات . ولقد صور زكي مبارك « الحب » في كتاباته . وكان رأيه جريث كظراته الى الوجدانيات .

« ان حديثي عن الحب صار مذهبا أدبيا ، أشرح به ما يتعرض له الناس في ميادين التوازع والأهواء . وأنا أريد أن أخلق جوا من البشاشة ادفع به ظلمات الزمان .

نحن لا نتكرر الكلام عن الحب ، فهو عاطفة عرفتها الأرواح منه أقدم عهود الوجود . وما قيمة الدنيا اذا خلت من الحب . وهل ينصرف القلب عن الحب وهو في عافية ؟ . .

الحب لا يفزو الا قلوب الأصحاء . وهو يساور قلوب الجنود ، في

أصعب أوقات الحروب • والجندى الفارغ القلب من عاطفة الحب لا يصلح أبداً للاستشهاد في سبيل الوطن الغلى ، لأن الوطن لا يغلو الا في صدور أرباب القلوب • الحب جده جد • وهزله جد • ولا يتجاهل هذه العاطفة الا الغافلون عن تأثيرها الحسن أو السيئ في تكوين الوجود •
وبأى حق يخلو أدبنا من تشريح عاطفة الحب •

ان التوقر الذى يصطبغه بعض الناس ، قضى على عصرنا بالحرمان من البشاشة والأريحية ، وقطع ما بيننا وبين ماضينا المجيد ، يوم كان لنا شعراء لا يعترفون بغير أوتار القلوب •

واين نحن من العصر الذى عاش فيه عمر بن أبى ربيعة • والعصر الذى عاش فيه العباس بن الأحنف • أو العصر الذى عاش فيه الشريف الرضى ؟ ••

كان أسلافنا أصحاب • فكانت عصورهم تجمع بين أشرف صنوف الهداية وأعنف ضروب الضلال • وكان الرجل الديان لا يتورع عن رواية أنظر فقصائد الغزل والتشبيب •

فى مساجدهم رويت طرائف الأشعار ، ونوقشت مذاهب الزنج ، بلا تحامل ولا اسراف وفى بيوت أتقيانهم دونت أوهام القلوب والعقول •
فأنا أتحدث عن الحب بصفة جديده ، وانعقب اخبره وآثاره فى كل ما أرى واسمع •

ان سكنتنا عن تشريح عاطفة الحب فمن يتحدث عنها ونحن ندعى النيابة عن الجمهور فى تشريح التوازع والأهواء ؟ نحن نريد أن نشغل الناس بأخلاقهم وأذواقهم وأوهامهم • نريد أن نسيطر عليهم بالأدب والعقل ، بعد أن سيطر عليهم السياسيون بالمناوشات الحزبية ، نحن نفكر فى خلق عصية أدبية • ولن نصل الى ذلك الا يوم يؤمن الجمهور بأن الأدب هو الترجمان الصادق لشهوات العقول وللعقول شهوات أعنف وأخطر من شهوات الأحاسيس ، وتثقيف الشهوات العقلية يصل بنا الى منازل الحكماء ويطمئنا فى الخلود • (١)

(١) مجلة الرسالة : مقال « تشريح عاطفة الحب » ١٩ من فبراير سنة ١٩٤٠ .

وقد شغل زكي مبارك الناس بالحديث عن « ليلي » . فمن هي ليلي؟ ولماذا شغل بها ؟ اعتقد أن « زكي مبارك » عندما درس الصوفية واوغل فيها أعجبه تصوير الصوفية للحب الالهي ورمزهم اليه بليلي . لذلك فكر هو في أن يحول هذا الرمز ناحية أخرى ، على النحو الذي هداه اليه تفكيره في البحث عن سرائر النفس الانسانية . غير انه حين يتحدث عن السر في كتابته عن « ليلي » يقول انه انما فكر في اغناء الأدب العربي بألوان من الصور الشعرية ، التي تصور عذاب الأرواح والقلوب . وأنه لم يكن سيئ . القصد فيما صنع . وانما أحب أن يقيم في علم الأدب العربي دولة للقلوب والأحاسيس . يقول : « كنت أحب أن يشعر شبابنا بأن لغتهم مازالت غنية ، وأن فيها كتابا وشعراء يعرفون مواسم القلوب » .

ولكنه يحس بأن هذا العمل الخطير الذي أقدم عليه لم يكن جزاءه كما ينبغي : « كنت كالطبيب الذي يحمل المشروط ليدأوى جرحاه . فينقل اليه المشروط جرائم الهلاك » .

ولكن زكي مبارك يؤكد أنه حرر يومياته عن ليلي المريضة من جميع القيود والاعلال . وقال انه ليس له من الجمال الا مأرب واحد :

« هو درس الطبائع والفرائز والميول لأخرج من ذلك بمحصول فلسفي ، قد ينفع بعض النفع في اذكاء الدراسات الادبية والفلسفية » .

ومن بين آثار زكي مبارك الوجدانية ، ما أطلق عليه « رسائل مجنون سعاد » تلك التي نشرها في مجلة الصباح عام ١٩٣٩ بقلم « الدكتور بديع الزمان » وهي مجموعة رسائل غرامية تحدث مبارك عن ظروف كتابتها . فقال :

« هناك كتاب لم يسبق له مثل ولا نظير ، وهو « رسائل مجنون سعاد » تلك التي أنشأها الدكتور بديع الزمان . أما ذلك الدكتور - وأنا ذلك المجنون - وأنا ذلك البديع ، فقد كانت تلك الرسائل ترسل بطريقة سرية الى صاحب الصباح ، لأنني كنت من أكابر المفتشين بوزارة المعارف ولا يجوز لرجل من أكابر المفتشين أن يتحدث عن الحب والجمال .

بدأت تلك الرسائل في بغداد • ولم تكن الموجية ليلي البغدادية •
وانما كانت ليلي قاهرية • رمت سهمها فأصمتني ، وأنا في بغداد • لقد
اعتصرت فؤادي وأودعته تلك الرسائل • »

ومما يتصل بهذا ما بدأ ينشره من رسائل قديمة ، موغل بعضها
في القدم ، فقد كتب في يونية سنة ١٩٤٢ في الرسالة مقالاً عنوانه (الخطاب
الذي احترق بسعير الأنفاس) •• يقول فيه :

« هو خطاب تلقيته من فلانة في سنة ١٩١٩ • فما صبر القلب على
غرام مشبوب ، يدوم ثلاثة وعشرين عاماً • وهى كآلف سنة مما تعدون ،
كان الدهر قد سمح في غفلة من غفلاته بأن ألقاها بعد طول الفراق
ثم استيقظ الدهر ، فعرفت ما لم أكن أعرف • عرفت أنني لن ألقاها بعد
ذلك ، ولو انتظرت الى أن تشيب ناصية الزمان •

فمن يبينني مثقالاً من الصبر الجميل عساني أتناسى أحزاني
وأشجاني ؟ » •

وعندى أن اتجه زكى مبارك هذا الى الوجدانيات ، وإسرافه فيها ،
يتصل بأزمته الأخيرة التي سنفصلها فيما بعد ، فقد أحس بأنه قد بلغ
الغاية • قدم ثلاث اجازات من الدكتوراه ، ومع ذلك فانه لم يجد مكانه ،
ولم يلق قدره ، لا في وزارة المعارف ، ولا الجامعة ، ولا ميدان الأدب
والصحافة • هنالك حاول أن يحدث ضجيجاً قوياً وصريراً مزعجاً • فكان
أوج قوة شخصيته ، لاعتبرت مصدر أزمته الأخيرة •

ومما يتصل بهذا رأى زكى مبارك في المرأة • فقد كان من الغريب
أن الذى تحدث عن الحب طويلاً ، وجرّد نفسه للوجدانيات ، قد كون
رأياً في المرأة • ولكنه رأى جائر ، فقد حمل على المرأة حملة شعواء
••• ولولا أن هذه الآراء كتبها عام ١٩٣٨ ، وهو في بغداد ، وهو في
أوج قوة شخصيته ، لاعتبرت مصدرها أزمته الأخيرة •

وقد أثار هذه الآراء في ابنتها ثورة ضخمة •• وان كان قد أخذ
بوجهة نظره كثيرون •

وهي تعطي صورة التناقض بين شخصيته ، حتى ان التأنيد ليدهش .
كيف أن زكي مبارك الذي صور الحب الضيف القاهر لـ « ليلي » في كتابه
هذا ، يذكر المرأة على هذا النحو .

وعندي أن « زكي مبارك » قد كتبها تحت ضغط ظروف غدر أو
هجر . وهذه جملة آرائه :

• قضيت أكثر من عشرين سنة في الدراسات الفلسفية . فالمرأة
الرفيقة القلب لا تؤنسني الا قليلا . لأن عقلي أكبر من قلبي . وأنا أشتي
المرأة اللثيمة التي يكون غرامى بها فرصة لدراسة القلوب والنفوس
والعقول .

• انتهيت من التجارب الى أن المرأة للرجل عدو بين . المرأة مخلوق
جميل . ولكنه سخي . لأنها تجهل ما فطرت عليه من الضعف . وهي
لا تسيطر ولا تستطيل الا على كرام الرجال . والرجل الكريم يراعى
عواطف المرأة بفضل ما فطر عليه من الهيام بالجمال والرفق بالضعفاء .
ولكنها تجهل ذلك وتظن انه لا يوادعها الا بفضل ما تملك من السحر
والجاذبية . وفي المرأة سحر وجاذبية ، وان كانت شوهاء ، لأنها باب الى
الفضائل .

• المرأة تملك أصول الشهوات ، وهي باب الدمار والخذلان .
وما أطاع رجل امرأته ، الا ذل وهان . وأعظم ميزة لنبي الاسلام هي دعوته
الى الحذر من النساء .

• ليس لي ما أشكوه من المرأة غير غلوها في الغيرة ، فهي تخاف
من جميع الهواجس وجميع الظنون . والمرأة لا تفهم أن الحياة تفرض
على الرجل أن يتحول من شأن الى شئون ، ليصل الى فهم المجتمع الذي
يرأوحه ويفاديه في سبيل الرزق أو في سبيل المجد .

• المرأة هي الجحيم الذي تتمرن به على الاقامة في سفر ، وهي
البلاء الذي يصبه الله على رموس العباد . هي الشقاء المعجل ، والكره
الذي يسبق الموت . والمرأة في جميع أحوالها مصدر فساد . وهي التي

تفرق بين الابن وأبيه والأخ وأخيه • ولها مداخل الى الفتنة يعجز عنها
ابليس •

• ومع أن الرجل يعز المرأة بغناه ، فهي تستريب من ظفره بالغنى
والعافية ، لأنها ترى في ذلك بابا لتطلعها الى سواها من النساء وما في الأرض
عدو الا وهو خليف بأن يتعامى عن بعض عيوبك الا المرأة • فهي وحدها
العدو الذى لا يغفر ولا يصفح •

زادها الله ذلة الى ذلة وضعفا الى ضعف •

• المرأة تؤثر في حياة العظماء بلا جدال • لأنها توظف فيهم غريزة
المخالطة والتفاق والرياء • وهى فضائل يعدها الغافلون من العيوب • بفضل
المرأة عرفنا كيف نصانع ونجامل ونراوغ • بفضل المرأة راضتنا المقادير
على الصبر الجميل •

آراء زكى مبارك

دفاع عن اللغة العربية والقومية العربية
الغريب

لزكى مبارك جوانب متعددة فى العمل الأدبى ، الذى تخصص فيه كان أبرز هذه الجوانب دراسته للأدب العربى . ثم دراسته للتصوف الإسلامى . وله آراؤه فى النقد والشعر والقرآن والمرأة .

ولكن هذا الجانب من زكى مبارك هو اعمق جوانبه أو يمثل أصدق آرائه ، ويرسم حقيقة اتجاهه وجوهر فكره .

فقد كان زكى مبارك صادق الايمان بالقومية العربية غيورا على اللغة العربية وبالرغم من انه سافر الى أوروبا وتأثر كثيرا بالثقافة الفرنسية والآراء الغربية فى أسلوب البحث وطريقة التفكير . الا أنه ظل من هذه الناحية صادق الايمان بالعربية والعرب ، لم ينحرف ولم يتردد فى رد كل من يحاول أن ينال من أمجاد الفكر العربى أو اللغة العربية . وقد كان ذلك غريبا فى نظر كثير من الناس الذين كانوا يظنون أن « مبارك » قد يحمل الأمانة للفكر العربى ، كما حملها من قبل عدد من الكتاب الذين تأثروا بالفكر الفرنسى ، وجعلوا أمانتهم له أكبر من أمانتهم لأمتهم العربية ، وأوغلوا فى الدعوة الى العامة أو الفرعونية أو ثقافة البحر المتوسط .

وقد سجل ذلك فى مقدمة ديوانه « ألحان الخلود : » فقال « حين رجعت الى القاهرة (مارس - ١٩٣١) أخذت أشرف فى جريدة البلاغ مقالات عن ذخائر الأدب العربى . ولكن الدكتور ابراهيم ناجى ضاق صدره بتلك المقالات . فقد كان ينتظر أن أكتب مقالات عن الأدب الفرنسى »

لهذا كتب مقالات (بتوقيع) مستعار فى احدى الجرائد الاسبوعية تقوم على الغمز والتجريح . واستمر غمزه وتجريحه سنتين . وفى أحد

الأيام طلبت موعدا للتلاقي • فاختار محل جروبى ، تفضل فيه فقدم
كأسا من الشاي • وتفضلت أنا فقدمت نسخة من ترجمة كتاب النشر
الفنى • •

ولا شك أن هذا المثل غنى عن أى بيان • فقد كان الظن أن الشباب
المثقف الذى تلقى دروسه فى الغرب لن يكون متحمسا لنصرة العربية
على هذا النحو الذى برز به فى صدر جريدة البلاغ ، تحت عنوانه الشهير
« الحديث ذو شجون » فى الوقت الذى كان الاستعمار قد ركز الدعوىة
الى العامية والفرعونية والوطنية الصنيعة • فقد دخل فى معارك ومساجلات
ومصارعات ضخمة فى شأن اللغة العربية •

وكان زكى مبارك نسيجا وحده فى هذا المجال - بين من عادوا من
أوربا فقد كان المرحوم محمد حسين هيكل ، وطه حسين ، وسلامة موسى
وغيرهم ، يحملون لواء الدعوة ، مخدوعين أو غير مخدوعين • أما هسو
فلم ينخدع • ولكنه أصر « منذ عرف اتجاهات أوربا » على ايمانه الخالص
باللغة العربية والقومية العربية • وظل وفيا لهما صادق الوفاء • ينافح عنهما فى كل
سبيل • ولم يحصل لذلك على أى « نشان » أو لقب من الألقاب التى كانت
تغدق على من يسميهم الغرب سفراء الفكر فى العالم العربى •

ولقد أمضى زكى مبارك أكثر من خمسة عشر عاما يدافع عن تدريس
العلوم فى الجامعة باللغة العربية • ولاقى فى سبيل ذلك كل معارضة
من دعاة التعريب ولكنه كان مصرا على دعوته ، يدعمها بالدليل والبرهان

يقول : « ان اللغة الانجليزية سم سد فى كليات الطب والهندسة
والعلوم ، لسبب معقول • أنهم يزعمون أن اللغة العربية تعوزها المصطلحات
العلمية • وهذا وهم • أو هو عجز نسترب هذا الوهم المصنوع •
فالمصطلحات العلمية لم تكن مما تفردت به الانجليزية والفرنسية ، وانما
من ألفاظ نحتت نحتا من اليونانية واللاتينية • وفى مقدورنا أن نأخذها
كما آخذوها ، بعد أن نصقلها صقل الترجمة والتعريب ، فتضاف الى اللغة
القومية : اللغة العربية الفصحى لا العامية • »

وقد تحقق أمله عام ١٩٣٩ كتب في ٨ من يناير سنة ١٩٤٠ بمجلة الرسالة مقالا قال فيه : « من مقائم السنة الماضية ان حصر اللغة العربية لغة الدرس في كلية الطب وكلية العلوم . وهي دعوة عانيت فيها من الشقاء ما عانيت . فمن قال انه دعا الى هذه الفكرة مرة او مرتين او مرات فأنا جعلتها حلما أهتف به في يقظتي ومسامي ، أكثر من خمس عشرة سنة ، وبسبب الالاح في نشر هذه الدعوة رأني بعض أقطاب الجامعة المصرية من الثقلاء . وأوصدوا في وجهي كل الأبواب . »

وقد عارض زكي مبارك دعوة ويلكوكس الى انعامه وقد أوجدت هذه الدعوة دويا عاليا . فقال : « بلغ الجهل ببعض كتب انصر أن يصدق ما أشار اليه ولكوكس من أن اللغة العامية لغة مصرية أصيلة يتكلمها المصريون منذ عهد الهكسوس ، على أن هذا لا يجمع من الاعتراف بأن لغة مصر القومية هي اللغة العربية الفصيحة ، لأنها لغة للدرس والتأليف . ولغة المحاكم والدواوين ، منذ أجيال طويلة . وقد رأيت بعض الكتاب المشهورين يبدئون ويعيدون في هذه المسألة لانهم رأوها موضوع عناية أحد المستشرقين . وكل ما يهتم به المستشرقون يجب أن يهتم به الشرقيون في فهم بعض الناس . »

كما وجه الأنظار أكثر من مرة الى حماية الشبَاب من الدعوات التغريبية . فقال : « ان شباب اليوم يعانون أزمة خطيرة بسبب الدساس التي يصوبها المستعمرون والمبشرون الى صدر اللغة العربية . وان واجب الأساتذة في كلية الآداب حماية أولئك الشباب من تلك السموم الفواتك

كما عارض الرأي القائل بأن اللغة العربية في مصر لغة أجنبية وبأن المصريين ليسوا من العرب .

ورد على الذين قالوا بأن اللغة العربية في مصر لغة أجنبية ، فقال : « ان مصر ، لحكمة أرادها الله بالعرب والمسلمين ، هي البلد الوحيد الذي انقرضت لغاته القديمة ، لتحل محلها اللغة العربية . وهو حظ لم تظفر بمثله أمة عربية أخرى . فالأقطار الشامية تحيا فيها اللغة السريانية واللغة العبرانية . والبلاد العراقية تحيا فيها اللغة البابلية واللغة الكردية

ولغات أخرى يعرفها أهل تلك البلاد . والجزيرة العربية تحيا فيها لهجات مختلفة . والبلاد المصرية فيها ما تعرفون من لغات متنافرة ، بعضها قديم ، وبعضها حديث . والرجل العربي قد يحتاج في تلك البلاد الى ترجمان .

وقد عصفت عاصف الظلمات بلغة القرآن في كثير من الأقطار العربية . فاضطرت بغداد ، وكانت عروس العروبة الى أن تتعلم اللغسة الفارسية بضعة قرون ، ثم قهرها الظلم بعد ذلك على أن تتكلم اللغة التركية زما غير قليل . والشام في مختلف أقطاره تعرض كارهها لأمثال تلك الخطوب . ومع هذا لطف الله بمصر ، فظلت موئل اللغة العربية . وكانت المساجد في القاهرة وفي سائر الحواضر المصرية مدارس جامعة لنشر علوم اللغة والدين .

وما يزال الناس يذكرن كيف حفظ الأزهر الشريف مخلفات الفرس والهنود والعراقيين والشوام والمغاربة والأندلسيين في ميادين المعقول والمنقول . ان اللغة العربية في مصر أرسخ من اللغة الفرنسية في فرنسا ومن اللغة الانجليزية في إنجلترا ، ومن اللغة الألمانية في ألمانيا لأن تلك اللغات بصورتها الراهنة لم تعيش في بلادها ربع المدة التي عاشتها اللغة العربية في بلادنا .

وهل في الدنيا لغة عاصرت القرآن ، وبقيت مفهومة ، على نحو ما يفهم القرآن في جميع البيئات العربية ؟ ان مصر هي التي حفظت لغة القرآن بلا جدال ولا نزاع . ان اللغات المصرية القديمة لن تعود أبدا ، ولو أنقضا في سبلها غاليات الأنفس والأموال . .

وفي الدفاع عن مصر قال : « سأقول وأقول ان مصر هي باعثة الأدب العربي بعد ان طال عهده بالهجوم ، نحن خلفاء العرب . والمصحف لا يطبع الا في بلادنا . وسنرفع راية العروبة في جميع الميادين »

وقد شغل زكي مبارك نفسه بتفصيل القوة في عظمة اللغة العربية وعلاج قصورها ووسائل بثها وأحيائها ودفعها الى الامام .

• ان اللغات من صنع الناس • وان كانت في بعض صورها من
موارث التاريخ • فما كان يجب على العرب في العصور الخوالي أن يبتكروا
أدوات التعبير عن شئون لم يشهدوها ولم يعرفوها • وانما يجب علينا
أن نعبر عما شهدنا وعرفنا ، كما عبروا عما شهدوا وعرفوا لنستطيع القول
اننا أهل للإنشاء والابداع • وكان أسلافنا من أكابر المنشئين والمبدعين •

• لغات العلم والمدنية في هذا العصر كانت فقيرة •• ثم أغناها
أهلها بالبحث والاشتقاق والاقتراس • فمتى صنع كما صنع الأحياء من
أبناء الزمان • نستطيع بدون صعوبة ولا عناء أن نجعل لغة العرب لسان
العلم والمدنية في الشرق ، فنزاحم بها ألسنة الأجانب ، ونستبقى أعمار
أبنائنا ، فلا يضيق في رطانات لا ينتفع بها منهم غير آحاد •

• اننا نريد (لغة) من لغات المدنية ، لغة يفهمها الفلاح والملاح
والتجار والبناء • نريد لغة سخيحة تسعد أبناءها جميعا بلا حساب • نريد
لغة تجمع بين التواضع والجبروت • يرى فيها العوام ما يشاءون من
البساطة والجمال • ويرى فيها الخواص ما يريدون من السمو والتحليق •
نريد لغة مبدولة على نحو ما يبذل الضوء والهواء • يأخذ منها كل انسان
ما يناسب عينه ورثيته •

• لقد خلقت اللغة العربية للحياة ، ولم تخلق للموت • بدليل أنها
لم تنهزم بانهازم الامبراطورية الاسلامية • وهي امبراطورية لم تسيطر
على العالم سيطرة حقيقية أكثر من قرنين اثنين • فلو كانت اللغة العربية
لم تعيش الا بحراسة الامبراطورية ، لوجب أن تزول • ولكنها لم تزول
ولن تزول •

لغة العربية خصائص ذاتية تستحق الدرس • فمتى تدرس تلك
الخصائص ، ومتى تعرف بالبرامين القواطع ، كيف استطاعت الانتصار
على الموت ؟ مع أنها تعرضت ألوف المرات للموت (١)

♦ ان اللغة العربية لها ماض مجيد في الحياة العلمية والطبية • ومن السهل رجعها الى مجدها القديم • ونحن لا تعجزنا الاصول • وانما تعجزنا الهمم العاتية التى تخلق الممالك والشعوب •

♦ أريد أن أعرف ما الذى يقهرنا على هذه التبعية للانجليز والفرنسيين ألم تروا كيف يحرص الغاصبون على نشر لغاتهم ؟ فاذا كانوا يرون ذلك من مؤيدات الاحتلال ، أفلا يرى الوطنيون نشر لغتهم من مؤيدات الاستقلال ؟ ..

ان حفظ اللغة هو الأساس فى حفظ الاستقلال • ان اللغة هى أهم مظاهر الاستقلال فعوضوا عليها بالنواجد ، ان كنتم تعقلون (١) •

وقد هاجم زكى مبارك دعاة « الأدب المصرى » ودعاة اللغة العامية « ووصفهم بالافلاس ، يقول « ان بعض الأدباء فى مصر يختلفون فى تسمية الأدب الحديث • وبغيتهم أن يسموه الأدب المصرى لا العربى • ثم يدورون حول فكرة الأدب المصرى • وينتهى أكثرهم الى الاتفاق على انه ليس عندنا أدب مصرى • لأن أكثر موضوعات الادب الحديث ليست مصرية • وقد يختلفون فى الصفة اللغوية فيرى فريق منهم أن اللغة الفصيحة ليست لغة المصريين ، لأنها وردت الينا من بلاد العسرب • فان سألت ما عسى أن تكون اللغة المصرية اضطربوا اضطرابا شديدا ، لأن اللغة العامية محرفة عن الفصيحة •

وقد سجل زكى مبارك كيف حاولت بريطانيا جعل تعليمنا يعمل لاجراج موظفين فلم تفلح ، وكيف حاولت فرض الثقافة البريطانية فلم تفلح • وكيف عمدت الى محاولة انشاء الكليات وتوقيف مشروع الجامعة فلم تفلح • وكيف حاولت جعل الجامعة مائة للالحداد فلم تفلح • وكيف حاولت محاربة اللغة العربية فلم تفلح (٢)

(١) من كتاب اللغة والدين والتقاليد - لزكى مبارك •

(٢) جريدة البلاغ - حياة مصر الأدبية فى عهد الاحتلال (مقال)

يوليو ١٩٣٢ •

ويقول ان المحتلين عجزوا عن قتل حرية الرأي كما حاولها احياء
العصبيات والخلافات الدينية • وكيف كان اسم عرابي واسم عمر مكرم ،
وقد ظلا طويلا منكودين •

وفي كل مناسبة يدعو زكي مبارك الى أنه قد حان الوقت الذي تحرر
فيه بلادنا من السيطرة الأوروبية في العلوم والآداب والفنون • يقول :
« ما أدعو الى غض أبصارنا عما في أوروبا من آثار العقول • فهذا كلام
لا يقوله رجل متخرج في السربون • وانما يجب أن نروض أبناءنا على
الشعور بأن لهم أدبا وعلما وفنا • يجب أن نروض أبناءنا على الشعور
بأن لنا عقولا وأذواقا وأحاسيس •

يجب أن يفهم أبناءنا أننا صالحو نبناء مجدنا الادبي والعلمي
بأيدينا •

يجب أن يكون مفهوما أن العرب صلحوا مرة للأستاذية العالمية نحو
ثلاثة قرون • يجب أن يكون مفهوما أن اتخاذ اللغات الأجنبية لغات
تدرس في المعاهد والكليات هو اعتراف خطير بأن لغتنا فقيرة وأننا فقراء •
وكان فهم زكي مبارك للقومية العربية عميقا صريحا مقرونا بعاطفة
الصدق والايمان • وقد عمق هذا الفهم جولاته في العالم العربي ،
واتصاله بالبيئات الوطنية الصادقة الايمان بالوحدة العربية •

واعتقد أن حادثين هامين في حياة زكي مبارك كانا مصدر هذا
الاتجاه ، وسييلا لاستمراره عنده ، طوال حياته الفكرية • أما الحادث
الأول فهو زيارته لمراكش عام ١٩٣٢ بعد انتهاء اقامته في باريس واتصاله
بالمفكرين والوطنيين العرب ، في هذا الجزء النابض بالحياة ، من الوطن
العربي ، والذي كان واقعا - اذ ذاك - تحت سيطرة الاستعمار الفرنسي •
وفي مراكش يمثل التاريخ العربي في أروع صوره : هذه المنطقة التي
ترتبط بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي ، والتي كانت معبرا لغزوات
متعددة في أرض أوروبا • وفيها جبل طارق ، وصورة جيش الغزو العربي
بين العدوتين في طريقه الى الاندلس • ثم غزوات متعددة في عهد

الموحدين والمثمين وملوك الطوائف • هنالك حيث تبدو الروح العربية من وراء غلاف الاحتلال الفرنسي قوة حية ، هناك تكشف لركى مبارك عظمة الأمة العربية وقوة تراثها الحى •

وقد أتيج لمبارك من بعد أن يذهب الى بغداد عام ١٩٣٨ ، ليعمل مدرسا فى مدارسها العليا ، وقد أمضى هناك عاما كاملا حيث تعمق شعوره بالقومية العربية وازداد قوة وحياة • ففى بغداد صورة عهد الرشيد ومرسم الحياة العربية فى انطلاقتها ، حيث كانت الترجمة والتأليف ومدارس العلم والحضارة ، وحيث ظهر علماء أعلام ما تزال آثارهم قوية باهرة • ومن شأن هذه الصفحة الضخمة من تاريخ الأمة العربية أن تكسب روح الكاتب العربى قوة إيمان ، وتضاعف أمانته للفكر العربى ، وللبعث العربى الجديد •

ولذلك فقد كان زكى مبارك من أوائل كتابنا الذين عاشوا بين خلال هذه الفترة التى كان الاستعمار حيا بأن يفصل فيها العرب فى آسيا عن العرب فى افريقية ، وبذلك جمع بين عظمة الأمة العربية فى أقصى طرفيها (بغداد ومراكش) ، وبين المدينتين اللتين تحملان أعظم مظاهر الحضارة فى الامة العربية • وقد كان له فى خلال ذلك جولات فى دمشق والقدس وبيروت أتاحت له أن يرى ويسمع ويتحدث عن روح الوحدة الكبرى •

ولعله أول كاتب أشار الى « أن العرب مقبلون على تاريخ جديد لا تنهض قواعده بغير الاخاء الصريح • وهو أول من نبه الى خطر المؤامرات الغربية فى سبيل تحطيم هذه الأخوة • حيث يقول : « من أجل هذا تبذل الملايين من الدنانير الأجنبية لتمزيق ذلك الاخاء أو قتله فى المهد » •

وقد كانت هذه الرحلات فى العالم العربى عاملا فعلا فى تعميق الايمان بالقومية العربية لكل الذين طافوا به من المثقفين والكتاب ، أمثال المرحوم الدكتور محمود عزمى ، والمرحوم : ابراهيم المازنى • والزيات والمرحوم : عبد الوهاب عزام • وقد دعا مبارك الى عمل مدروس لتحقيق القومية العربية فقال :

« ان الأمر الهام أن تكون لنا خطة قومية فى التعرف الى الشرق ،
خطة قومية تنزل من القلوب منزلة اليقين ، وتفرض على المصرى أن يشعر
بالاخوة الصحيحة لكل من يتكلم اللغة العربية . فاذا تجاوزنا ذلك الى
العطف عن كل ما صدر عن القومية العربية عدنا الاسلام صوت العرب
فى الشرق والغرب ، وأدركنا ان الاسلام ميراث عربى يشاطرنا فيه
نصارى لبنان والعراق :

« لأن محمدا ، صلى الله عليه وسلم هو أول عربى رفع اسم العرب
فى العالمين » .

وقد صور مبارك ضرورة الوحدة . فقال « انما أريد أن أصارحكم بأن
مصر مثلا أضيق من أن تسع المصريين . فلا بد لنا من اخوان وأصدقاء
تبادلهم المنافع الأدبية والاقتصادية ، ونبنى على أساس مودتهم صروحا من
القوة والثروة ، واننى لأذكر أن شعر حافظ ابراهيم له حفاظ ورواة فى
بلاد المغرب ، كما كان لجريز والفرزدق حفاظ ورواة فى الادب القديم
وان ديوان حافظ لينشد كله فى سهرة واحدة فى قهوة الجامع فى باريس
ينشره الحاج طاهر الصباغ قصيدة قصيدة . ولا سيما القصائد الوطنية
البديعة التى قيلت فى دنلوب المستشار الانجليزى للمعارف فى عهد ظلام
الاحتلال . والتى قيلت فى حادث « دنشواى » .

ويقول : « هذه الأمم العربية لا خلاص لها الا باتحادها . واتحاد
المشاعر والاذواق والعواطف له أثر عظيم فى اعداد هذه الشعوب لمستقبلها
المأمول .

وليس لنا أن نئس ، فان الزمن لن يظل على مواتاته للأمم الاوربية
الطاغية التى يعز عليها أن تترك شملنا بلا تبديد وجمعنا بلا تفريق » .

كما يدعو الى احياء ذكريات العرب ، ويرى أن كل احياء لذكريات
العرب خليق بأن يثير الزهو والكبرياء فى نفوس الأمم الاسلامية . وهم
يعرفون ما صنعت تلك الأمم فى الأيام الخوالى » . وهو يخاطب المصريين
بقوله : على المصرى أن يفهم أن فى دمه روحا عربية تسوقه الى الانتقال

من أرض الى أرض فى سبيل المنافع العلمية والادبية • وأن رجولته
لا تكمل الا اذا واجه المصاعب واستطاع أن يخلق لنفسه ولوطنه أصدقاء
فى مختلف البلاد »

وقد أشار فى بعض أحاديثه الى ما وجه الى المرحوم : الشيخ
مصطفى عبد الرازق عندما قال : ان مصر تقف من الوحدة موقف المشاهدة
لا موقف الفاعلية فهجم المصريون عليه وخطثوه بعبارات قوية •

ويقول « ان التشكيك فى عروبة مصر لا يقوم به الا أناس يخدمون
المستعمرين ويخدمون المبشرين • وأن مصر هى التى استطاعت أن تعرض
على فرنسا أن تؤمن بأن اللغة العربية لغة حية • وهى التى استطاعت أن
تفرض على عصبة الأمم أن تجعل اللغة العربية لغة رسمية • وهى التى
استطاعت أن تجعل الأزهر مرجعا لجميع المذاهب الاسلامية بلا استثناء »
ويقول : أنا عربى ••• والمصريون عرب فى أقوالهم ، وأفعالهم ،
وسجاياهم ، ودينهم ، ومذاهبهم • وأدعو الله أن يجعل مصر أبد الدهر من
أملاك اللغة العربية لغة القرآن •

ويقول : « أنا أدعو أبناء العرب فى المشرق والمغرب الى حب جميع
البلاد العربية حبا يصيرها فى عيونهم وقلوبهم ملاعب حبية • أدعوهم
الى التآخى الصادق المتين • أدعوهم الى التصوف فى الأخوة بحيث يصبح
كل رجل وهو مسئول عن حياة أخيه فى المحضر والمغيب • »
وقد عارض زكى مبارك الدعوة (التغريبية) التى كانت تقول بحضارة
البحر المتوسط ، وعظمة العقل اليونانى • وقد مزاعمها فى أكثر من موضع
ومناسبة من مؤلفاته وكتابات •

وقد صور مقدمة كتابه (الأسماء والأحاديث) كفاحه هذا فقال :
« وقفت لأعداء العروبة والاسلام بالمرصاد ، فمزقت أوهام الخوارج على
العروبة والاسلام شر ممزق • ودحرت من سولت لهم أنفسهم أن يتناولوا
على (ماضى) الأمة العربية • وعاديت من أجل الحق رجلا يضرون
وينفعون ويقدمون ويؤخرون • فكان اعتصامى بحبل الحق أقوى ما تذرعت
به لاتقاء مكائد الناس ومكائده الزمان • •

ويرى زكى مبارك أن « أهل الغرب ثام ، تصفيهم القدرة ، وتعميهم
النعمة ولن تكون هذه المبتدعات في أيديهم الا وسائل فناء واهلاك وتخريب
وتدمير » .

وهو يؤمن بأن أهل الغرب لا يوفون اذا عاهدوا ، ولا يصدقون
اذا وعدوا ولا يبرون اذا أقسموا . انهم لمغرمون بنقض العهود ، وتمزيق
المواثيق . ولست في حاجة الى تذكير قرائي بالسبعين وعدا التي ظفرتنا به
من الساسة الانجليز .

وهو يرى أن كل من يمت الى أهل الغرب بصلة قريبة أو بعيدة
انما هو انسان خادع ماكر خبيث . لا عهد له ولا أمان .

ويؤمن زكى مبارك بأنه لا بد لمن يريد أن يعيش أهل هذا الزمان
أن يكون في مثل لؤمهم وبغيهم وأن يكون له مالهم من قوة البحر والهواء .
وقد هاجم زكى مبارك « كليرجي » أحد كتاب فرنسا هجوما عنيفا
كشف به الستار عن المؤامرات التي يدبرها دعاة التغريب ، الذين يعملون
لحساب الاستعمار تحت اسم « العلم الحر » وقال :

« ان هذا الرجل يتعرض للاسلام والأخلاق الاسلامية . مع انه
لم يدرس اللغة العربية في حين أن واجب العالم يقضى عليه بالحد والثبت
قبل القطع في المسائل الخلقية . وقد جرت العادة عند بعض الأوربيين أن
يقفوا في نقد الأخلاق عند ما يشهدونه في الحانات والقهوات والمراصن ،
ويندر أن يفكروا في درس الاخلاق الاسلامية التي يعيش عليها الناس
في الأفليم . ولو اتجهت أفكارهم الى هذه الناحية لرأوا فيها الأعاجيب .
فان المصريين في الأرياف يتماسكون أقوى التماسك من الوجهة الخلقية .
وفي الريف بيوت عدة يعيش أهلها في الفاقة والمترية . وهم مع ذلك نماذج
في صيانة الشرف والعرض . وهؤلاء الفلاحون الفقراء هم الدلائل على
نبل الاخلاق ولولا ما يعتصمون به من الخلق والدين لكانوا مبعث فتنة
وشر . فمن يبلغ مسيو « كليرجي » أنه كان قصير النظر ، حتى اكفى
في درس أخلاق المصريين ، بالوقوف عند بعض المناظر التي يشاهدها

أحيانا من يعيش في القاهرة • ومن يبلغه ان انحراف بعض القاهريين ليس
الا نتيجة لاتصالهم ببعض الفارغين من أخلاط الجاليات الأجنبية •

ان الذين يذيعون الفاحشة عن الشرق وأهله لا يعرفون أن أهلهم
يعيشون في بيوت من زجاج • وينسون أن قوتهم في الدنيا مستمدة من
أصول ينكرها الخلق النبل •

ان هؤلاء الذين يتلمسون لنا الهفوات لا يعرفون اننا كنا أكرم منهم
حين عشنا في بلادهم • ان مصر لا يعيش فيها من الأجانب الا من يعجز
عن الحياة في وطنه • فترحب بهم البلاد الكريمة وتؤويهم ليكون جزاؤها
أن تطول سنتهم وأقلامهم بالزور والبهتان »

ويسجل زكى مبارك موقفه الواضح الصريح من الآراء الغريبة :

« ليس من العار أن يتأثر الانسان بفكرة أجنبية ، ولكن العار أن
يدعو لآراء أجنبية لم يتأثر بها ، ظنا منه أن في ذلك طرافة وابتكار • ومن
أجل هذا تضع جهود كثير من المجددين ، لأنهم في طرائفهم أدياء »

ويذكر زكى مبارك أن المستعمرين وصناعهم يريدون أن يوهموا
أن مصر تخلت عن العروبة • ويريدون أن يزهدوا العرب في الثقافة
المصرية • ويعلق زكى مبارك على كراهيته للانجليز في أكثر من موضع
فهو يذكر بالتقدير جان دارك ، بعد أن زار قبرها ومن فوقه النار موقدة
لا تخبو ويقول معلقا : « أنا أحب جميع من حاربوا الانجليز »

ويقول انه كان يأسى كلما تذكر تقصيره في تعلم الانجليز • لم
مرت به ظروف سعد فيها بهذا الجهل - لأنه على قبحه - كان عنوانا على
الشخصية الاستقلالية وفي باريس كانوا يقولون له عندما يعلن جهله باللغة
الانجليزية : كيف يصح ذلك ومصر في قبضة الانجليز • فكان يجيب : انكم
واهمون : وان مصر ليست في قبضة الانجليز • وانما هي ملك لأبنائها
« الصناديد » •

ويزد على الغرب ، فيقول : لقد خدعنا الغرب بما عنده من مدنية •

فلنخذه بما عندنا من مدنية • عنده نور الكهري • وعندنا نور العدل •
عنده الزخرف ، وعندنا الحقائق • عنده الاستعمار • وعندنا الاستبسال •
ويقول متحديا : « ما كان العرب من السوائم المهملات حتى يفكروا في
رعايتكم يا أهل الفرنسيين أو الالمان أو الطليان • »

في الأدب العربي الحديث

شغل زكي مبارك نفسه بالأدب العربي ، فكان من أقوى كتابنا تعمقا
فيه • وكتابه « النثر الفني » يمثل مدى المجهود الضخم الذي بذله مبارك
في مراجعة آثار الأدب العربي ، ومعالجه ونقده نهده الآثار ، والموازنة فيها
ولم يتوقف زكي مبارك بعد كتابه هذا عن الدراسات المتصلة للأدب العربي
بل استمر فيها • وإذا اعتبرنا أن دراساته عن التصوف الاسلامي مستقلة
ساما عن هذا الفن ، فإن دراساته عن الموازنة بين الشعراء وكتابه عن عمر
بن أبي ربيعة والشريف الرضي ، ومقالاته المتعددة التي لم تجمع في كتب
قد تناولت الكثير من التعليقات والتحقيقات المختلفة للأدب العربي • فضلا
عن مراجعته لكتاب « زهر الآداب » للمحصرى القيرواني • والكمال
للمبرد • ويرى زكي مبارك أن كتابه « النثر الفني » أول كتاب كشف
النقاب عن نشأة النثر الفني في اللغة العربية • • وانه قهر به المستشرقين
ومن لف لفهم من أهل الشرق على الاعتراف بأن القرآن صورة من صور
النثر الجاهلي : انه دليل على أن العرب كان لهم نثر فني قبل عصر النبوة
بأجيال • • ويرى أنه أول من أرجع بكتابه هذا الصور الفنية في نثر كتاب
الصناعة والزخرف الى أصول عربية صحيحة •

وكان الباحثون يحسبون أنها أثر من اتصال العرب بالفرس واليونان
وان ما دونه من أطوار السجع والنسيب في النثر الفني أقل ما يقال فيه
أنه باب من البحث جديد • وقد سجل زكي مبارك في مقدمة كتابه أنه
شغل نفسه باعداده سبع سنين • « فان رآه المنصفون خليقا بأن يغمر قلب
مؤلفه بشعاع من نشوة الاعتزاز ، فهو عصارة لجهود عشرين عاما قضاه
المؤلف في دراسة الأدب العربي والأدب الفرنسي • وان رأوه أصغر

من أن يورث المؤلف شيئاً من الزهو فليذكر أنني ألفت في أعوام سود ،
لا قيت فيها من عنف الايام ما يقصم الظهر ويقصف العمر • فقد كنت
أشطر العام شطرين : أقضى شطره الأول في القاهرة حيث أودى عملي وأجنى
رزقي • وأقضى شطره الآخر في باريس كالطير الغريب ، أحداث العلماء
وأستلهم المؤلفين الى أن ينفد ما ادخرته أو يكاد • ثم أصررت على أن أنقطع
الى الدرس في جامعة باريس حتى أنتصر أو أموت »

وكما قلنا من قبل لم ينس زكى مبارك طبيعته في النضال ، حتى
مع كبار الاساتذة المتحنيين في باريس ، فقد بدأ بعد وصوله
الى باريس مباشرة بمهاجمة آراء مرسيو مرسيه (رأس المستشرقين
الفرنسيين) لذلك العهد ، والذي كانت له آراء مدونة عن نشأة
النثر الفنى عند العرب • وقد نصحه مستشرق آخر هو (ماسنيون)
وأفهمه أن « مرسيه » رجل صعب المراس وأن منزله في المعهد العلمى
عظيمة وأن المستشرقين يجلونه أعظم الاجلال • ولكن كتب الله الا ينتصح
فبدأ رسالته التى قدمها الى السربون بفصلين فى نقض آراء كبير المستشرقين
وقد رفض مرسيه ابقاء هذين الفصلين بحجة أنها لون من الاسطراد
لا يوائم الروح الفرنسى فى البحث • ولكن زكى مبارك أصر على ابقاء
الفصلين بحجة انهما العماد الذى تنهض عليه نظريته فى نشأة النثر الفنى •

وكما قلنا من قبل ، يقسول زكى مبارك عن أثر ذلك « وكأنما
عز على الرجل أن أهجمه فى عقر داره • فمضى يعدبنى عداً خفياً كانت
له آثار بشعة لا أتذكرها الا انتفضت رعباً من عجز الرجال عن ضبط
النفس وقدرتهم على تقويض دعائم الانصاف • وقد قابلت خصومته ببلد
أقصى وأعنف • ورأيت الحرص على آرائى أفضل من الحرص على رضا
فأبقيت الفصلين اللذين أغضباه » •

وهكذا تكشف لنا هذه الحادثة جانباً من شخصية زكى مبارك وتفرد
فى مجال علمائنا الذين سافروا الى أوروبا وغير أوروبا ليحصلوا على اجازات

علمية • نما سمعنا أن واحدا منهم خاصم أساتذته على هذا النحو ، وأصر على آرائه ورفض آراء המתحدين •

وقد كشف زكى مبارك فى كتابه « النشر الفنى » عن أشياء كثيرة وعارض فيه آراء المستشرقين • ومن ذلك ان أساتذة الادب العربى فى الشرق والغرب كانوا يعتقدون أن رسالة الغفران هى • أول مسلاة فى اللغة العربية •

ويظنون ان ابن شهيد حاكاه حين ألف « التوابع والزوابع » ، فأثبت مبارك أن رسالة ابن شهيد ألقت قبل رسالة المعرى • وان المعرى هو الذى حاكى ابن شهيد •

ولكن « زكى مبارك » بالغ بعد ذلك فى تقدير كتابه هذا • فقال عنه • ستبىد أحجار الجامعة المصرية ويبقى كتاب « النشر الفنى » فقد بادت المدرسة النظامية • وبقيت مؤلفات الغزالى • لأن الفكر صورة من صور والله حى لا يموت •

وكما ذكرنا من قبل ، يقول : « ما ذكرت كتاب « النشر الفنى » الا شعرت بنيران تتأجج فى عروقى » • ويعد كتاب « عبقرية الشريف الرضى » من أجود آثار زكى مبارك فى الأدب العربى • وهو يقف به فى صف العقاد بابن الرومى ، وطه حسين بالمعرى •

وقد أشار زكى مبارك الى أنه أعجب بالشريف منذ عهد طويل من- عام ١٩٣٢ • فلما ذهب الى بغداد (١٩٣٨) ابتداء به على غير موعد • فقد رأى نفسه فجأة بين دجلة والفرات ، فتذكرت أنه قد جاء الأوان لدراسة هذا الشاعر ، الذى تعصب له منذ أعوام طوال • ويقول ان التشابه بينه وبين الشريف عظيم للغاية : « ولو خرج من قبره لعانقنى معانقة الشقيق للشقيق • فقد عانى فى حياته ما عانيت فى حياتى • وكافح نى سبيل المجد ما كافح وجهله قومه وزمنه • وكافحت فى سبيل المجد ما كافحت وجهلى قومى وزمانى » •

وقد أشار الى أن الأدباء فى مصر كانوا يختلفون حول البحرى

والمتنبى • وكان وحده يقدم الشريف الرضى على هؤلاء الشعراء • ويؤكد الرضى كان احق بمجهوده • وانه نبه « طه حسين » بالاهتمام بدراسته زكى مبارك أنه قال للعقاد يوم أخرج كتابه عن ابن الرومى ان الشريف شعر الشريف • وأنه فكر فى انصاف الشريف الرضى يوم رأى « أنيس المقدسى » فى كتابه عن أمراء الشعر فى العصر العباسى يهتم بأبى العتاهية ، وينسى الشريف : « مع أن ديوان أبى العتاهية » لا يساوى قصيدة واحدة من قصائد الشريف • • وعنده أن الشريف الرضى شاعر نثر يوالى تحطيم قيود الذل والاستعباد • ونواخى الرجولة قد اكتملت فيه كل الاكمال • فهو رجل له صبوات وآمال • وهو عبق وفارس ومؤمن وزعيم • ويجمع بين المداراة والحلاوة والعنف والرفق • وعنده أن الشريف فى بابه أشعر من المتنبى • وأن الشريف بهذا المعنى أفحل الشعراء • لأنه جرى فى ميادين سيظل فارسها السباق على مدى الاجيال ويقول : « سيذكر أدياء بغداد أنني أخيب شاعرا هو من ثروة العروبة وثروة العراق »

وقد صور منهجه فى دراسة الشريف ، فقال : انه لم يقف منه موقف الأستاذ من التلميذ - كما يفعل المتحذلقون - وانما وقف منه موقف الصديق من الصديق • وعنده أن من الوفاء للبحث ان يساير الشاعر الذى يعرض عقله وروحه • وما أبعد انصرف بين رأى زكى مبارك فى الشريف ، ورأيه فى المعرى ، فهو يرى المعرى قد زهد فى أكل لحوم الطير والحيوان • ولكنه كان مولعا بأكل اللحم المحرم : لحم الانسان (فما ترك فئة ولا جماعة الا انتهش لحمها بأناب حداد) • ويقول : لو استبحت لحم المعرى كما استباح لحوم اسس ، نقلت ان ثورته على المجتمع كانت ضربا من الانتقام الاثيم • فالرجل كان يعرف أن أهل زمانه يتهمونهم بالمروق فى حق الدين فشاء له هواد أن يسجل مخزيتهم وما آثمهم ، ويفضحهم فى العالمين وقد أشار زكى مبارك الى جهوده فى ميدان الأدب العربى • فقال :

« رأيت اللغة العربية تشوف الى من يحدد مقاصد النقد الأدبى • فألفت كتاب « الموازنة بين الشعراء » • وقد طبع مرتين • ورأيت لغة العرب تنظر من يحقق بعض المؤلفات القديمة فنشرت كتاب « زهر الآداب » •

ونشرت « الرسالة العذراء » مصحوبة بدراسات وتحقيقات • وراعى أن
يجهل الناس بعض مصادر التشريع الاسلامى • فنشرت رسالة فى تحقيق
نسب كتاب الأم •

• وأراء مبارك فى الأدب العربى تلخص فى ايمانه بالأدب العربى •
وأنه يكفى لتكوين الاديب (١) ، ويرى أن الدراسات الادبية فى الصحف
السياسية لم تكن لوجه الله ، ولكن للاستثمار بالقراء • كما يعتقد أن الأدباء
المتخرجين فى الجامعة غير الأدباء المتخرجين فى الأزهر ودار العلوم •
ومما يرويه أنه فى الصراع على لقب أمير الشعب وعلان طه حسين اهداء
الى العقاد ، نار محمد الهراوى ، ومحمد الأسمر ، وأهديا اللقب الى
(البرنس) ، وهو نساخ فى دار الكتب ، له منظومات فى التهانى بالأفراح
والليالى الملاح • ومما ذكره أن « شوقى » أعطاه ثلاثين جنيهًا ليستعين
بها على طبع كتاب (حب ابن أبى ربيعة وشعره) ولولا هذه المنحة لعجز
عن اخراج الكتاب - والمازنى فى رأيه أكبر كتاب اللغة العربية فى العصر
الحديث : وله فى نفسه أعظم مكان • وقد أورد أن « معروف الرصافى ،
قال له ان أسلوب المازنى أشبه بشراب التوت •

وقد سجل نقاد زكى مبارك أنه من أول الداعين الى تكوين شخصية
للأدب العربى الذى يبدو ضعيفا ضئيلا بجانب الدوى الهائل الذى تدفع
به الآداب الغربية فى كل يوم •

ولقد سجل زكى مبارك رأيه فى الأدب الذى يكتبه كتاب عصره
حين قال :

« لا عبء بهذه الثروة التى يطالعنا بها الكتاب فى كل صباح • فهى
على وفرتها تكرير وترديد لأفكار الفرنسيين والانجليز والألمان • وليس لها
شخصية ولا ذاتية تحدث القراء عن حياة أولئك الكتاب •

(١) اشترك فى مناقشة فى الجامعة كان فيها مع خليل مطران على
الرأى بأن الادب العربى يكفى لتكوين الاديب •

زكى مبارك والنصوف

كتب (زكى مبارك) عن التصوف مرتين : المرة الأولى عام ١٩٢٤ عندما أصدر رسالته « الأخلاق عند الغزالي » والمرة الثانية عندما أصدر رسالته (التصوف الاسلامى) ١٩٣٧ - أى بعد ثلاثة عشر عاما . وفى المرة الثانية تغير رأى زكى مبارك عما كان من قبل - ولا شك أن هذه شجاعة أدبية منه . فقد هاجم مبارك الامام الغزالي فى رسالته الأولى . ولكنه عاد فاعتذر اليه فى رسالته الثانية ، كما نوهنا عن ذلك من قبل . ولكن لزكى مبارك قصة مع الصوفية تسبق ذلك بأمد طويل ، وترجع الى عام ١٩١٢ ، وعندما كان طالبا فى الأزهر . ولعل هذه الصلة التى بدأها فى ذلك الوقت هى مصدر حملته على التصوف ، عندما جاء الوقت الذى يختار فيه الغزالي ، ليجمعه موضوع بحثه الذى تقدم به للحصول على اجازة الدكتوراه . وقد ذكرنا من قبل أنه قال : « فى ١٩١٢ وأنا طالب فى الأزهر اشتدت رغبتى فى صحبة الصوفية وألح بى الشوق فأخذت أنتقل من ناد الى ناد حتى تعرفت الى رجل فاضل من أساتذة الأزهر الشريف كان يومئذ من كبار الصوفية . فأخذت عنه العهد . وبدأت أقوم بالأدوار على الطريقة الشاذلية . وكان فى صوتى من المرونة ما يساعد على القاء الأناشيد . فكنت من المتقدمين فى الانشاد وفى ١٩١٥ رآنى ذلك الشيخ صالحا للأستاذية فى الطريق . فأضاف اسمى الى قائمة الخلفاء . وكان لى فى ستريس وغير ستريس مريدون وأتباع . وأذكر أننى كنت أحسبنى يومئذ من الموفقين .

وفى ١٩١٨ قام بينى وبين الشيخ الطماوى نزاع . فقد كان يرانى قليل الرعاية للتقاليد الصوفية . وتأملت فرأيت السبب تافهــــــــــــــــا كل التفاهة ، فقد غاظه أن أتكلم فى حضرته . . وقد وضعت رجلا على رجل وهى جلسة تدل فيما يعنى على تعاضم وكبرياء . وحاسبت نفسى . فرأيت أنى لم أفعل ذلك عن عمد . ثم خطر بالبال أن الصوفية ايمان بعلام الغيوب فلو كان ذلك الرجل من المهملين لما آخذونى على هفوة شكلية لم يكن لى

فى وقوعها قصد ، ولم تسبقها نية سوء ، وانتهى الحديث بالقطيعه ومرت أيام عانيت فيها من الضجر والغيظ ما عانيت وحاولت أن أصلح ما بينى وبين الشيخ ، ولكنى لم أفلح فى جذب نفسى اليه ، فقد اقتنعت بأن بعض الصوفية ارباب ظواهر ، وان ادعوا أنهم ارباب قلوب • وفى خلال تلك الأزمة ألفت كتاب (الأخلاق عند الغزالي) الذى نلت به اجازة الدكتوراه من الجامعة المصرية فى ١٩٢٤ وهو كتاب تجنيت فيه على التصوف (لم أر كاتباً حتى الآن رجع عن رأى خطأ قديم غير زكى مبارك) • وما كاد ينشر هذا الكتاب حتى ضعفت حماسى لما أقمته عليه من أساس العقل ، لأن الدنيا كانت بدأت ترينى أنى تحاملت على الغزالي وتمجلت الحكم على آرائه فى سياسة النفس : فقد كان يدعو الى النفرة من الناس ، وكنت أرى ذلك من الجبن فى الحياة الاجتماعية ، ثم تكشف بعض الحقائق ، فرأيت المروءة تقضى فى أحيان كثيرة بالهرب من الناس •

وكذلك عدت أستروح بذكرى التصوف وأضمرنه الشوق والحنين.

ولكن هل مر هجوم زكى مبارك على الغزالي بدون ضجة وبدون أن يثير معارك ؟ أبداً : لقد فتح كتابه الباب أمام الأزهرين لهاجموه ويتهموه فى دينه • وكما ذكرنا من قبل ، ان المرحوم : محمد جاد المولى أحد المتحسين له فى رسالة الأخلاق عند الغزالي • قال : « ما أطلعت على رسالته رأيت فيها ما صدق ظنى فيه : رأيت يهجم على حجة الاسلام الغزالي ويقسو عليه ، فلم أجد بداً من أن أتشدد فى حسابه لأعجم عوده وأسبر غوره • فلما أخذت فى محاسبته على ما صنع فى نقد الغزالي ، تكشف جوانب أثار الشيوخ اللبان ، فتدخل ، وتدخل معه جماعة من جلة العلماء ، وكان الجمهور يموج من الغيظ ، ولولا حكمة رئيس اللجنة يومئذ ، وهو الدكتور منصور فهمى ، لاضطرب النظام ، وانفرط عقد الامتحان

وكنت أظن أن المشكلة انتهت عند هذا الحد • ولكنى تبين مع الأسف أن هجومى على الدكتور مبارك كانت له عواقب ، فقد حمل عليه جماعة من العلماء فى جريدة المقطم وجريدة الأخبار ، يحمل لواءهم

الشيخ يوسف الدجوى ، والشيخ أحمد مكى وعند ذلك عرفت أن الدكتور زكى مبارك قد قضى حياته فى المصاولة والمجادلة ، لما استقر فى النفوس من أنه باحث متعسف مشاغب * ولكن أحمد جاد المولى الذى امتحن (زكى مبارك) سنة ١٩٢٤ فى رسالة الدكتوراه « الأخلاق عند الغزالى » هو الذى امتحنه سنة ١٩٣٧ - وبعد ١٣ عاما ، فى رسالة الدكتوراه (التصوف الإسلامى) فهل تغير زكى مبارك بعد هذه السنين ؟ نعم :

يقول « رأيت طالب الدكتوراه فى سنة ١٩٢٤ غير طالب الدكتوراه فى سنة ١٩٣٧ : كان الطالب الأول يجادل لجنة الامتحان بلا تهيب ولا تلطف - ولا أقول بلا تأدب أما الطالب الجديد فكان آية من آيات الأدب والذوق * وكان مثالا من أمثلة التواضع والاستحياء * يسمع السؤال بهدوء * ويجب عنه بذكاء مقرون بالتحفظ والاحتراس * فماذا صنعت الثلاثة عشر عاما بالدكتور زكى مبارك ؟ لقد تغير تغيرا تاما * وانقطعت الصلة بين حاضره وماضيه أشد الانقطاع * وكذلك يصنع العلم بأبنائه الاوفياء * فهو يجعلهم متواضعين مهذبين لا يعرفون العنف ولا الفطرسه ولا الكبرياء »

ويرى جاد المولى « أن زكى مبارك » نموذج فريد من العلماء * فهو حين يصول فى الدقائق الفقهية كما صنع حين حقق نسب كتاب « الأم » فضيفه الى الفقهاء * وحينما يجادل فى العضلات النحوية فضيفه الى النحويين * وينظر الى كتاب « الشر الفنى » فتحسبه رجلا يحسن غير النقد (الأدبى) * وتقرأ رسائله الغرامية فيخيل اليك أنه شاب لا يعرف غير الاصطباح والاعتناق ، يهوى الغيد الرعايب * وتنظر الى رسالة اللغة والدين والتقاليد فتعده من كبار المصلحين * وتنظر مقالاته فى التربية والتعليم فتراه من أقطاب المربين * وتقرأ هجومه على الكتاب والشعراء والمؤلفين فتخاله من الهدامين * ونسمع أخباره فى الاندية والمجالس وأحاديث رحلاته وانتقاله من العمامة الى الطربوش ثم الى القبة والسدارة فتعتقد أنه من المولعين بدراسة أخلاق الأمم والشعوب * »

أشار زكى مبارك الى أن كتابه (الأخلاق عن الغزالى) كانت له آثار

بعيدة المدى فقد رفض جماعة من علماء العراق مصافحته بحجة أنه أذى
الغزالي .

وأشار زكي مبارك في بحث له عنه نشرته الرسالة (٣ من نوفمبر
١٩٤١) بأنه ألفه في أودت كان فيها ثائر القلب وانعقل على فهم القدماء
للأخلاق (وهي ثورة لم أنج من شرها الى اليوم . . . وقد أسايرها
وتسايرني الى آخر أيامي . وكيف يهدأ من يروعه أن يرى رجال الدين
يعرفون خريطة الحياة في الآخرة ويجهلون خريطة الحياة الدنيوية .
ان كتاب الاخلاق عند الغزالي لم يكن الا دعوة صريحة الى التشكيك
في أصول الاخلاق الموروثة عند القدماء . »

ويرى زكي مبارك في كتابه أن الفضائل سلبية وإيجابية . ويقرر
« ان الغزالي وجه اهتمامه الى النضائل السلبية ولم يعن بشرح الفضائل
الإيجابية مثل الشجاعة والاقدام والمرضى وما الى ذلك ، فانه لا يكفي أن
يسلم الرجل من الآفات النفسية بل يجب أن يزود بكل مقومات الحياة
وخير للمرء أن يوصم برذائل القوة من أن يتحلّى بفضائل الضعف . فان
الضعف شر كله . »

وقال « ان أسلوب الكتاب يغلب عليه الحذر والتهيب . » وقال : -
ان الغزالي أسره على نحو ما يصنع بمن يواجهون نوره الوهاج ، غير أنه
عمد الى كسر باب الأسر ليلقى الغزالي لقاء الند للند (ان كان للغزالي
أنداد) »

وقد اهتم برسالة الأخلاق عند الغزالي الدكتور «سنوك هو جرتيه»
حيث كتب عنها باللغة الهولندية بحثاً نوه فيه عن المؤلف . رجع مبارك عن
آرائه في الغزالي وأعلن اعتذاره في كتاب التصوف الاسلامي في مقال
كتبه في الرسالة (٢٩ من يوليو ١٩٤٠) عما سلف من نقد له قال تحت
عنوان : « اليك أعتذر أيها الغزالي » .

« في سنة ١٩٢٢ : كنت أقضي أكثر الوقت في تحرير كتاب (الأخلاق
عند الغزالي) وكان ذلك في أعقاب أعوام شداد واجهت بها نار الثورة

المصريه وأكثرت يدى بلهب الجدل والصيال حول المطالب الوضئيه • فأنبر ذلك فى عقلى وتفكيرى الى أبعد الحدود • وحملنى ذلك التأثير على السخرية من اعتزال الغزالى للمجتمع السياسى وابتعاده عن الضجيج الذى كانت تثيره الحروب الصليبية فى ذلك الحين •

ثم مرت أعوام راضنى فيها الدهر بعد الجموح • فعرفت أن الغزالى لم يكن من الجبناء وأنه كان من الحكماء •

وهل أخطأ ابن خلدون حين نهى العلماء عن الاشتغال بالسياسة ؟

وهل أخطأ محمد عبده حين استعاذ بالله من مادة ساس يسوس ؟
دلونى على رجل واحد غمس يده فى السياسة ثم سلم من الأقويل والأراجيف ••

• كما سجل زكى مبارك أن الدكتور (طه حسين) اعتذر عن رئاسة اللجنة التى أدى أمامها امتحان الدكتوراه فى الجامعة المصرية عن (التصوف الاسلامى) بحجة انه رجل « غير مصقول » على حد تعبير زكى مبارك وأنه « قد يخرج على قواعد الذوق فى المناقشة العلنية فيخرج عميد كلية الآداب أمام الجمهور •

• والسؤال بعد ذلك : هل حق ان « زكى مبارك » قد تأثر بدراساته عن الصوفية ؟ • لقد اعتبر أن التصوف لا يقتصر فقط على محض العبادة الدينية والتوبة الى الله ، والتجرد من شهوات الدنيا • وانما هو كل افراغ للقوى الروحية والعقلية فى فكرة سامية • وقد اعتبر هذا من زكى مبارك - فى تقدير الباحثين جرأة له ومخالفة للعقيدة السائدة عن مذهب التصوف بأنه وجدان دينى • ولا شك أن « زكى مبارك » قرأ فى سبيل اعداد بحثه الخطير عن التصوف الذى بلغ أكثر من تسعمائة صفحة من القطع الكبير - عددا ضخما من المؤلفات ، ودرس مذاهب دعاة الحب الالهى ، ووحدة الوجود ، وابن عطاء الجيلانى •

وهو يرى أن الصوفية ابتداء حياتهم بالحب (الجنىسى) ثم ترقوا الى الحب الروحى • وعنده أن الانتقال من حب الجمال الى التصوف

معقول • ولا سيما في حالة الحرمان من محبوب • وعندى أن • زكى مبارك • بعد أن توغل في دراسة التصوف بدأ يحلّ أدبه بعبارات منها اتجاه واضح الى الله ... فهو يقول مثلاً

« ما كنت أملك غير ايساني بالله • وهو السر في عقيدة التصوف التي أقمت عليها بناء حياتي • »

ويقول كل شيء يسبح بحمدك يا واجب الوجود • وأمر الخلائق كله اليك • أنا عشقتك بالروح والقلب والوجدان • »

ولكنه بلغ في اتجاهه هذا الى حد بعيد فقد بدا أنه تحرر من كل القيود في حديثه الى الله سبحانه وتعالى • كقوله مثلاً •

« سأحاسب ربي قبل أن يحاسبني » • أو يقول « ماذا أعددت لي من تكريم وقد سبحت بك فوق » أفذن الجمال ؟ • ويقول « الدنيا لوحة فينة صاغها بديع السموات والأرض بما فيها من حسن • فهو صنع (فنّان) وما فيها من قبح فهو صنع (فنّان) • فأنا أدرس المحاسن والمساوى بذوق واحد • وقد اتفلسف فازعم ان خلق الوجه الدميم أصعب من خلق الوجه الوسيم • وعلى أهل الدمامة أن يشكروا خالقهم • فقد سواهم بعناية ولعل مرجع هذا الانحراف الذي أصاب « زكى مبارك » هو ايمانه بنظرية وحدة الوجود • وهي نظرية أقل ما يقال فيها انها تنفي نظرية الجزاء التي هي جزء من شرائع الاديان • وهي بذلك تيسح للانسان كل تصرف دون عقوبة •

كما يظهر هنا تناقض زكى مبارك • ففي الوقت الذي يكتب فيه عن التصوف الاسلامي ويقول انه يقيم قاعدة حياته على أساسه تراه يؤمن بمذهب الكشف والتعزية والصراحة في الكتابة عن النفس والفرائز •

ولعل نظرية وحدة الوجود أيضا هي التي دفعته في هذا الانجساح فقوضت في نظره عقيدة المسؤولية • وقد كان لهذه النظرية آثار مريرة فقد هوجم بها في أيامه الأخيرة ... ولكن زكى مبارك ما يكاد يذهب الى بغداد ويقيم فيها عامه (١٩٣٨) حتى يكتب في يومياته (ليلي المريضة) ... يقول :

• لقد جعلت الحديث عن الحب شريعة من الشرائع • هل أحسنت
هل أسأت ؟ لا أعرف بالضبط • ولكن قلبي يحدثني بأنني كنت من
المسرفين ، أتوهم حيناً أنني أخدم لغتي بهذه الأحاديث ، وأعتقد أحياناً
أنني أهدم الأخلاق بهذه الأحاديث •

أحب أن أعرف نفسي ، فهل أستطيع أن أعرف نفسي : هيهات
هيهات لو كنت رجلاً فاسقاً لعرفت الحدود وانتهيت •

ولكنني رجل عفيف • وهنا تظهر دقة الاشكال • ومن الذي
يصدق أنني رجل عفيف ، وقد ملأت الدنيا بالحديث عن طغيان الشهوات •

فن جديد في الكتابة (أسيت بن عرابنوس)

بدأ زكي مبارك حياته شاعراً • ثم تفتحت آفاقه في الأزهر • فاتصل
بالجامعة المصرية واتجه الى التعمق في دراسة الأدب العربي وأعد رسالته
عن (النثر الفني) وأوغل في هذه الدراسات • ثم التفت الى الأدب
الصوفي • فألف عنه رسالته الضخمة المعروفة •

هنالك بدأ يشعر بأنه في حاجة الى عمل جديد مثير • فما هذا
العمل ؟ • اعتقد أنه اتجه الى أكثر من عمل • اتجه الى الكتابة عن الحب
والوجدانيات على أساس أنها دراسة للنفس الانسانية كما فعل في (ليلي
المريضة) • واتجه الى كتابة الاحاديث التي تدور في الأسفار ، يضمونها
آراءه وآراء غيره من الكتاب - كما فعل في كتابه (الأسماء والأحاديث)
ثم اتجه الى خلق شخصيات خيالية يصور بها نماذج من الناس ،
كشخصية أبجد أفندي التي كان يرسم بها صورة غريبة لبعض الموظفين •
وربما كان يقصد بها الى رسم صورة انسان بالذات •

غير أن من أبرز الأعمال التي ابتدعها هو كتابته عن ادم وحواء • وقد
نشر بعض هذه الفصول في الرسالة ، بدأها في يناير ١٩٤٢ • بمقالات

توالت وتعددت أسبوعيا حتى مايو ١٩٤٢ (وقد بلغت أكثر من ١٦ مقالا) وقد جعل موضوعاتها (١) محاكمة آدم وحواء فى جلسة سرية فى ساحة العدل ، حديث السدرة ، بين الورق والدوح ، تحت شجرة التين ، قبل أن تثور العواصف فوق أنبج الكوثر • اجتماع الملائكة فى مسجد الفردوس • وهكذا ••• وهو نوع من الفنون التى حرص زكى مبارك على أن يغرب فيها ويتناول مسائل مثيرة وشائكة •

وقد بدأ هذا البحث تحت عنوان « بين الورق والدوح : رسالة مهداة الى مسيو دى كومينين » : استهلها بعبارات تحدث فيها عن شهر عدوان الخريف على آثار الربيع •• أول مرة فى باريس • وكيف كانت قدماء تخبان فى أوراق الاشجار وهو يخترق حديقة لكسمبور • ويصور كيف انتشى حين رأى ذلك المنظر الجميل • وقد اعانة على فهم جوانب من حيوية الأدب الفرنسى ، الذى يحوى آلاف من صور العدوان البغيض : عدوان الخريف على آثار الربيع ، بلا تهيب ولا استحياء •

ثم يروى كيف أنه جلس فى يوم عاصف تحت « الدوح » وهو ينظر بحزن الى تساقط الورق : « فوعيت من جواره أحاديث لن أنساها ما حييت • وكيف أنساها وقد زلزلت قلبى وأطلعتنى على بعض ما كنت أجهل من سرائر الأدواح والأوراق » •

ثم أجرى الحوار بين الورق والدوح عن الطوفان والسفينة •• وفى الختام قال : قللة وحده هو الذى يعلم قصة الورق والدوح • وهو الذى يعلم ما أعانى من البلبلة بين القاهرة وباريس وبغداد • وهو الذى يعلم كيف أنتم من التصريح الى التلميح لينجو الورق من الانقراض (٢) ثم لم يلبث بعد قليل أن عاود الموضوع بصورة أخرى • فروى

٣٠ من مارس ١٩٤٢

١٣ من ابريل ١٩٤٢

٤ من مايو ١٩٤٢

٢٣ من فبراير ١٩٤٥

(١) الرسالة

١٦ من مارس ١٩٤٢

٢٣ من مارس ١٩٤٢

(٢) الرسالة - ١٩ من يناير ١٩٤٢

قصة مخترعة خيالية عن كتاب أهدها اليه المرحوم أحمد زكي (باشا)
السكرتير العام لمجلس الوزراء سابقا وشيخ الغروية ، بعد ان وقع الخلاف
بينهما ، ثم انتهى الى الصلح . ويقول فيما يقول . ان « زكي باشا » طرب
حين رآه يقرأ الخط الكوفى بلا غشاء ويرد على ذلك بقوله كيف
تكون حاله لو نظر فرآنى أقرأ الخط السنسكرىتى . وهذه هى الصورة
التي كتبها تحت عنوان بين آدم وحواء (١) .

كثر الكلام فى هذه الايام عما كان بين آدم وحواء لعهد الجنة
وعهد الأرض . وقد تورط صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم . فاجم خياله
الروائى فى شئون فصل فيها التاريخ منذ أجيال طوال . ولم يبق موجب
لذلك التورط بعد حكم التاريخ . فهذا الصديق يعرف أن آدم من الأنبياء
والتزويد عليه لا يجوز ، وان احتال فزعم انه يكتب باسم الفن لا باسم
التاريخ .

وهل يستطيع بفنه الروائى ان يخلق من الصور مثل ما سجل
المؤرخ « شيث ابن عربانوس » طيب الله ثراه ؟
ولكن ما حديث ذلك المؤرخ المجهول ؟

لم أكن أعرف عنه شيئا قبل سنة ١٩٣٣ . وانما هدانى اليه أستاذنا
المرحوم أحمد زكي باشا بعد ان انتهى ما كان بينى وبينه من خصومة وصيال
فاذا سألتكم كيف ابتدأت تلك الخصومة وكيف انتهت فأنا أدونها فى
سطور ، ثم أمضى الى ترجمة شبت بن عربانوس بايجاز تمهيدا لشرح
آرائه فى آدم وحواء باطناب .

.. كانت وزارة المعارف قررت اقامة حفلة تأبين للشاعر أحمد
شوقى بكلية التجارة . فهاأنى أن أسمع خطيبا تنحج بعنف ، مع أنى
لم أكن اجتزت عتبة الكلية . فسألت نفسى كيف يصل صوت التنحج على
الرغم من تلك الابعاد الطوال . وبعد لحظة فهمت أن الحفلة أقيم لها
(ميكروفون) وأقيم لذلك (الميكروفون) مسامع فى جميع الأركان . .

(١) بين آدم وحواء : الرسالة ٢٣ من فبراير ١٩٤٢

ونظرت فإذا الخصيب احمد ذكى باشا • فكيف عـب عنه وهو عالم علامة
ان الميكروفن سينقل الى الجيران وجيران الجيران نحتحه الغوراء ؟ اما
كان فى مقدورة ان يدين وجهه او يدير الميكروفون قبل ان يقترب بلك
الصوت •

اضحكنى ان يقع شيخ العروبة فيما وقع فيه • فاحدت انرصده
نه غلطة ادبية او تاريخيه لاهجم عليه فى جريدة ابلاغ ثم اتفق لحسن
الحظ أن دل تلازم غير صحيح ، وهو يتكلم عن روح الرسول فى نهج
البردة • وكنت يومئذ مشغولا بتأليف كتاب « امداح النبوية » فوجدت
عندى من المحصول الأدبى والتاريخى ما يكفى لانجحه بلا عناء •

وما كادت تظهر كلمتى فيه حتى اندفع الرجل نصواتى على صفحات
البلاغ بأسلوب ساحق ماحق • وكذا رحمه الله آية فى الكر والفر • وكان
لا يهجم على باحث الا تركه كالرفق بفضل اطلاعه الشامل وذكائه الوهاج

وكنت حوادث فلسطين وصلت الى آلام وجراح • فأرسل زكى
باشا الى الحاج امين الحسينى برفقة مطونة كلفته احد عشر جنيها • وكان
ينتظر أن يصل الى جواب رفيق • ولكنه لم يتلق أى رد من الحاج أمين
الحسينى • فكتب اليه يسأل عن سر ذلك السكون فكان الجواب أن البرقية
وصلت ، ولكنها لم تكن بامضاء زكى (باشا) وانما بامضاء زكى مبارك •

وامتشق زكى (باشا) قلمه وانشأ مقالا أخذ أربعة أشهر من جريدة
الاهرام • وكان فى مقاله أن عمل التلغراف حرف الامضاء • فان كان فى
مصر ، فالى الليمان وان كان فى فلسطين ، فالى البحر الميت • وأعلن زكى
(باشا) أن التحريف مقصود • وكانت حجته أن « زكى باشا » قد تحرف
الى زكى الابراشى ، بسبب الشين ، ولكنها لا تحرف الى زكى مبارك •

وامتشقت قلمي فكتبت ردا وجيزا ، نشرته الأهرام فى أول نهر
من الصحيفة الأولى • وكان الرد يتلخص فى أن « زكى باشا » هو نفسه
الذى أمضى باسم زكى مبارك وحجتي أن (الباشا) مشغول بما نشر على
صفحات البلاغ • فأنا ملء قلبه • ومن السهل أن ينسى اسمه ويذكر اسمى •
ورأى زكى (باشا) أن التعليق مقبول • فذهب الى ادارة التلغراف وطلب

أصل البرقية ثم ابتسم حين شاهد أنها باسم (زكى مبارك) ، وبخط
(الباشا) الظريف • فلم يكن بد من ان يدرك زكى باشا أن الأقدار
(أرادت) أن تطوقه بالخطأ • ليكف عن أذاه فاتصل بى تليفونيا ليدعونى
الى العشاء وامضاء عقد الصلح فأجبت بالقبول ••

وقال لى شيخ العروبة : الجائزة العظمى لمن كان فى مثل أدبك أن
تهدى اليك النسخة الوحيدة من كتاب (شيث بن عربانوس) ومضى
(الباشا) لاحضار الهدية • ثم عاد ومعه كتاب فى أكثر من خمسمائة صفحة
بالخط الكوفى • وهو مجلد على طراز المصاحف المحفوظة بدور العاديات
ثم يقول : « أقبلت على الكتاب بلهفة وشوق » ثم لحظت أن منزلى عظمت فى
قلب زكى (باشا) عندما رآنى أقرأ الخط الكوفى بلا عناء فكيف تكون
حاله لو نظر فرآنى أقرأ الخط السنسكرىتى » •

ثم يقول : « عرضته على دار الكتب وعلى مكتبة وزارة المعارف وعلى
مكتبة الجامعة المصرية فلم أجد أحدا يعترف بقيمته التاريخية ، وان كن مكتوبا
بالخط الكوفى • وهل كنت أجهل أن الطعن فى صحته من الممكنات ؟
انما كان همى أن أنتفع بشئ • وأن أتمكن الجمهور من الاطلاع على
مافيه من مقاصد أو أغراض • ولكن الامل فى الانتفاع بشئ أمسى خيالا
فى خيال » ••

ثم يقول انه قد عزم على تلخيصه ولكن قبل أن يبدأ فى ذلك يسجل
أنه غير مطمئن الى أنه ألف فى العصر الذى تلا الطوفان • ويضيف الى
ذلك أن المصادر التى تحت يده لم تتحدث عن شيث بن عربانوس • ولم
نسمع أن اسمه ورد فى كتب المستشرقين فأين وجد زكى (باشا) ذلك
الكتاب ؟ ••

ويقول انه كان فى النية أن يوجه اليه هذا السؤال ، لولا أن المثبة
عاجلت المرحوم (أحمد زكى باشا) لتطول الحيرة فى مصدر ذلك السيفر
الغريب ، ومعنى هذا أن (زكى مبارك) استغل قصة كتاب خيالى مكتوب

باللغة الكوفية ليحقق غرضه معينا (١) واعتقد ان الفصّة مخترعة من اولها الى آخرها • وانه اراك ان يرسم صورة آدم وحواء • ولكنه خشي أن يتهم فيها بالاغراق او المبالغة او الانحراف فنسبها الى شيث بن عربانوس وروى هذه القصة الطويلة عن خلفه مع زكى (باشا) وصلحه ليبرر نشر تلك الفصول •

ولعل هذا الفصل يعطى صورة لجانب من جوانب شخصية مبارك تضاف الى الجوانب الاخرى لترسم فى النهاية صورته الكاملة •

خصومات مبارك ومعارك الأدب

قالوا ان « زكى مبارك » عنيف النقد قوى المعارضة • وولسوا انه مشاغب بطبعه وانه غير مصقول • ودل طه حسين عنه : • حاد الشبب عنيفه • وقالوا أنه ناقد مخيف حتى ليكد قارئه يلمح الشراسة فى هجومه على خصومه ويشفق بهم من هول وطأته •

ولا شك أن « زكى مبارك » ناقد عنيد لا يهاجم كاتباً الا بعد أن يدرس مقاتله • ولكنى لا أعتقد فى الجملة أن قوة زكى مبارك هى فى قوة منطقته وسلاسة معارضته وانما هى فى ذلك العنف الذى يصبه كالحمم على أساس عاطفى بحث •

ولقد تثير هذه المعارك ونهز وتفعل فعل القنابل : تحدث الدوى وتثير الدخان وكلها ليست أقوى فى نظرى من المساجلات العميقة التى يمكن أن تقوم على البحث الهادى والمنطق العميق والمعارضة الذهنية •

ولذلك فإن أكبر مساجلات زكى مبارك كانت من جانب واحد • فقد تماما فيها الطرف الآخر ووقف منه موقف الصمت • ولقد كنت

(١) مما كتبه زكى مبارك هذه العبارة : كان الراى ان اقصر جهودى على اللغات الميتة وهى لغات يدعيها من شاء كيف شاء بلا رقيب ولا حسيب •

مسابقاته مع طه حسين ومع أحمد أمين هي أضخم مسابقاته وقد اعتبر صمت معارضيه عنه نصرا له . غير أن الدكتور « زكي مبارك » بدأ يفقد خاصيته هذه بعد قليل . فقد انهزم في معرته النقد الأدبي مع السباعي بيومي عام ١٩٤١ . أما مسابقات عام ١٩٤٤ . وما بعدها (تلك التي أثارها محمد الغمراوي ودريزي خشبه « حول النثر الفني والتصوف الاسلامي » فان « زكي مبارك » لم يدخلها . ولم يجد في نفسه الجرأة لخلع ثيابه . ولبس ثياب مصارعة الثيران التي كان يرتديها دائما في الفترة الوسطى من حياته (١٩٣١ - ١٩٤٠) .

ولقد أحس بعد عودته من العراق بأنه لم يعد في قوته أو كفايته الأولى . فأخذ يردد قصة بطولاته في النقد :

« متى تعود أيامي فأناضل كما كنت أناضل في الجرائد والمجلات؟
متى يكون لي خصوم كالذين كانوا في الأيام الخاليات ؟

متى يكون لي خصوم أصولهم وأنصر عليهم من أمثال طه حسين ، وإبراهيم المازني ، وعلى الجرم ، ومصطفى الرافعي ، وأحمد زكي (بأسا) ومحمد لطفي جمعة ، وعبد الله عفيفي ، وعبد العزيز البشري ، ومحمد فريد وجدي ، ومحمد عبد المطلب ، ومحمد خالد ، وأحمد أمين ، ومن اليهم من أقطاب الرجال ؟

أفي الحق أنني صرت كالبعبع الذي يخوفون به الأطفال .

لقد أصبحت أعاني الوحشة والغربة في وطني بسبب التهمة الشيعة :
تهمة الشره الى أكل لحوم الناقدين .

•• يعز علي ، أن تغلق في وجهي ميادين كثيرة بسبب ماشاع وذاع من غرامي بالمشاغبات . يعز علي أن تنسوا أن مشاغباتي انقطعت عن الحياة الأدبية بضع سنين ، •

ويروى كيف أنه خوفا من مشاغباته اعتذر الدكتور طه حسين عن رئاسة اللجنة التي أدى أمامها امتحان الدكتوراه في الجامعة المصرية

(بحجة أنى رجل غير معقول) وأنتى قد أخرج على قواعد الذوق فى
المنافسة العلنية فأخرج عميد كلية الآداب أمام الجمهور » .

بدأ زكى مبارك معاركه بعد منافسة رسائلته (الأخلاق عن الغزالي)
عام ١٩٢٤ ولكن الفترة التى تلت ذلك حتى سافر الى باريس لم تكن
الافرة استعداد لم ينشر خلالها الا بضع مقالات متفرقة فى البلاغ
الأسبوعى ..

أما مقالاته فى باريس خلال فترة اقامته فلم تكن فى الأغلب الا
فصولا من كتابه النشر الفنى ، وبعض خواطر ومشاعر وصور عن الحياة
فى باريس . ولكنه ماكد يعود من باريس حتى كان قد أعد حملة ضخمة
تعتبر استعدادا لمعركة طويلة من النقد الأدبى ، امتدت سنوات وسنوات ..

فكتب مقالا فى البلاغ فى ٢٤ من يولييه ١٩٣١ :

« قلمى بين الصدا والصقال »

« ان قول الحق لم يدع لى صديق » أكرم بن صيفى .

« الغرض الذى أرمى اليه هو تكوين جيل جديد يعتز بالآداب
العربية كما يعتز الفرنسيون والانجليز والألمان بالآداب الفرنسية
والانجليزية والألمانية . فقد جنت تلك الدراسات الضعيفة غير المأمونة
أشنع جناية على اللغة العربية وانصرف شبابنا الى اللغات الاجنبية
يستوحونها فى كل ما يحس القلب والعقل والروح . وسرى شبابنا بعد
الدرس أن لنا أدبا يشرفنا بين العالمين . وأن لنا أسلافا جديرين بالاعزاز
والتمجيد »

« سأروع بعض الآمنين من رجال الأزهر والجامعة المصرية ووزارة
المعارف . ففى تلك الديار ناس يأكلون العيش باسم العلم والأدب ثم
لا يقدمون ولا يؤخرون فى دنيا ولا دين »

لقد قامت ثورتان فى مصر لكتابين اثنين : أولهما « كتاب الاسلام
وأصول الحكم » للاستاذ على عبد الرازق . وثانيهما « كتاب الشمر

الجاهلي ، للدكتور طه حسين • وقد بين بعد هذا الهياج واللجاج ان الكتاب الاول اوجد ما اوجد من الثورة لان مؤلفه كان يعارض بعض الهيئات • وان الكتاب الثانى اثار ما اثار من الشر لان مؤلفه أساء التعبير ، وهو يتحدث عن التوراة والقران • لقد صدر كتاب الاسلام وأصول الحكم منذ سبعة اعوام فهل عقب عليه مؤلفه بشيء جديد ؟ كلا •

وكتاب الشعر الجاهلي صدر منذ ستة أعوام فهل شفعه المؤلف بكتاب طريف ؟ كلا • ان الاستاذ « على عبد الرازق » قوة فعالة ولكنه انهزم للصدمة الاولى • فلاذ بالسكوت • والدكتور طه حسين قوة من قوى الذكاء والانتاج ، ولكنه تحول الى رجل حذر ، تقوم الدنيا وتقع ، فلا يتحرك ولا يثور • •

ويعلق زكى مبارك على أن النقد قد حملته متاعب كثيرة في رزقه وحياته فيقول : « الناقد الصريح فى مصر يتعرض رزقه ومعاشه لضروب من الزعزعة والاضطهاد وقد يتعرض مسلكه فى الحياة الى سفاهة القيل والقال • وفى مصر عبارة مألوفة حين تظهر مقالة نقدية : وهى « ما الذى بين فلان وفلان ؟ » ومعنى ذلك أن الناقد لا يتعرض لمؤلف الا كان فى صورة غرض خاص •

أضخم معركة خاضها زكى مبارك

المعركة مع طه حسين

تعد معركة زكى مبارك مع طه حسين أضخم معركة خاضها مبارك فى حياته الأدبية • فهى معركة ممتدة تبدأ جذورها منذ قصد مبارك الى باريس وحمل على آراء طه حسين فى رسالته (الشر الفنى) • فلما عاد أنكر طه حسين كتاب « الشر الفنى » ولما سئل عنه : وهو المجلد الضخم الذى يقع فى أكثر من ٩٠٠ صفحة من القطع الكبير والذى أنفق زكى مبارك فى اعداده سنوات •• قال طه حسين : « كتاب من الكتب ألفه

كتب من الكتاب ، . هنالك انصح باب النقد على مصراعيه . وقد مضى
فكي مبارك يسجل طه حسين ويصوله . دون ان يدخل طه حسين بالسجل
وقد استمرت المعركة ، سنوات ، وسنوات . وقد استطعت ان اجمع
فصولا منها ، تكاد ترسم صورة كاملة لها . وهي تبدأ من ١١ من نوفمبر
١٩٣٢ الى أول ديسمبر ١٩٤١ - وهي فترة لاتعد عن عشر سنوات . في
خلال ذلك حدثت مضاعفات ، فقد عاد مبارك الى منصبه في الجامعة
سنة ١٩٣٣ ابان الفترة التي كان طه حسين فيها خارج الجامعة . فلما عاد
طه حسين ١٩٣٤ رفض تجديد عقد مبارك ، فأمر زكي مبارك . وكتب
مقاله : « طه حسين : بين النعي والعقوق » . وول كلمته المعروفة : « لو
جاع أولادى لشويت طه حسين وأطعمتهم لحمه » .

فلما أخرج زكي مبارك من الجامعة اهتز لذلك أقرب الناس صداقة
لطه حسين . وفي مقدمتهم المازني . . هنالك دخلت المعركة في أفسى
صورها . فقد بدأ زكي مبارك مجموعة مقالات في « الصباح » ابتداء من
العدد ٢٣ من أغسطس سنة ١٩٣٥ .

واستمرت تحت عنوان « مثل من جهل طه حسين » (١٣ من سبتمبر
١٩٣٥) « المثال الثاني من جهل طه » . . (٢٠ من سبتمبر ١٩٣٥) « المثال
الثالث » . . (٤ من أكتوبر ١٩٣٥) « المثال الرابع » (١١ من أكتوبر ١٩٣٥)
« المثال الخامس » . . (٢٥ من أكتوبر ١٩٣٥) . . « لو جاع أولادى » . .
(١٧ من يناير ١٩٣٦) .

ولقد حاولت أن أصور المعركة بنزاهه . ولكنى لم أنشر كل مالى
من وثائق وقد سجل طه حسين عن زكي مبارك عبارته المعروفة (الرجل
الذى لا يخطو الى كلمة الا احتال على رأسه عفریت) فكيف استقبل
مبارك هذه العبارة ؟ قال :

« الرجل الذى لا يخطو الى قلمه الا احتال على رأسه عفریت : تلك
كلمتك وأنا عنها راض وبها مختال . فما العفریت الذى يحتل رأسى حين
أخطو الى قلمي ؟ »

أَيكون هو الحق الذي سماه الفرنسيون Génie • إن كان ذلك فانت تشهد لي بالعبقريّة ، والقول ماقل طه حسين • وهل تكون العبقريّة الا من نصيب من يخاصم رجلا مثلك في سبيل الحق ؟ وما المنفعة التي أرجوها من مخاصمتك وأنت رجل يضر وينفع ؟ •

وقد تعددت مناوشات زكي مبارك عن طه حسين ، حتى ليوشك أن يرى الناقد أنه قد شغل نفسه شغلا جما بهذا الكتاب ، الذي كان مثله الأعلى في مستهل حياته ، والذي حرص أن يسبقه بالحصول على عدد أكبر من شهادات الدكتوراه : ومن ذلك عباراته المتعددة : يقول : « زعمت مجلة الحديث الحليّة أن الدكتور طه أكبر أديب • فقلت ان الدكتور طه أشهر أديب وليس أكبر أديب » •

ويقول : سييت الدكتور طه مؤرقا لأنه سيذكر أنه لم يؤلف كتابا في قوة كتاب النثر الفني •

ويذكر طه حسين بصداقته القديمة دائما وفي أكثر من مناسبة :

« وهل تذكر يا دكتور ما وقع في نوفمبر سنة ١٩١٩ ؟ هل تذكر ما وقع يوم غاب سكرتيرك وكنت وحدى الطالب الذي يفهم العبارة الفرنسيّة لكتاب نظام الأتنيين لأرسططسليس ؟ هل تذكر أنك أعلنت سرورك بأن يكون في طلبة الجامعة المصريّة من يفهم أسرار اللغسة الفرنسيّة ؟ » ويستطيل زكي مبارك على طه حسين فيقول انه طلبه بالتليفون ليسأله عن معنى كلمة « زمالك » بمناسبة أن الدكتور طه يقيم بالزمالك فقال : لا أعرف يا دكتور زكي • فقال له مبارك : « ان الزمالك جمع زمك (بضم الزاي) وهي كلمة ألبانية • والأصل فيها أن « محمد علي » أسكن جنوده في تلك البقعة في مواسم الاصطياف • والزمك هي الخيمة في اللغة الألبانية •

« ثم يراوح طه حسين ويناديه في مسألة امارّة الشعر : يقول :

« أشمت ان امارّة الشعر بعد شوقي قد انتقلت الى العراق • أخطأت بلسيدى الدكتور ، ان الشعر لمصر الى آخر الزمان • أنت نفسك حاولت

أن تكفر عن ذنبك فخلعت امرة اشعر على . لاسأذ اعقاد . وهو أديب
فاضل . بدليل أنك اهديت أحد كتبك اليه ، ولكنه شاعر صغير بامقياس
الى العبقريّة المصريّة .

ومن ناحية أخرى يعلن زكي مبارك أن « صه حسين » قد يقع من
وقت الى وقت في خطأ كبير حين يقطع ما بينه وبين أصدقاء لايجود بأمثالهم
الزمان .

وفي الصفحات التالية تكشف المساجلة مع صه حسين عن حقائق
واضحة : هي عنف زكي مبارك وشراسته في النقد . ولكنها تبدو في
تضاعيف الصورة قلباً لا يعرف العدوان . ولكنه يتردد في رد الأذى
بأنف منه .

أول قضية كانت موضع الخلاف بين طه حسين وزكي مبارك ، هي
نزعة تمجيد اليونان . وقد سجل زكي مبارك هذا في بحث قال فيه :

« ساير الدكتور طه الباحثين الاوربيين في القول بأن الثقافة الأوربيه
هي مصدر الثقافة الانسانية . وأن الناس في الشرق والغرب وفي جميع
الأجيال مدينون لثقافة اليونان .

والحق أن للدكتور طه حسين عدداً في امسيرة . فقد قرأ كتباً ترى
هذا الرأي . ولو تريث لعرف أن هذه كتب أجدر من ملك الكتب بالخليص
وهي الكتب التي ترى أن المعارف اليونانية منقولة من المعارف المصريّة . وأن
فلاسفة اليونان لم يكونوا الا تلاميذ لفلاسفة مصر القدماء . »

ثم عاد زكي مبارك الى تناول الموضوع بعمق وتوسع .

« قال طه حسين » : ان الأدب الذي يمثل المركز الأول بين الآداب

القديمة هو الادب اليوناني ثم يجيء الأدب العربي .

ومن المجاملة المخدرة أن يعلن الدكتور طه أن الأدب العربي أقوى

من الأدب الفارسي واللاتيني .

الأدب اليوناني في المكان الاول ، هذا صحيح . ولكن ما رأى الدكتور
طه أن الأدب العربي له المكان الاول أيضا .

الأدب اليوناني له المكان الاول من الناحية العاطفية والتمثيلية فانه في هذا
الباب يجتاز امتيازاً صريحاً لا يقبل الجدل ولا النزاع . والأدب العربي
له المكان الاول من الناحية الدينية . فن البلاغة الدينية باب هام من ابواب
البلاغات في الأدب القديم والحديث . فقد شغل ثلثمائة مليون في العالم
شغلاً موصولاً بأروع أثر في البلاغة الدينية ممثلاً في القرآن . وعندنا
أدب الصوفية . يستطيع باحث أن يزعم أن اليونان كان عندهم هذا
الصفاء في الجوانب الروحية ؟ ..

الأدب العربي يسكت عنه الأوروبيون عامدين لأنه يمثل الحضارة
الاسلامية . وهي حضارة كانت تبغى أوربا هدمها منذ أزمان . ولأنه من
جهة ثانية مصنوع في أكثر موضوعاته بصبغة الجد للرسين ، وأوربا فتنت
بما في الأدب اليوناني من نزع وطيش وخلاعة ومجون . بدليل أن أكبر
شاعر شرقي راج أدبه في أوربا هو « عمر بن الخيام » لأنه شاعر
اللذة والقلق والارتباب .

ويضاف الى هذا أن يقظة أوربا الحديثة اتفق وجودها في أزمان
كانت فيها الأمة العربية منحدره الى مهاوى الضعف والخصول . فلم
تستطع أن تقدم أدبها الى العالم تقديمًا حسنًا يصور ما كان له من روعة وجمال
وقال زكي مبارك : « ان العرب مازالوا آقوياء يخشى شرهم . وذكرياتهم
الأدبية والعلمية والتشريعية مقرونة بالاسلام . وكل أحياء لذكريات العرب
خليق بأنه يثير الزهو والكبرياء في نفوس الأمم الاسلامية وهم يعرفون
ما صنعت تلك الأمم في الأيام الخوالي .

آثار العرب ترجع في صميمها الى التشريع . وهو من المعاني
الجافة التي لا يقبل عليها غير أهل الجد من كبار الباحثين . وليست كذلك
آثار اليونان فان معظمها يرجع في جوهره الى الأدب الصريح الذي يهيج
الاهواء ويثير الشهوات ، حتى يمكن أن يقال إن جميع الشهوات واللذات

الحسنة أخذها الأوروبيون عن اليونان •• ان الغرب يمجّد ذكرىات اليونان
ولا يمجّد ذكرىات العرب •

وقد عاد زكى مبارك الى تناول قضية اليونان عندما عرض لكتاب
فأدة الفكر للدكتور طه فقل : كما ذكرنا من قبل :

« ساير الدكتور طه اباحثين الاوربيين فى القول بان الثقافة الاوربية
هى مصدر الثقافة الانسانية وأن النس فى الشرق والغرب ، وفى جميع
الأجيال مدينون لثقافة اليونان •

والحق أن للدكتور طه عذرا فى هذه المسائرة فقد قرأ كتباً ترى
هذا الرأى • ولو أنه تريت لعرف أن هناك كتباً أجدر من تلك بالتلخيص
وهى الكتب التى ترى أن المعارف اليونانية منقولة من المعارف المصرية وأن
فلاسفة اليونان لم يكونوا الا تلاميذ لفلاسفة مصر القدماء •

وقال زكى مبارك فى مقاله : « ان ايمان الدكتور طه بهذا الرأى
يرجع الى تاريخ قديم • ففى نوفمبر ١٩١٩ قدم عبد الخلق ثروت
(باشا) الدكتور طه الى الجمهور فى فعة المحاضرات بالجامعة المصرية •
فألقي المحاضرة الأولى • وقال فيها :

انه عزم على احياء التراث اليونانى ، لأنه يؤمن ايماناً جازماً بأن مرجع
الفكر فى الشرق والغرب الى القدماء من مفكرى اليونان • •

طه حسين •• ان عقلية مصر عقلية يونانية وان الاسلام لم يغير تلك
العقلية •

زكى مبارك •• ان مصر ظلت ثلاثة عشر قرناً • وهى مؤمنة بالعقيدة
الاسلامية •

أما معركة الشر الفنى ، فانه عندما أصدر مبارك الشر الفنى ،
استقبله طه حسين بفتور بالغ • فقد سجل الشر الفنى عبارة عن طه حسين
مؤداها « ان هذا الرجل تربطنى به ألوف الذكرىات ، ترجع بعضها الى
العهد الذى كنت فيه مدرسا فى الجامعة المصرية القديمة • يوم كان

يصطنع العدل الذى يلبس ثوب الظلم فى امتحان الطلاب • وأرق ما يتصل
بيننا من الذكريات ما وقع فى ربيع سنة ١٩٢٦ ، يوم ظهر كتاب الشعر
الجاهلى ، وثارت الأمة والحكومة والبرلمان • وكان أصدقؤه وزملاؤه بين
خائف يترقب ، وحاسد يتربص • وكنت وحدى صديقه الذى لا يهاب •
وزميله الذى لا يخون • ولكن حماسى للفكرة التى ادافع عنها ، وغرام
الدكتور طه بتسفيهاها فى رسائله وأحاديثه ومحاضراته ، كانا مما حملنى
على مقاومته فى عنف وقوة ، حتى ليحسب القارىء أن بيننا عداوة سقيت
لأجلها القلم قطرات من السم الزعاف ، حين عرضت لدخض أرائه فى
فصول هذا الكتاب • ثم صور زكى مبارك القضية موضع الخلاف ،
فقال : « هناك رأى مثقل ياؤزار ، الخطأ والضلال وهو رأى مسيو مرسيه
ومن شايعه كالدكتور طه حسين • وذلك الرأى يقضى بأن العرب فى
الجاهلية كانوا يعيشون عيشة أولية • والحياة الأولية لا توجب الثرالفنى
لأنه لغة العقل ، وقد تسمح بالشعر لأنه لغة العاطفة والخيال •

وهذا الرأى أعلنه مسيو مرسيه فى المحاضرة التى افتتح بهـ
محاضراته فى مدرسة اللغات الشرقية فى باريس منذ أعوام • ثم أذاعه
مطبوعا فى كراسة خاصة • وقد اختطف الدكتور طه هذا الرأى ، وأذاعه
فى دروسه بالجامعة المصرية ثم أثبتته فى كتاب (المجلد) • •

هذا جملة ما أورده زكى مبارك فى كتابه النشر الفنى عن رأى طه
حسين • فلما صدر الكتاب وتجاهله طه حسين ، بدأ هجوم مبارك عليه
على هذه الصورة •

« الدكتور طه لا يقدر على الانصاف • وهو لا ينصف حين ينصف
الا لحاجة فى النفس • وقد تقطعت بينى وبينه الأسباب منذ اعترمت كشف
ما تورط فيه من الأخطاء • والرجل لا يرضى الا عمن يؤمنون بأن باطله
أشرف من الحق • وأن خطاه أفضل من الصواب •

« أنا ما أسأت اليك بل أحسنت اليك بعض الاحسان ، حين دلت
القراء على أنك لم تتبكر ما تورطت فيه من الأخطاء • وإنما هى أخطاء

جماعية من المستشرقين • فبعتهم بلا روية • فكدن عليهم اثم السنة السيئة وكان عليك اثم التقليد •

• كنت أنتظر أن تفرح بكتاب النشر الفني لأنه كما تعلم جهـد أعوام طوال • ولكن ، خاب الظن وعرفت أنك كسائر الناس تقضب وتحقد • وكنت أرجو أن يكون عندك شيء من تسامح العلماء •

• تعال نحاسب يانسي العهد ، ويا منكر الجميل • لقد مرت أعوام لم يكن يذكر فيها بخير أحد غيري • وهل كن في أصحاب الأقلام من انبرى للدفاع عن طه حسين غير تلميذه وصديقه زكي مبارك؟! • لقد ذكرت بالخير في جميع مؤلفاتي • فهل يضع عندك كل هذا المعروف لاني بددت أوهامك في كتاب « النشر الفني » •

رأى الدكتور صه موفقي يوم أخرجه وزير المعارف من كلية الآداب فقد دافعت عنه في البلاغ دفاعاً ، ما كان ينتظره • ولعله قد دهش منه • وكنت في محضره ومغيبه من المنافحين عنه • لأن المروءة كانت تطالبني بذلك • أفيحجز الدكتور وهو أكبر مني سناً وأرفع صوتاً عن مقابلة المروءة بالمروءة؟! •

• لقد كان يجب أن يكون الضمير العلمي أقوى وأمنع من أن تؤثر فيه الاحقاد اليومية • وكان يجب أن يكون العلماء أرفع من أن يخضعوا للأهواء والشهوات • وكان الدكتور طه أولى الناس وأجدرهم بأن يتخلق بالخلق الجميل • •

ولم يلبث زكي مبارك أن عاد الى العراق ، فهاجم « طه حسين » بعد أن خرج من الجامعة فقال (١) :

أعلن الدكتور طه حسين بعد اخراج الشعر الجاهلي نداء فل فيه : أشهد أنني أومن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر • •

(١) البلاغ : ٢٣ من نوفمبر ١٩٣٤ مقال « طه حسين بين البغي والعقوق » كتاب البدائع ج ٢ ص ١٧٣ •

أنت تؤمن بالله وكتبه يا دكتور طه ، وأنت تكذب التوراة والقرآن
اعتمادا على رأى خاطئ ، سرقة من أحد المبشرين ؟! ••

« أنت لم تترك حزبا الا خدمته • ولا جريدة الا توددت اليها بعد
عديد من الرسائل الطوال •

« ذهبت الى باريس على نفقة الجامعة ، ومضيت أنا متوكلا على الله ••
ولم تكن رسالتك عن ابن خلدون الا نسخا من آراء مسيو كازانوف ••
واتصلت أنا بمسيو مرسيه ففرضت عليه آرائى فرضا •

« وقف مسيو ماستيون يوم أدت امتحان الدكتوراه فقال : اننى حين
أقرأ بحث طه حسين أقول (هذه بضاعتنا ردت إلينا) • وحين أقرأ أبحاث
زكى مبارك أشعر بأنى أواجه شخصية جديدة •

« مضيت فنتهبت آراء المستشرقين • وتوغلت فسرقت حجج المبشرين •
وكان نصيبك ذلك التقرير الذى دمغتك به النيابة العامة • وأنت تعلم أنه ليس
لك رأى واحد وصلت اليه بعد جهد وبحث •••

« كنت لوحة اعلانات لاتذيع الرأى الا لتغيظ الجمهور ، ولتصبع
حديث الناس فى الأندية والمجتمعات •

« انت تعرف انى لم أنل القاب الجامعة « المصرية » بلا جهاد • وانت
أسقطت فى امتحان اللسان مرتين • واشتركت فى امتحان الدكتوراه
الذى أدته أول مرة مع انك لم تكن عضوا فى لجنة الامتحان • وكان
لخصومتك الصورية تأثير فى الدكتوراه - التى حظيت بها للمرة الثالثة •
فلم اصل اليها الا بعد جهاد سبع سنين •

تم أعاد الهجوم على طه حسين فى البلاغ فى (١٥ من أغسطس ١٩٣٥)
• أما الأحقاد التى تملطى فى صدر طه حسين فستقضى عليه شر قضاء •
وتنكل به تنكيلا • ولن تدوم له أيام الطغيان • ولن يبقى له فلان وفلان •
والكرسى الذى يجلس عليه فى الجامعة هو أقل ما انتظره من الجزاء فى
المستقبل القريب • ان أعظم منصب فى الجامعة لاينلنى من المجد ما أنالنى

كتاب الشر الفنى • وستبيد أحجار الجامعة المصرية وتبيد ذكريات ، ثم
يبقى ذلك الكتاب على مر الزمان • والذين يحاربونى لم يضمعوا فى
محاربتى الا لظنهم انى رجل أعزل • لا انحز الى حزب من الاحزاب •
وليس لى فى الحكومة عم ولا خال • ولكن خب ظنهم • فان الحق اعز
وأقوى • ويرون كيف أنزل أولواهم • وكيف املأ قلوبهم بالرعب •
وكيف أريهم عواقب ما يصنعون •

ان النصر سيكون حليف من يصلون النهار بالليل فى تثقيف
عقولهم • أما الثرثرة الفارغة التى يعتصم بها طه حسين فلن يكون لها فى
عالم الجدد البقاء •

ولقد رسم زكى مبارك قصة اخراجه من الجامعة فى حديث طويل :
مؤداه :

« أنى بدأت أناوش الدكتور طه حسين منذ سنين ، حين تبينت أنه
كالطبل الأجوف ، وانه لايعرف من تاريخ الأدب العربى الا قشورا
عديمة الحصول • وكنت كلما هاجمته تذال وضعف وخشى عاقبة
النضال • ثم اتفق انى عينت فى الجامعة المصرية فيدا له ان يشجع ويناوشنى ،
ظنا منه أنى أخف من المناوشات ، احتفاظا بمنصبى فى
الجامعة • ودفعنا لمغبات القتال • أمهله قليلا • وتركته يصول فى مناوشتى
ويجول • وكذلك أملت له حتى جاءت الموقعة الحاسمة ، يوم عين أحمد
نجيب الهاللى ، وزيرا للمعارف • وكان يعرف الصلة التى بينه وبين
تجيب الهاللى • وفى هذا ما يقوى المحالفة بين رجلين لهما خصم لاسند
له بين الأحزاب ولا عم له فى الحكومة ولا خال •

فى تلك الايام أراد طه حسين أن يناوشنى • وكان يثق بآنى سأسكت
فلا أجيب • ورأى فريق من (زملائى) فى الجامعة أن أسمح ، مراعاة
للظروف فأقسمت لأجعله مثالا فى الآخرين • وكذلك كتبت مقال
« طه حسين بين البغى والعقوق » ذلك المقال الذى أبكى طه حسين بالدمع
السخين • وكان يظن أنه لن يعرف البكاء •

وعاد طه حسين الى الجامعة فى (زفة) لم يسمع بعثها منذ كان

يسكن في كفر الطماعين • وظن الناس أنني سألاينه وأداريه • ولكن
هيئات فقد تجاهلت عودته سبعة أيام إلى أن جمع بيننا مجلس اللغة
العربية •

فور تلك الأثناء أراد الشيخ أمين الخولي أن يصلح بيننا ••• وكنت
أحسب أن لصلح لن يزيد على المصافحة وتبادل التحيات • ولكنني فوجئت
مفاجأة لم تخطر على بال • فان الأستاذ أمين الخولي انتظر حتى اجتمع
بعض الزملاء ثم نهض فقال : هذه أول جلسة يحضرها الدكتور طه حسين
بعد عودته • وأنا أقترح أن تلقى كلمة ترحيب • وأفضل أن يلقيها
الدكتور زكي مبارك لأن بينهما أشياء يجب أن تزول •

وكان موقفا في غاية الحرج • ولكنني تخففت إذ كنت أعرف أن
العداوة التي بيني وبين الدكتور طه يصعب أن تزول • ومن الحزم ألا أقول
كلما ينطوى على تودد أو ترفق فوقفت ، وقلت :

• اني أرحب بعودة الدكتور طه • وقد (زاملته) من قبل ثلاث
سنين ، وكنت من قبل من تلاميذه الأوفياء • والذي وقع بيني وبينه
لم يكن فيه شيء خارج الا المقال الذي نشرته في البلاغ ، وهو مقال
أعرف أن فيه شيئا من الشطط ، ولكني لا أعذر عنه ، لأنه من بعض
ما علمني • ومن الخير أن يتناسى ما فات لان مصلحة العمل توجب
الوفاق ، •

وقد ابتسم الاساتذة حين ذكرت أن الشطط كان من بعض ما علمني ،
وعدوها خطبة لبة فيها ترضية وفيها احتراش •

أما موقفي من جلسات قسم اللغة العربية فكان دائما موقف المعارضة
الصريحة لنزعات طه حسين • وكان لا يسلم مني الا بأخذ الاصوات •
وكان أساتذة اللغة العربية لا يرون فائدة في معارضته إذ أنهم كانوا يعرفون
أن كل شيء مصيره إلى هواء بفضل الوسائل التي يعرفها الجميع •
لا أنكر أنني أسرفت • ولكن الأيام أرنتني أن الحزم كان أوجب •
ولولاه ما استطعت الآن أن أناقش من يزعم أنني قابلت الدكتور طه حسين.

بالترحيب • وانه مع ذلك لم ينس ما كويت به جنيته من قوارع الشريب
ولم يغفر ما كشفت من سرقاته • وكان الناس يحسبونه من المبدعين •

وفى أوائل شهر مايو دعاني الدكتور منصور فهمي الى مكتبه • وقال:
أرسلت ادارة الجامعة تسأل عن تجديد العقد • والنظام يقضى بأخذ رأى
الدكتور طه حسين فاذهب يا بني وصف ما بينك وبينه وسأحفظ الخطاب
حتى يتم بينكما الصفاء فأجبت الدكتور منصور فهمي بما نصه :

• أنا على أتم استعداد لتصفية ما بيني وبين الدكتور طه • ولكني
لا أفعل ذلك في هذه الأيام • ولو أنك اقترحت ذلك منذ شهرين ، لقبث •
أما الآن فلا تسمح نفسي بمصافحة الدكتور طه • وأنا أعلم أن لذلك دافعا
من الغرض ، ومع ذلك ما الذي يزعجك يا سيدى العميد ؟ ••

أنظن أن الدكتور طه ينتهز هذه الفرصة ويتشفى منى • انه أعقل
من أن يقترب مثل هذا الانتقام المنفوخ • •

فابتسم الدكتور منصور ابتسامة مرة • وقال : • أنت يا بني تسرف
في حسن الظن بالناس • •

ولكن ما الذي حدث بعد ذلك ؟ : لقد اجترأ زكى مبارك على طه
حسين في اديه فجاربه طه في رزقه • وقال حين طلب اليه تجديد عقده :
• أنا لم أستشر في تعيينه فلا أستشار في تجديد عقده • •

وكتب المازني مقالا قال فيه : « انى لأحدث نفسي أحيا بائني لو كنت
أقول الشعر في هذه الأيام لرئيت طه حسين • فانه يخيل الى أنه قد مات •
طه حسين الذي عرفته وأحبته وأكبرته • وجاء غيره الذي أنكره • كم
كتب المازني يعتب الدكتور « طه حسين » على فصل زكى مبارك من الجمع
وقال « ان الدكتور طه حسين اصبح ممن يملكون اشباع البطون واجاعتها
وانه صار يضرب اللقمة التي ترتفع بها اليد الى الفم ، ويطيها ، فتسقط على
الأرض فتفوز بها الكلاب ويحرمها الانسان »

وقال زكى مبارك : ليس عيبا أن يجوع المرء وانما العيب أن يكسب
الانسان الرزق على حساب المروءة والرجولة والشرف والكرامة • •

« الذى بيننا لم يكن خلافاً فى رأى • وإنما هو قتل عفيف بين شخصين • فالدكتور طه يرى أننى كنت تلميذه • ومن واجب التلميذ فيما يزعم الا يخالف الأستاذ • أما أنا فأرى الدكتور طه رجلاً قليل العلم والمعرفة بالأدب العربى • وأراه استمراً السطو على آراء المستشرقين • وأراه فى حياته العلمية نموذجاً للفوضى والقلق والاضطراب • فقد يقولون وكيف سكت زكى مبارك عن نشر عيوب طه حسين ، وهو يصاحبه منذ خمسة عشر عاماً •

وأجيب بأن الدكتور طه ابتداءً التدريس فى الجامعة المصرية قبل أن تقدم الدراسات الأدبية • فكان منذ سنين مستور العيوب • على أن الخواص يعرفون أننى بدأت أعارضه منذ سنة ١٩٢٧ حين اطلعت على عجزه الفاضح ، وعرفت أنه يعيش من سرقة آراء الأدباء والعلماء •

وأنتم تعرفون أننى رجل صريح لم تستطع الايام أن تروضنى على المجاملة والمداراة • فلم يكن خافياً أن يعرف الدكتور طه أننى لا أحترمه ولا أحترم مسالكه الأدبية • ولا أحترم تهالكه الفاحش على موائد الأحزاب وكذلك هدته غريزته الى وجوب مخزيتى فى عملى فى الجامعة المصرية • وساعده على ذلك ناس كنت شجاً فى حلقهم • وكان هو فى أنفسهم مثال الخادم الأمين •

فان كان الدكتور طه قد انتصر حين وجد من يساعده على اخراجه من الجامعة ، وليتذكر • من عاونوه على شفاء صدره أن انتصارهم ليس الا هزيمة شنعاء وسوف تعلمون •

« لقد انكشف أمر طه حسين حين أصدرت كتاب « النشر الفنى » وقد بينت أغلاطه وسرقاته • وتحديته أن يدافع عن نفسه • فتخذلت قواه ولم يملك الجواب • وعرف الأدباء فى المشرق والمغرب أنه لا يملك شيئاً أصيلاً • وأن مؤلفاته ليست الا هلاهيل انتزعها من كلام الناس وأن ما يدعيه من الآراء ليس الا صوراً ملفقة انتزعها مما يقرأ ويسمع •

• ان قلمى ليس الا محنة صباها الله على طه حسين • ولعله انتقام

من الله صوبه الى صدر ذلك الشخص الذى اجترأ على التوراة والقرآن •
واستطاع أن يقول فى وقاحة (للتوراة أن تحدث • وللقرآن أن يحدثنا)
كأن العلم لا يكون الا حيث تقع مساقط هواه • أما التوراة والقرآن فهما
ظنون فى ظنون • طه حسين جاهل • سبحان الله وكيف يكون جهلا •
وهو رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة المصرية ؟ من الذى وضع طه حسين
فى ذلك المنصب ؟ ان الذى وضعه فيه هو أحمد لطفى السيد مدير الجامعة
المصرية • ولطفى السيد ليس حجة فى الأدب العربى • ولم ير فى حياته
جامعة أوربية حتى يعرف كيف تكون الدراسات العالية •

• ان هذا الرجل لم يكن فى جميع أدوار حياته العلمية الا مرتزقا
ينلمس فتات العلماء كلما نصبوا موائدهم • أو أوقدوا نرهم • ولم يستطع
حتى اليوم أن يواجه تلاميذه ببحث أصيل ، يشعرهم بأنه من أهل الفكر
والبيان •

• أسارع فأقرر بأن طه حسين لم يكن يوما من المنكرين • وانما
هو انيب قليل الفكر قليل الاطلاع • نشأ فى أوقات لم يكن يعرف الناس
فيها غير المجالات الأساسية • وكان النقد فيها قليلا ، فتظاهر بالعلم ، فظنه
القراء من العلماء •

لم يقرأ فى حياته كتابا كاملا ، وانما قرأ فقرات من هنا ومن هناك ،
وأخذ يشطح ذات اليمين وذات الشمال ، الى أن اتصل بالمرحوم ثروت
باشا فوضعه فى الجامعة المصرية •

• ظل طول عمره ظلا من الظلال فى عالم السياسة • ولم يترك
حزبا الا خدمه ، ودبج فى تقريله ألوانا من الرسائل الطوال • والاتجاه
السياسى صورة من الاتجاه العقلى • والرجل الذى يتردد بين المذاهب
السياسية لا يبعد أن يعيش فريسة الحيرة بين المذاهب الأدبية • وقد اتفق
للرجل الصالح جدا ، طه حسين ، أن يخدم قبل الحرب ثلاثة أحزاب :
وأن يخدم بعد الحرب أربعة أحزاب • وحظته من الثبات فى المذاهب
الأدبية يشبه حظه فى الثبات على المذاهب السياسية : تردد هنا ، وحيرة
هناك •

♦ كيف ينظر الحفدة الى تاريخ الجامعة المصرية حين يعرفون أن أكبر أستاذ فيها ، لم تقم استاذيته الا بفضل انتهاب آثار المستشرقين ؟

♦ ان (١) أطفالى لو جاءوا لشويع طه حسين وأطعمتهم من لحمه .

على أن من بين أسباب الخصومة بين طه حسين وزكى مبارك :
ما أوضحه زكى مبارك :

♦ ترجم لأبى العلاء فأفلح ، ثم ترجم للمتببى فأخفق .

♦ أخرج الجزء الأول من الأيام فكان أعجوبة ثم فتر فى الجزء
الثانى .

♦ والجزء الأول من هامش السيرة سفر نفيس ، أما الجزء الثانى ،
فهو أيضا « سفر نفيس » .

♦ كان أستاذا فى الجامعة المصرية القديمة أستاذا عظيما أما فى
الجامعة المصرية الجديدة فهو استاذ هيوب يستر كسسه الجميل
بالتعاضى عن ضعف الطلاب .

♦ وأمره فى الصداقة أعجب من العجب ، فهو يؤاخذك ويصافيك ،
لى أن تظن أنه قطعة من قلبك . ثم يتحول فى مثل ومضة البرق الى عدو
مين .

على الرغم من ضعفه فى الاضطلاع بتكاليف المواهب رجل كذاب
لأنه معسول الحديث ولأنه قد يصدق فى الحب وفى البغض ، إلا أنه
تهديه حاسة النفع الى أن يعادى من يصادق ، ويصادق من يعادى ، كالذى
صنع فى طوافه بأركان الأحزاب .

♦ ما سبب الخصومة بينى وبينك ؟

منذ أكثر من سبعة أعوام القيت محاضرة فى الجامعة
الامريكية عن (البحرى) وسجلتها جريدة كوكب الشرق وشاء (العفريت

(١) ١٨ من اكتوبر ١٩٣٥ - الصباح .

الذى يحتل رأسى حين أدخلوا الى قلمى) أن انشر فى جريدة البلاغ مقالاً
عنوانه (الدكتور طه حسين يغلط خمس مرات فقط فى محاضرة واحدة)

نم لقيتني بعد ذلك فى الجامعة الأمريكية • وجادلتنى فى تلك
الأغلاط • فأعلنت انى أخطأت • وكان ذلك لأن الجمهور احاط بنا من
كل جانب ليرى كيف أدفع هجومك وما كن يجوز لى أن أصنع غير الذى
صنعت • لأن أدبى لا يسمح لى بمصاوتك أمام الناس • لأن وجهك
يشفع لك • فهو وجه لا يلقاه الرجل الحر بغير الاعزاز والتجميل •

فما الذى صنعت انت فى تصحيح الاغلاط التى أخذتها عليك ؟ مضيت
فنشرت محاضرتك عن انبجرتى فى كتابك (حديث النثر وانشعر)
وأبقيت تلك الاغلاط ، استغفر الله ، بل تفضلت فشككت الكلمات المغلوطة
لتقول انك لا تبعأ بأى نقد يوجه اليك • فما الذى كان يمنع من تدارك
تلك الاغلاط ؟

وما الذى كان يسع من شرح رأيك فى الهامش ان كنت تؤمن بأنى
لم أكن على حق ثم ماذا ؟ ثم حدث فى صيف سنة ١٩٢٩ أن انكرت على
أن اتخذ شواهد لتطور النثر الفنى من رسائل عبد الحميد بن يحيى ، وقت
ان عبد الحميد بن يحيى شخصية خرافية كشخصية امرى القيس • وكان
ذلك بمسمع من شابين واعين هما محمد مندور وعلى حفوظ •

وكانت حجبت أن عبد الحميد بن يحيى لم يرد اسمه فى مؤلفات
الجاحظ ، فرجعت اليك بعد أيام ، وأخبرت أن الجاحظ تكلم عن
عبد الحميد بن يحيى مرات كثيرة • وأن مؤلفات الجاحظ تعرف رجلين أحدهما
عبد الحميد الأكبر والثانى عبد الحميد الأصغر فلم تجب بحرف واحد ،
ثم ألفت وأنا فى باريس محاضرة قلت فيها : ان عبد الحميد بن يحيى
احد شيئا من أدب اليونان • وفاتك أن تنص على اسم الرجل الذى أفتك
بأنه لم يكن شخصية خرافية •

وقد حملنى العفريت الذى يملك رأسى حين أدخلوا الى قلمى ،
على أن أسجل هذه القضية ، فى أحد هوامش كتاب النثر الفنى ، فكانت

فرصة اغتنمها صديقك الأستاذ أحمد أمين ، ليقول فى مقال كتبه فى مجلة الرسالة : ان زكى مبارك يعوزه الذوق فى بعض الاحيان •

♦ أنا أعرف ما تكره منى • أنت تكره منى السكبرياء • وكيف أتواضع ، وقد أعاننى الله على بناء نفسى ؟ وكيف وقد أقمت الدليل على أن الشباب المصرى خليف بعظمة الاعتماد على النفس وهل رأيت رجلا مثلى ينهض بأوطار الشباب وهو مشخن بجراح الزمان بعد الأربعين • هل رأيت رجلا قبلى يؤلف الكتب الجديدة فى البواخر والقطارات والسيارات ؟ ومن يصدق أنى أنفق فى سبيل الورق والمداد أضعاف ما ينفق بعض الناس فى سبيل الطعام والشراب ؟!

قصة احمد اسديك

عاد زكى مبارك الى مناوشة طه حسين بأسلوب جديد ، حاول فيه أن يسجل بداية اتجاه طه حسين الى كتابة التاريخ الاسلامى ، فقال :

فى شهر يوليو ١٩٢٨ تلقيت وأنا فى باريس خطبا من الأستاذ الدكتور طه حسين جاء فيه عبارة « أحمد الله اليك » فالتفت ذهنى الى هذه العبارة لأنها لم تكن من العبارات المألوفة فى رسائله • وقلت لنفسى : من أين وصل هذا التعبير الى الدكتور طه حسين ، وهو فى هذه الأيام يعيش فى جيرايرير • وصح عندى بعد التأمل أن الدكتور طه قد يكون مشغولا بمراجعات كتاب يتصل بالسيرة النبوية لأن عبارة « أحمد الله اليك » تكثر فى الرسائل المأثورة فى عصر النبوة وعصر الخلفاء •

وبعد أعوام أخرج الدكتور طه كتابه « على هامش السيرة » وتفضل فأهدى الى نسخة مهورة بعبارة كريمة من عبارات الاهداء • وكنت حينئذ أحرر الصفحة الأدبية فى جريدة البلاغ • فرأيت أن أتحدث عنه الى قرائى بعناية تحملمهم على اقتناء ذلك الكتاب تحقيقا للتضامن بين المؤلفين •

فماذا قلت ؟ قلت : ان الدكتور طه حسين اعظم الاجدة حين يروى
فى التأليف وكتابه الجديد أثر من آثاره الجيدة فى زوية فهو مشغول
بموضوعه منذ ١٩٢٨ وان لم يقل ذلك ، فقد كتب الى خطبا فى شهر يولييه
من تلك السنة ، يقول فيه : أحمد الله اليك • وقد فهمت من هذه العبارة انه
كان مشغولا بدراسات تتصل بالسيرة النبوية • وكذلك عرفت أن الظن قد
بلغ درجة اليقين وقد يقوم مقام المعاينة عند صدق الاحساس •

فكيف استقبل الدكتور طه هذا التقرير الطريف ؟ ..

مضى يقول : هذا اختراع جديد من اختراعات زكى مبارك
فى الأسماء ، والاحاديث • فليس من المعقول أن أكتب اليه خطبا أقول
فيه : « أحمد الله اليك » وهى ليست من عبارات هذا الجيل •

ولقيني بعد ذلك فجدد استغرابه من العبارة التى نسبتها اليه •
فقلت : انها حق ، فقال : انها من المستحيلات •

ومضيت أبحث عن ذلك الخطب فلم أهد اليه ، لأن الدنيا كانت
اسرعت فى اللجاجة واللدد فنقلتنى من أحوال الى أحوال • وبعثرت
ما كنت احرص عليه من رسائل الاهل والاصدقاء • وعدت الى مكتبى
بالقلب والاغلال ، فلم يبق أمل فى الوصول الى نص الخطاب المنشود •
ثم أخذت أتحدث فى مقالتي ومؤلفاتي عن أشياء وقعت بينى وبين الدكتور
طه حسين • فكان اذا سئل عن بعض تلك الأشياء أجاب بأنها اختراع من
نوع « أحمد الله اليك » •

ومنذ أيام مضيت لمقابلة (سعدة) الأستاذ الجليل الدكتور عبيد
الرزاق أحمد السنهورى (بك) • وفى يدي نسخة مهداة اليه ، من كتاب
الأسماء والاحاديث • فوجدت الدكتور طه هناك • وسألنى السنهورى
(بك) عن أغراض الكتاب • فقلت فيه (أقوالا) فاه بها الدكتور طه
ولم ينشرها • فنشرتها عنه ، على نحو ما كان يصنع أفلاطون مع سقراط
واللطف الملحوظ فى هذه العبارة لم يمنع الدكتور طه من أن يقول : لا بد
أن تكون اختراعات من طراز « أحمد الله اليك » •

وسألني السهوري عن القصة فأجملتها في كلمات قصار ، فرارا من الدخول في جدل جديد ، مع الدكتور طه ، فقال وهو يتسهم : يجب أن يكون الخطاب صحيحا ، مادمت تحدثت عنه في البلاغ . فقلت : وإن وجدت وصل الخطاب . فقال الدكتور طه : إن وجدته فسيكون بخطك . فقلت : وإن كان بخط توفيق شحاتة سكرتيرك ؟ قال : هذا مستحيل . فقلت : « وهل عندك مانع من أن تحمد الله الى ؟ »

فقال : أنا أحمد الله في كل وقت ، ولكني لا أذكر أنني حمدته اليك . ثم انصرفت وقد اطمأن من حضروا هذا الحوار الى أنني أتزيد على الناس حين أشاء .

أين ذلك الخطاب ، وأين أنا من سنة ١٩٢٨ . وقد شرقت وغربت وانتقلت من دار الى دار وبشرت أوراقى مئات المرات .

الى يا أوراقى . الى الى . فقد طال عهدك بالحجاب . ورجعت الى تلك الأوراق ..

هذه أوراق وأوراق وأوراق . هذه مئات من الرسائل ، التي تشهد بأنني كنت على صلات مع أرواح جاذبتها زمنا أطراف المحبة والعتاب . ثم تشاء الأقدار أن أجد الخطاب المنشود ، وبخط توفيق شحاتة ، الذي صار من أيام « دكتوراه في الحقوق من الجامعة المصرية » .

تشاء الأقدار أن أجد الخطاب الذي يقول :

« أحمد الله اليك ، على ما أنت فيه من رضا بالاقامة في باريس ، وأتمنى لك المزيد من هذا الرضا . كما أتمنى أن تنتفع بأيامك في فرنسا الى أبعد حد ممكن وتقبل من السيدة ومنى تحية خالصة . وشكرا جميلا . » وتاريخ الخطاب ٢٦ من يولية ١٩٢٨ .

ثم تشاء الأقدار أن أجد خطابا للدكتور طه كتبه الى من الاسكندرية وفيه يقول : « صديقي العزيز الدكتور زكي مبارك .

أنا مدين لك بشكر كثير . فقد قرأت كتابك وتسلمت السفريين اللذين تفضلت بارسالهما الى . ولست أدري كيف أشكر لك عنايتك

بطلسته ابن خلدون • وأنا مقتنع فيما بينى وبينى بأنها لا تستحق
هذه العناية • ومع ذلك فسأشترى المقطم منذ ايام لا فرا ما تكتب ، لأنك
انت الذى سيكتبه • لأننى انا موضوعه • ودر ما ارجوه ان تصدر
فيما تكتبه عن انحرية الصداقة القاسية لا عن الاخاء والمودة اللذين يدفعان
فى كثير من الاحيان الى شىء من الرفق لا يخلو من اثم • وأنا أعيد
اصدقائى من ان يتورطوا من أجل فى اثم الاسراف فى البر ، كما اكره ان
يتورطوا فى اثم العقوق •

وأنا ارجو ان تكون بخير مطمئن النفس ، وان تكتب الى فى شىء
من الاطالة والحرية • فان كتبك وأحاديثك تقع من نفسى دائما موقعا
حسنا • وليس لدى الآن ما يشغلنى عن قراءة كتبك • فأنا أقضى ما بقى
من أيام الراحة فى قراءة متفرقة ، لانظام لها ، ولا نفع فيها •
طه حسين

فمن قبل ، وكيف أمكن بعد ذلك الوداد الوثيق ، أن تفسد العلائق
بينى وبين الدكتور طه ، فانى أجيب بأن لله حكمة فيما وقع بينى وبين
ذلك الصديق ، لم يكن بد من خصومة أتخذ منها فرصة لتوجيه
الجمهور الى الحقائق الأدبية • وكذلك خاصمت عددا من رجال الأدب
كان أظهرهم الدكتور طه حسين • وأنا اليوم فى حياد • أو أنتى غير
محارب • وهما حالتان متقاربتان • فمتى أخلق خصومات جديدة أذكرى
هم نار الأدب من جديد ؟

يا دكتور طه

ان كنت أنكرت أن تحمد الله الى ، فخطابك تحت يدي ، أقدمه إليك
حين تشاء • فان لم تحمد الله الى ، فأنا (أحمده اليك) •

وعاد زكى مبارك يكتب مرة أخرى عن طه حسين • ويربط بين
عمامته وبين نزعة اليونانية فقال : صبر الدكتور طه على عمامته بعد فراق
الأزهر بأعوام قصار أو طوال ، فأدى امتحان الدكتوراه بالجامعة المصرية
فى ١٩١٤ وهو معمم وأقلته الباخرة من الاسكندرية الى مارسيليا وهو
معمم • ولكن ركاب تلك الباخرة قد التفوا مدهوشين الى شىء يقع فى
البحر • وقد ألقاه صاحبه فى عنف فما كان ذلك الشىء الا عمامة طه حسين •

وقد تحدث الدكتور طه مع احد الصحفيين بانه لم يندم على شيء لما
ندم على رمي عمالته في عرض المحيط ، ولندن الواقع غير ذلك . الواقع
ان الدكتور طه قد ولد وعلى رأسه «برنيطة» وقد حدثني مرة أنه يرجع
الى أسلافه القدماء من اليونان فان لم يصبح ذلك ، فهو في نزعة اليونانية
مدین لرواية ألفها الشاعر أحمد شوقي ، واسمها
« ورقة الآس » وفيها تمجيد لليونان (حدثني الدكتور طه بذلك
في أحد الأيام من عام ١٩٢٢ ولهذا وذاك صلة بانتقل الرجل من حال الى احوال
فقد انحدر من اسرة اكثرها مشايخ . ولكنه مع ذلك يحيا حياة مدنية
منقطعة عن حياة المشايخ تمام الانقطاع والنص على هذا الانقلاب واجب
لأنه يفسر ما خفي من أسرار الوحى في اتجاهاته الادبية والاجتماعية
هذا رجل بعيد الصلة بين حاضره ومضيه ، لأنه سريع القفز والوثب .
ولأنه على وفاق مع ضميره الفنى والأدبى . فهو يسايره الى حيث يريدوهو
يجزع من العزلة ويفزع من الانفراد . كان مع الدستوريين وهم يقتلون
الوفديين . وكان مع الوفديين وهم يقتلون الأحزاب أجمعين . فاذا انجلت
المعارك السياسية وانقطع الى الحياة العلمية كان من الواجب أن يخلق أزمة
جامعية . فاذا نقل من الجامعة الى وزارة المعارف كان من المحتم أن يخلق
مشكلة في وزارة المعارف .

فالذى ينظر الى الأمور نظرة سطحية يحكم بأن الدكتور طه رجل
متغير متحول . أما الذى ينظر نظر المدقق فيرى التغير والتحول من صور
الثبات والاستقرار بالنسبة اليه ، لأنهما يؤديان وظيفة أساسية في حياته
اليومية .

ومن الجائز أن يكون لهذه النزعة دخل في هيسامه بالفروض
والحدوث ، وهو يساور الأبحاث الادبية والتاريخية . فمؤلفاته في أغلب
أحوالها قليلة التعمق ، لأن التعمق يوجب أن يقف على البحث الواحد
عاما أو عامين . والوقوف يضايقه بعض الشيء ، لأنه يصرفه عن التحول
والانتقال بين المعانى والآراء .

زار الدكتور طه باريس ، وأنا هناك ، فلما مضيت للتسليم عليه ،

أدهشنى أن أجده فى غرفة تطل على ميدان الأوبرا فنوار • وهو ميدان
صخاب ضجاج • فقدرت أنه يسره أن يسمع باريس بعد أن فاته أن يرى
باريس •

ويحدثنا أنه حين رجع إلى بلده بعد قضاء بضعه أشهر فى الأزهر
أقام معركة حول فكرة التوسل بالأولياء • فما سر ذلك ؟ لم يرد فى الواقع
غير خلق دنيا يراها عقله ، وإن لم ترها عيناه • وقد شهد الدكتور طه على
نفسه فى مواطن كثيرة من كتاب الأيام باضطراب العقل ، وأقول إن هذا
الاضطراب هو مصدر قوته الذاتية (١)

وسجل زكى مبارك خاتمة الخلاف بينه وبين طه حسين ، فقال :

كان قد شاع انى أخصم الدكتور طه حسين ، فكتب فى الهجوم
عليه مقالات كان لها وقع حسن أو سىء عند قراء اللغة العربية ، واطلع
الاستاذ محمود بسيونى على بعض المقالات فارتفع أشد الارتعاج • وسمى
للصلح بينى وبين الدكتور طه حسين ، فى حفل مشهور ، حضره العمدة
وكبار الاساتذة بكلليات الجامعة المصرية ، فهل تعرفون نتيجة ذلك الصلح
المشثوم أو الميمون ؟ ، تلفت الناس متوجعين لضياح فرصة ثمينة ، هى فرصة
الجدل حول المذاهب الأدبية • فهل فيكم من يتفضل بالسعاية بينى وبين
الدكتور طه لأرجع الى مصاولته من جديد ؟ ••

كان بينى وبين الدكتور طه ود وثيق • ولكن رعاية ذلك الود لم تنفع
الأدب بشىء لأن كل ما يصدر عنه كان يقع فى نفسى موقع القبول • فلما
ثار على ، وغضبت عليه ، أثبت فى مصاولته بالأعاجيب •

وجملة القول فإن علاقة زكى مبارك مع طه حسين كانت محوطة
بسياج من التقدير • فما ذكر زكى مبارك طه حسين الا أثبتى عليه • وما
وقع طه فى أزمة الا كان مبارك أول أنصاره • وعندما مات والد طه حسين ، كتب
زكى مبارك « رأيت الحزن يعصر قلبى ، حين قرأت أن الدكتور طه فقد

(١) أول ديسمبر سنة ١٩٤١ - الرسالة •

آباء ، ورثة الله عمر أبيه • ومن عليه بنصير الجميل • أبو الدكتور طه هو
الشيخ حسين على • وكان رجلا غاية في اللوذعية والأريحية • كان الشافعي
يقول : الحر من راعي وداد لحظّة • وقد واددت هذا الرجل لحظتين •
فمن واجبي أن أذرف عليه دمعين » • الرسالة ٢٨ من يوليّه ١٩٤١ •

زكي مبارك في معركة أحمد أمين من جانب واحد

تعد معركة زكي مبارك مع « أحمد أمين » معركة الكبرى الثانية •
وهي معركة قامت من جانب واحد • نشر من أجلها مبارك في الرسالة ٢٢
مقالا • وقال النقاد انها كانت بايعاز من الزيات بعد انفصال أحمد أمين
وأعضاء لجنة التأليف عن الرسالة • ونحن نرجح هذا • ونذكر أن زكي
مبارك رمى بالسلاح نفسه فانه في الوقت الذي رأى الزيات أن يتخلص منه
هاجمه كتاب آخرون في الرسالة بالأسلوب نفسه •

وفي هذه المقالات حاول زكي مبارك أن يتجه الى الدراسة الموضوعية
وحشا مقالاته بآراء نافعة ، سنحاول في هذا الفصل ، أن نورد خلاصة
لها ، وقد ذكر مبارك أن السبب الاساسي لهذه المعارك عندما كان مدرسا
بكلية الآداب عام ١٩٣٥ ، وأخرج الأستاذ أحمد أمين الجزء الثالث من
« ضحى الاسلام » • وقد سرق من الأستاذ ابراهيم مصطفى مسألة
تصل بتاريخ النحو وسرق مني مسألة تصل بتاريخ التشريع الاسلامي •
فصاح ابراهيم ان هذا أخى له تسع وتسعون نعمة • ولى نعمة واحدة •
فكيف يسرقها مني ، انه لطماع • وجلست أنا و ابراهيم نتشاكى • وهتفت :
سأنتقم لى ولك يا ابراهيم •

بدأت هذه المقالات فى ١٢ من يونية ١٩٣٩ واستمرت حتى العدد
١٣ من نوفمبر ١٩٣٩ تحت عنوان « جنابة أحمد أمين على الأدب العربى »
وسجل مبارك أن « أحمد أمين » كان مشدود البصر الى رجل واحد
هو « طه حسين » • وكان يكتب وهو يراء أمامه ، لأنه كان يعرف عدوانه
له ، فيخشى صولته • كما انتهز الفرصة فهاجم غريمه الدكتور طه •

فقال (١) : « ان الدكتور طه يترفق بأصدقائه أشد انترفق ويحرص على سترما يقعون فيه من أوهام وأضاليل • وقد يقدمهم الى الجمهور في جلبة وضوضاء » • وقال في موضوع آخر « ان الدكتور طه هو استئول عن أحمد أمين فهو الذى قال (ان أحمد أمين لم يكن يعرف نفسه فهدها إليها) • ومعنى ذلك أن « أحمد أمين » لم يكن يعرف انه أديب قبل أن يدلّه الدكتور طه على الكنز المدفون في صدره • ان « أحمد أمين » لم يكن أديبا • وانما قال له طه حسين (كن أديبا) فلم يكن • • •

ويرى زكى مبارك أن « أحمد أمين » لايجيد الا حين يصطحب الروية ، يطيل الطواف بالموضوع الواحد عاما أو عامين • وأنه « باحث كبير بلا جدال • ولكنه ليس بكاتب ولا أديب » لم يستطع أن ينقل القارىء من ضلال الى هدى • أو من هدى الى ضلال • وانما كانت مؤلفاته وبحوثه ضربا من « التقرير » الذى يخاطب الأذهان ويعجز عن مخاطبة العقول والقلوب • •

ثم يعتذر عن أسلوبه فى النقد • ويقسم أنه ينجم على هذا الرجل وهو كاره لما يصنع « فأحمد أمين رجل محترم وقد وصل بكفاحه الى منزلة عالية فى الحياة الأدبية • وأنا قد ضيعت جميع اصدقائى بفضل جر . النقد الأدبى • وكنت أحب أن أداوى ماجرح قلدى لأنجو من الدساس التى تعترضنى فى جميع الميادين » •

ويهاجم زكى مبارك طه حسين لأنه تناقض مع نفسه حين قرر أن يدرس أسلوب أحمد أمين فى كلية الآداب مع أنه أعلن فى قصر الزعفران (ربيع سنة ١٩٢٧) فى مهرجان شوقى ، انه سيجعل خطبته عن الأخطل ، لا عن شوقى ، بحجة أن الجامعة لا تؤرخ للأحياء • •

ويعلل هجومه على أحمد أمين بأنه لم يوجه أية اساءة الى معاصريه ولكنه هاجم التاريخ : « ربما جاز أن يقال انه لم يؤذ أحدا من معاصريه ولكن « أحمد أمين » الذى كف شره عن الأحياء وجه شره الى التاريخ •

(١) ٢٣ من اكتوبر ١٩٢٩ الرسالة (جنابة أحمد أمين مقال ١٩٠)

فهو يدرس ماضى اللغة العربية بلا تحرز ولا رفق • ولو تركنا • شهرين
اثنين يؤرخ الأدب على هواء لجعل الأمة العربية أضحوكة بين العالم « وقد
كتب زكى مبارك فى الرسالة (سبتمبر ١٩٣٩) يقول :

« نحن أمام فتنة جديدة هى انقول بأن الادب العربى لا يصلح لتربية
الأذواق فى الجيل الجديد • وهذه الفتنة ليست من مخترعات أحمد أمين
فقد نبتت قرونها منذ أكثر من خمسين سنة حين أراد المستعمرون
والمبشرون ان يوهموا أبناء الأمم العربية بأن الصلة بين ماضيهم وحاضرهم
لم يبق لها مكان • وأن المصلحة تقضى بأن يوضع الأدب العربى فى المتاحف
أو فى مدرسة غير المتخصصين ، على نحو ما يصنع الاوروبيون فى الآداب
اليونانية واللاتينية • ثم تقبل كل أمة على لهجتها المحلية فتجعلها
لغة التخاطب والتأليف ، وبذلك تكون اللغة الفصيحة أما واحدة للغات
الشعوب العربية • وقد صرح بذلك مسيو ماسينون فى خطبة ألقاها فى
بيروت سنة ١٩٣١ ونقدها يوم ذاك بمقال أرسلته الى جريدة « البلاغ
من باريس » • والحق أن الفتنة التى أذاعها المستعمرون والمبشرون كانت
فتنة براءة خداعة تزيف الأبصار والعقول • وقد اتخذ بها من اتخذ فى
الأعوام الماضية • وقامت بذلك مساجلات فوق صفحات الجرائد بين
الدكتور منصور فهمى والدكتور طه حسين •

وهكذا يبدو زكى مبارك فى معارضته لأحمد أمين فى موقف البطولة
حين يدافع عن كرامة الادب العربى وعظمة اللغة العربية • ويقول زكى
مبارك فى هجومه على أحمد أمين وأنه ليس له أسلوب : « قد يكون من
الباحثين • ولكنه لن يكون من الكتاب ولا الأدباء ان الرجل لا يكون له
أسلوب الا يوم يصح أن يحس الثورة على مايكره والأنس بما يحب
فعندئذ تعرف نفسه معنى الانطباعات الذاتية ويعبر عن روحه وعقله وقلبه
بأسلوب خاص » •

ويمضى فى هجومه فيقول « لقد اشتغل أحمد امين بالقضاء الشرعى
بضع سنين ، فهل قرأتم له مقالا أو قصة تدل على أنه توجع مرة واحدة
لساس الانسانية ؟ • • لقد عاش أحمد أمين مدة بالواحاحات فهل سمعتم قبل

أن تسمعوا مني انه عاش بالواحات لو كان أحمد أمين أديبا نحدثكم عن تلك
الآلام التي يتحملها انصريون • ولكن أحمد أمين لم يكن أديبا • وإنما
كان موظفا مخلصا لواجب الوظيفة لا يرى ماعداه من الشئون ثم قال له طه
حسين كن اديبا فكان •

ويكشف زكي مبارك عن السر في الخطأ الذي وصل الى أحمد أمين
فيقول :

« وصل اليه الخطأ من التلمذة للأستاذ الكبير الدكتور طه حسين •
فقد حكم الدكتور طه بأن العصر العباسي عصر تنب ومجون ولأن فيه
عصابة مشهورة بالزيف والفسق وهي جماعة أبي نواس ومطيع ابن اياس •
مع أن العصر الذي عرف أمثال هذين الرجلين هو نفسه العصر الذي نبغ
فيه كبار الفقهاء والنسك والزهاد • وهو الذي بلغ فيه الفكر العربي غاية
الغايات في فهم أصول الفلسفة وأصول الأخلاق • فهل خطر في بال أحمد
أمين أن العصر العباسي لا يصح الحكم عليه بإيثار المعدة واغفال الروح من
أجل كلمة أو كلمات في وصف الاحتفال على الطعام والشراب ؟ »

وهو يعزو أخطاء أحمد أمين الى طه حسين فيقول : ان « أحمد
أمين » يقول ان الادب العربي على اختلاف عصوره ليس فيه الا كاتب
واحد ، يهتم بتحليل المعاني ، هو ابن خلدون • وأن اعجاب أحمد أمين
بابن خلدون يرجع الى أن الدكتور طه حسين شغل به •

وقال مبارك : ان بعد الدكتور طه حسين عن مصر في أيام الصيف
عرض الاستاذ أحمد أمين للمعاطب ، فلو أن الدكتور طه بقي في مصر ،
لكان من الجائز أن يعلن اعجابه بكاتب آخر غير ابن خلدون •

فهل نرجو أن يتلطف الدكتور طه حسين فيقول انه لا يعقل أن ينبغ
في الأدب العربي غير كاتب واحد ، في ذلك الأمد الطويل الذي سيطر فيه
على أقطار آسيوية وافريقية وأوربية ؟ وان الدكتور طه لو قال هذه الكلمة
- وهي حق - لسرت عدواها الى روح الاستاذ أحمد أمين فاندفع يثني
على الأدب العربي بما هو أهله • ولكن من الممكن أن يصرح بأن الأدب
العربي ينبغ فيه من الكتاب عشرات أو مئات •

ولكن الدكتور طه يترفق بأصدقائه أشد الترفق ويحرص على ستر ما يقعون فيه من أوهام وأضاليل • وقد يقدمهم الى الجمهور في جلبة وضوء • فكيف ينتظر أن يقول في الأدب العربي كلمة حق تشجع رجلا مثلي على مهاجمة رجل يستبيح في الغض عن أدب العرب مالا يباح ؟
وقد صور زكي مبارك خصومته مع أحمد أمين فقال :

« منذ أشهر نشر الأستاذ أحمد أمين مقاله الأول فيما سماه « جناية الادب الجاهلي على الأدب العربي » • فلم يعجبني : لأنى رأيته من الحديث المعاد • ثم لقيني مصادفة في « المترو » بعد ظهور مقاله الثانية ، فسألني عما أراه من الأفكار التي أودعها مقالتي • فقلت له : لم يعجبني غير نقد الشاهد الذي أورده من كلام ابن قتيبة • أما سائر أفكارك فتحتاج الى تحقيق • فقال : أنا دعوت القراء الى مناقشة تلك الأفكار وأنا أرحب بكل ما يرد الى من تصحيح •

فهل كان يدعوني الى أن أساجله الحديث ؟

كانت الصداقة بيني وبين الأستاذ أحمد أمين قد بلغت أقصى حدود المثانة والصدق • وما كان ينتظر مني غير ما يجب • وكنت والله خليقا بالتجاوز عن سيئاته ، لو لم يسرف في الاساءة الى ماضى اللغة العربية في وقت يحرص فيه العرب على تفهيم أبنائهم أن أجدادهم كانوا من أصحاب المنازل الرفيعة في العلوم والآداب والفنون وأنهم كانوا في ماضيهم من أقطاب الزمان •

وكذلك وقعت الواقعة ، وكان ما عرفه القراء من تمزيق الأوهام التي اعتر بها ذلك الصديق • •

• اهتم الاستاذ أحمد أمين بالنص على أن الشعر العربي كان في أغلب أحواله أدب معدة ، لا أدب روح وحجته في ذلك أن التكسب بالشعر كان عادة غالبية على أكثر الشعراء • وقد طنطن بهذه المسألة وأخذ يهيئها في كل مكان • وهذا الرأي مسروق من كتاب « البدائع » •

• عاب أحمد أمين على العرب أن يلتزموا افتتاح القصائد بالنسيب

وأن يتنقلوا بهذه العادة من جيل الى جيل ، فى حين أن الشاعر ربما لا يكون مشبوب العاطفة فى كل حين . وهذا الكلام مسروق من مقال أرسلته من باريس ١٩٣١ ومنشور فى البدائع •

• اهتم الاستاذ أحمد أمين بتوكيد القول بأن نزعه القرآن روحية لاحسية فقال ثناء الاستاذ محمود على قراة ، الذى عد كلامه من المبتكرات فهل يعلم أن هذا الكلام مسروق من قول صاحب التصوف الاسلامى جزء ٢ ص ٨٧ ؟

ثم يقول : ان الفخر بغيض ممقوت ، وقد تنابه على الأصدقاء قبل الاعداء ، ولكن ماذا أصنع ، وأنا اشهد آرائى تنتهب ، بلا تحرز ولا تفرق ، وبها يرد على خصومى حين يشتجر القتال وكأنها مما ابتكرت أفكارهم الثواقب وألستهم النواطق ؟

ثم يقول : ... اما بعد ، فقد انتهيت من محاسبه أحمد أمين بعد أن أرقّت جفونه خمسة أشهر ، كانت كآلف سنة مما تعدون . انتهيت من محاسبه أحمد أمين الباحث . أما أحمد أمين الصديق فله فى قلبى أكرم منزلة وأرفع مكان ، ولن يرانى الا حيث يحب ، فى حدود المنطق والعقل . فما أَرْضَى له أن يكون من الساخرين بالأدب العربى ، وماضى الأمة العربية . وسأبدؤه بالتحية حيث ثقفته فلا يزور عنى وجهها ، اذ أراه أهلا للكرامة والحب . وسلام عليه من الصديق الذى لا يغدر ولا يخون (١٣ من نوفمبر ١٩٣٩ - الرسالة) •

ثم عاد فكتب مرة أخرى • • لم يبق شك فى أن الأستاذ • أحمد أمين ، غضبان بسبب المقولات التى تجاوزت العشرين وأقول اليوم انى استوحشت مما صنعت • والاعتراف يهدم الاقتراف •

وليس من الكثير أن أرجو عفوه • فقد عفا أخ له من قبل • والأستاذ أحمد أمين يعرف أنى رجل ممتحن بعداوات الرجال • وقد عانيت من ذلك مصاعب ، لو صادفت رجلا غيرى لدحرته فى أقصر وقت • فمن حقى عليه وهو صديقى وجارى وزميلي ، وكان فى الجامعة المصرية أن يتجاوز

عن سيثاتي • انه والله المثل الأعلى - غفور رحيم (العدد ٣٣٦ - ١١ من ديسمبر ١٩٣٩ الرسالة) •

معركة مع السباعي بيومي

هذه معركة من أقسى المعارك التي خاضها زكي مبارك ، ولاول مرة صادفته الهزيمة • فقد واجهه السباعي بيومي ، بعنف وقوة عارضة ، وأخذ يكيل له النقود والمعارضات حتى اضطره الى اغلاق باب المناقشة • وكان زكي مبارك قد استهلها استهلالا غيفا في الرسالة (يناير سنة ١٩٤١) فقال : الى الاستاذ السباعي بيومي :

نشرت الرسالة كلمة بامضاء محمد فهمي عيد ، عن كلام وقع منك ، وأنت تحاضر بمدرسة دار العلوم ، فقد تحدثت عن أخلاق الشيخ سيد المرصفي ، بما لا يليق • فان كان ذلك الكلام لم يقع منك ، فأنفه في العدد المقبل • وان كان وقع منك ، فسارع الى الاعتذار ، ابقاء على ما بيني وبينك من وداد • فما أستطيع السكوت عن رجل يتعرض لأخلاق الشيخ سيد المرصفي بسوء ، ولو كان من أعز الأصدقاء • والى أن يثبت أن الراوى افترى عليك أعلق غضبي على ما بدر منك • فقد كنت أظن أنك تعرف بأن الشيخ سيد المرصفي له تلاميذ يحفظون عهده الوثيق • وسنرى كيف تجيب أن كنت في العدوان على ذلك الرجل العظيم من الأبرياء • • •

وفي العدد نفسه من الرسالة نشر كلام لطالب من دار العلوم ، يقول فيه : ان الاستاذ السباعي لم يقل عن المرصفي الا أنه كان يملكه الغرور • وعلق زكي مبارك على ذلك بقوله « سيري صديقنا السباعي أن تهذيب الكامل لم يكن الا خيانة أدبية • وسيعرف أن التناول على مقام الشيخ المرصفي لا يذهب بلا عقاب » •

ودارت المساجلة على النحو التالي :

السباعي : ما أحبها الى نفسي خصومة أدبية تقوم على صفحات الرسالة بيني وبين صديقي الدكتور • فان في الخصومات الادبية للمتخاصمين مجالا واسعا للبحث والتدقيق •

زكى مبارك : هذه طلائع غزوه شريمه تنقل عقل الأستاذ السباعي من وضع الى وضع • ثم قال انه لن يصفح عنه أو يشتغل محررا متطوعا بمجلة الرسالة ثلاث سنين وسأفهرده كما قهرت أخاه من قبل على أن يشتغل محررا متطوعا بجريدة البلاغ ثلاث سنين • أملى يخاف عواقب الجهر بكلمة الحق • وقد قضيت دهرى ممتحا بعداوات الرجال ؟ • •

السباعي : قال زكى مبارك ان الأستاذ السباعي له حقوق ، وما كنت أفهم الا أن تلك الحقوق انه هي حقوق الصداقة ، فأنى ما زلت بهاحفيا وعليها حريصا ولكنك جعلتها ياصديقى • اننى كنت دائما من أنصارك • وليس لئلى أن ينخدع بخدعة الصبى هذه تسوقها اليه ، فلحقيقة المرة التي أسمعت اياها بعد أن طغيت زمانا ولم ترد ، أنك ماكنت فى يوم زعيما فى الأدب حتى يصح أن يكون لك أنصار • وانما زعامتك نسيج عنكبوت ، حكته من حوله ، وتركت الناس تلهو به وتلعب •

• جعلت عنوان كلمتك الهجوم الأثم على الشيخ سيد المرصفي • وهذا امر غبت عنه ولم تشهدك فكيف أقدمت عليه قبل أن ينجلي لك • واذا سوغك تطاولك أن تسميه هجوما فكيف وصفته متسرعاً بالأثم فكتب الأثم بما وصفت •

• انى بهذه الخصومة جد مسرور • لأننى سأعرضك على الجمهور على حقيقتك التى غشيتها ما غشيتها • وتسامح الناس معك فيها ما تسامحوا وسيكون أول كشف لك فيما عملت واقعا على (زهر الآداب) (١) لأنه دون سائر أعمالك أشبه بما عملت فى (تهذيب الكامل) (٢) - الذى عدته جناية أدبية •

• أنا لم أكن أعرف أن اللغة العربية عنيقة بألفاظ الهجاء قبل أن أقرأ كلمتك الثانية • وأنا من الذين يدينون بوجوب طلب العلم من المهد الى اللحد • فمن واجبي أن أرحب بمن يعلمنى طرائق الباب •

(١) كتاب زهر الآداب الذى حققه الدكتور مبارك •
(٢) كتاب تهذيب الكامل الذى حققه السباعي بيومى عن الكامل •

♦ ان نظرية « فن المقامات » - التي ادعاها الدكتور مبارك ، والتي نقول بان بديع الزمان ليس هو مبدعها - وانما كان متأثرا بابن دريد الذي انشأ هذا الفن . هذه النظرية ليست جديدة ، وانما هي مأخوذة من زهر الآداب . وان كل رجال الأدب العربي يعرفونها ، قبل أن يعلن زكي مبارك انه كشفها (وكان زكي مبارك قد ذكر أنه أول من كشف النظرية وأنه سجلها في مقال له بالمقتطف (أبريل سنة ١٩٣٠) وكان من أثر ذلك ان ثارت بينه وبين مصطفى صادق الرافعي معركة قلمية ، ثم قال مبارك : ان السباعي بيومي سرقها من كتاب الشر الفني .

♦ تدعى أن صديقا عزيزا قال لك : ان الاستاذ السباعي كان في أحيان كثيرة يجعل مقالاتك من موضوعات الدرس بدار العلوم ، وذلك من شواهد الاعجاب . ويظهر يا دكتور ان هذا الصديق من الخبثاء الظرفاء الذين عرفوا فيك ما قرره ابن المقفع من أن عجب المرء بنفسه أرحب باب يدخل عليه منه الضاحك عليه والمضلل له . فهو قد أضلك . وما كان لشيء من مقالاتك أن يكون من موضوعات الدروس في دار العلوم ولوحدث ما سميت دار العلوم .

♦ تقول انك لن تصفح عني أو أشتغل محررا متطوعا في الرسالة ثلاث سنين ، وما هذا لي بالتهديد . فما أنا ممن يغيرهم التحرر ، ولا ممن تعودوا أخذ أجر على ما يكتبون لأنني أكتب للكتابة ، لا طمعا في مال . . وبعد أن وصلت المعركة الى هذا الحد . . كتب زكي مبارك مقالا صغيرا في البريد الأدبي للرسالة عنوانه (خصومة لاعداء) قال فيه « ان بعض كبار المقتشين أراد أن يقف الجدل الذي أثاره في وجه الأستاذ السباعي بيومي وأنا أجيب هذه الدعوة لأنها أول دعوة كريمة لكف الشر ، بيني وبين من أخاصمهم بقلمى لا بقلبي . فلم أسمع مثل هذا الصوت يوم خاصمت رجلا أعزاء لم يكن يسرنى ان يفصم القلم ما بيني وبينهم من عهود . وانصافا لنفسي أقول أنني كتبت ما كتبت وأنا أبتسم . فأنا قد أخاصم ولكن لا أعادي فما استطاعت الدنيا بأحداها الفواتك أن تضيفني الى أرباب الضغائن والحقود . وأنا اتهم بالقسوة والعنف بغير حق ، فما كان

من همى فى كل ما أثرت من المجادلات الا ايقاظ الروح الأدبى والقوى
أما ايداء الأدباء والباحثين فهو معنى لا يمر بخاطرى • لانى أرجو دائما أن
يكون الهدم فى عنفه من صور البناء •

ولكن معلقا كتب فى الرسالة يقول ان « زكى مبارك » احتج بالأفاضل
الذين تدخلوا ، للانسحاب من المعركة التى أثارها • ولكن اذا كان لدى
الدكتور ما يقوله بالأسلوب اللائق فليفتخر غير ملوم من أحد • وأن وساطة
هؤلاء كانت منصبة على « أسلوب الجدل » لأعلى موضوعه • أما الفحص
عن الحقيقة وتداول الأقلام فى الموضوعات الأدبية والعلمية فليس لهم
عليها اعتراض • وقالت الرسالة ان مقال السباعى بيومى وصلها وهياته
للنشر • ولكنها امتنعت بعد أن ألقى أحد المتناظرين بالقلم ••
وعندى أن هذه أول معركة انهزم فيها مبارك • وهى أول معركة
لأقى فيها مناضلا عنيفا •

مع العقاد

وكان لزكى مبارك مع العقاد معارك • ولكنها ليست فى عنف معاركه
مع أحمد أمين وطه حسين •• بل تبدو فيها آثار الترفق •

ولكن زكى مبارك على طريقته يكشف عن رأيه فى شخصية العقاد
فيقول (١) ، ان له شخصيتين مختلفتين كل الاختلاف • فالعقاد الكاتب
السياسى يرمى ويرمى ويظلم ويظلم فى كل وقت • فهو من أبناء السماء
عند قوم ، وهو من أبناء الأرض عند آخرين •

أما العقاد الكاتب الأدبى فهو من الطبقة الأولى بشهادة الجميع •

والعقاد الناقد لا ينحرف عن القصد الا فى حل واحدة • حال
الحكم على من يعاديه من المعاصرين • أما حكمه على المفكرين الذين بعد
عهدهم فى التاريخ فهو فى غاية العدل والسداد وقد يصل به الرفق الى
المبالغة فى اظهار المحاسن واخفاء العيوب •

(١) ١٣ من يناير سنة ١٩٤١ - الرسالة •

وفد شاع وذاع أن العقاد رجل حقود • وهو كذلك ، فالحق قدم
كبريات الفضائل في بعض الاحايين • والرجولة الحققة تفرض الشجاعة
الحققة • ولا تتم الشجاعة لرجل الا اذا جاز ان تصل به أحيانا الى حد
التهور والعنون • وما قيمة القلم اذا لم تحز بسنانه عيون المتعالمين والمتعاقلين
من حين الى حين « وما حظ الأمة في ان ينخلق جميع أبنائها باللفظ
والظرف •

وانحرف العقاد في كنيائته السياسية والتقديرية يشهد بأنه سليم الشخصية
وللسلامة هنا مدلول خاص هو اكتمال الحيوية والاحساس ، فالعقاد يصادق
بغف ، ويعادى بغف • فأصدقائه ملائكة ولو كانوا شياطين • وأعداؤه
أبالسة ولو كانوا ملائكة مقربين • وهو مستعد لخوض النار مع أصدقائه
ان أوجب الوفاء أن يشاطرهم عذاب الحريق • أما أعداؤه فهو لهم بلاء
وعناء • وهو يلقاها في السر والعلانية بأقبح ما يكرهون •

وهكذا يصل زكي مبارك الى أن يقول في العقاد كل ما يريد أن يقول
مع حالة ضخمة من التقدير •

ولكن زكي مبارك في سنواته الأخيرة ، وفي ابان أزمته لا يلبث أن
يكشف بعض الحقائق الخافية (٢٨ من يناير سنة ١٩٤٧) - البلاغ •
فيقول :

• زعم الأستاذ العقاد أن سعدا خلع عليه لقب الكاتب الجبار • والعقاد
كاتب بلا جدال • وشاعر من أكابر الشعراء • وله في نفس منزلة عالية •
حفظه الله من جميع الأسواء • ولكن الكاتب الجبار الذي غناه • سعد
باشا • هو عبد القادر حمزة باشا ، كما تشهد بذلك مذكرات محمد كامل
سليم ، سكرتير سعد زغلول • وقد أوضح مبارك ذلك بعنوان (نسجل
التاريخ قبل أن يضيع التاريخ) في ذلك الحين ، من كتابة هذا المقال •

هذا • وقد كان الاستاذ محمد كامل سليم ، السكرتير العام ، لمجلس
الوزراء ولهيئة المفاوضات ، خير منصف ، للتاريخ ، وللجميع ، وللقومية
المصرية ، التي لا تشوبها شائبة الحزبية • كما كان وما زال ، أدبيا ،
ذواقة بحاث عف القلم واللسان ، ذا بحوث وكتب قيمة ، وآراء حصيفة ،

ووطنية صادقة ، فأحبه الجميع ، كما كان محبوبا شقيقة المرحوم : حسين
كامل سليم .

زكى مبارك مع سلامة موسى

جرت بين زكى مبارك وسلامة موسى مساجلات • كان فيها زكى مبارك لبقا غاية اللباقة • ولم يكن عنيفا • فهو يبدو فيها حريصا على صداقه مع (سلامة) • غير ان الخلاف كان بينهما واسع الشقة • فسلامة لا يرى أن هناك قيمة لدراسة الأدب العربى القديم • وزكى مبارك يرى كل مجدة فى هذه الدراسات ••• لذلك فهو يناقشه على هذا النحو •

كنت بنت لسلامة موسى وجه الخطأ فيما ذهب اليه من الدعوة الى الاقلال من العناية بالأدب العربى • وكانت حجتي أنه يعنى الأدب الفرعونى مع أنه أدب موغل فى القدم ••• فكيف يلام رجل متى اذا قصر عمره على درس الأدب العربى ، مع أنه أدب حى ما زال يسيطر على أذواق الناس فى المشرق والمغرب • وهو فوق ذلك يفسر غوامض النفس العربية التى تلتقى الاسلام ونشرته فى العالمين •

وأعود فأقرر أن لدراسة الأدب العربى غايات أخرى غير تلك الغايات الدينية • وأبدأ فأنقض حجة الأستاذ سلامة موسى اذ يرى أن غاية الادب هى توجيه الحياة الاجتماعية وأن الأدب الحديث أنفع دائما من الأدب القديم •

ثم أرد عليه فأقول : الادب كما يكون ضربه من الاصلاح يكون نوعا من الوصف • وهو وثيقة تسجل فيها مظاهر الحياة الاجتماعية • وقد يصير دستوراً تخضع له الحياة الاجتماعية • فان كنت فى ريب من ذلك فراجع كتب الادب فى القديم والحديث ، وستراها سجلات دوت فيها أزمات القلوب والنفوس والعقول • والكتاب الاجتماعيون يعيشون فى عالم الواقع كما يعيش رجال القوانين • ولذلك نراهم يهتمون بشئون لا يلتفت اليها أحد من الشعراء • والأستاذ سلامة موسى كاتب اجتماعى ، وليس

بأديب • واللغة عنده ليست الا أداة تفاهم • وكل تأنيق في المصاراة يبدو
لعينه وكأنه لغو واسراف •

والأدب القديم لا يمكن أن يحتل رأسا مثل رأس الاستاذ سلامة
موسى •

•• والذى يهمنى أن أقرر أن الأديب لا يشوقه غير المعانى • وهو
من أجل ذلك لا يتقيد بالحدود التاريخية ولا الجغرافية • وهو لا يعسنى
بالمشكلات الا من الوجهة الانسانية • أما الأوضاع الاجتماعية فموقفه منها
موقف الوصاف الذى يشرح المحاسن والعيوب •

وهذا لا يمنع أن يكون الاديب من أهل الكفاح وهو حين يكافح
يصبح قوة خطرة فى الحياة الاجتماعية لأنه يحلق دائما فى الأجواء العالية
ولا يقنع بالقليل •

ولا يجد زكى مبارك أمامه بعد ذلك الا أن يهاجم سلامة موسى بعنف
« أن اهتمام الاستاذ سلامة موسى بالكلام عن الحرمان وتفاوت الطبقات
فئات ، خطفه من موائد الاجانب الذين كتبوا عن الاشتراكية • فليس فيه
أصالة فكرية • أما أعمالنا نحن فى درس أسرار اللغة العربية فهى الأساس
لزعامة مصر فى الشرق • ان تجننى سلامة موسى على مؤرخى الأدب العربى
بغير حق ، دليل على أنه : جاهل ، وجهول • وجهالة • ومجهال ، الى كل
صيغة من صيغ المبالغة انه يعادى لغة العرب بسبب بسيط : وهو أنها
لغة القرآن المجيد •

بين زكى مبارك وشوقي

يصور زكى مبارك فى هذه الكلمة قصة خلافه مع شوقى بشأن مقدمة ديوانه « الشوقيات » .

« (١) كانت الصلة قوية بينى وبين شوقى سنة ١٩٢٥ . وكان قد شرع فى طبع الشوقيات . فشاء لطفه وكرمه أن يدعونى لكتابة المقدمة بعبارة ما زلت أذكر نصها بالحرف « سيكتب الدكتور هيكل مقدمة تاريخية وستكتب أنت مقدمة أدبية .

وبعد أيام تلتطف فأهدى الى ما طبع من الجزء الأول ، مصححا بعضه لأكتب فى تقديمه ما أريد .

ورجعت الى نفسى ، فتذكرت أن المقدمات يلتزم فيها الترفق . وذلك ما يجعل بكاتب مشغول بالنقد الأدبى ، مع شاعر ما زال فى الميدان . وأسرعت فكتبت اليه خطابا قلت فيه : انى لا أستطيع كتابة المقدمة التى ينتظرها أمير الشعراء . فانى أخشى أن أقول فيها كلاما بعيدا عن هذه المقدمة ان رأيت فى أشعاره المقبلة ما يوجب الابتعاد . وهو ، بارك الله فى عمره ، لا يكف عن مساورة الشعر والخيال ، فى صباح ، أو مساء .

وفى عصرية اليوم الذى كتبت فيه ذلك الخطاب ، قابلت الدكتور « طه حسين » ، وأخبرته بما وقع . ففضب أشد الفضب ، وقال : « ليتك استشرتني قبل أن تصنع ما صنعت ألا تعرف أنك أضعت على نفسك فرصة من فرص التشريف ؟ لو طلب شوقى منى ما طلب منك وأنا خصمه - لاستجبت بلا تردد . » فشوقى فى رأيي أعظم شاعر عرفته اللغة العربية بعد المتنبي »

وبعد شهور طوال ظهر الجزء الأول من الشوقيات وبه مقدمة الدكتور محمد حسين هيكل (باشا) . ونادى المنادى بوجوب الاحتفال بتكريم أمير

(١) الرسالة ٢٩ من ديسمبر سنة ١٩٤١ .

الشعراء ، احتفالا يشترك فيه من يستطيع من أدباء الأمة العربية وبرعاية
سعد زغلول .

ثم يقام الحفل الحافل بدار الأوبرا فى التاسع والعشرين من نيسان
سنة ١٩٢٧ . ويقول الشعراء والخطباء فى شوقى مايقولون باطناب واسهاب
ويتلفت الدكتور هيكل ، كاتب مقدمة الشوقيات ، فىرى من الواجب
اصدار عدد خاص من السياسة الاسبوعية لتكريم شوقى . ويدعو للاشتراك
فى تحرير هذا العدد الخاص رجال كان فيهم كاتب هذا الحديث . ويرى
شوقى من حقه أن ينظر فى محتويات ذلك العدد فيشير بحذف مقالات ،
كان منها مقالى . ألم أستكبر عليه فأرفض كتابة مقدمة للشوقيات .

كانت السياسة الأسبوعية فى تلك الايام توجه التيار الادبى فى مصر
وفى سائر البلاد العربية . وكان اصدار عدد خاص عن شاعر من مثل هذه
هذه المجلة يعتبر تزكية أدبية تفوق الوصف . ولكن شوقى لم يرتح كل
الارتياح الى ذلك العدد الخاص ، فقد ظهرت فيه عبارات تفض كثيرا أو
قليلًا من مقام أمير الشعراء . غضب شوقى على ذلك العدد من السياسة
الاسبوعية . وكان شوقى اذا غضب ، غضب معه ألف مرتزق من ادعياء
الأدب . فمضى أولئك المرتزقة يقولون فى الدكتور هيكل ما تسمح بنشره
الورقيات المسماة زورا بوسم الجرائد والمجلات ، فكتب الدكتور هيكل
فى السياسة الأسبوعية مقاله المأثور « أخلاق شاعر الأخلاق » . وهو
مقال فصل فيه ما كان بينه وبين شوقى ، وتوعده تواعدا أليما . فقد نص
على أن شوقى لن يظفر مرة ثانية بمثل ذلك الاحتفال .

ورأيت أن أرجع الى الدكتور طه أستفتيه فابتسم وقال : كان مصيرك
سيكون أفضح من مصير هيكل ، لو كتبت مقدمة الشوقيات .

« ثم ماذا ؟ ثم ذهب شوقى الحقود . وشوقى الذى قطع ما بينه وبين
كرام الرجال لأسباب لا تستحق أن ينصب لها ميزان وبقي شوقى الشاعر
شوقى الذى رثاه المازنى يوم مات ، بعد أن قال فيه ما قال :

فسد ما بنى وبين شوقى بعد اعتذارى عن كتابة مقدمة الشوقيات

فانقطعت عن لقائه بمكتبه في شارع جلال ، وانقص هو أيضا ، فلم يعد يسأل عني وجاء ضغور امير شعراء الهند فأقام له حفلة في داره . ودعا اليها أساتذة الجامعة المصرية . ولكنه تجاهل اسمي ، فلم يدعني الى استقبال ذلك الشاعر الصانع .

وسمع بذلك الحداث جماعة من الصحفيين . فحرضوني على ايداء شوقي بمقل او مقنن ، وزعموا أن مال شوقي لا يدل بغير الهجاء . وما أنا ومال شوقي أو غير شوقي هل منحنا الله نعمة القلم الصوال ، لنبتز الأموال ؟ ان شوقي الحقود حرمني فرصة التمتع بصوت ضغور .

شوقي شاعر مصر ، وهو على جحوده أستاذ الأساتذة في ميدان القصيد فمن الواجب أن أحفظ عهده الى أن يموت ، وقد مات قبل أن يسمع كلمة نابية من قلبي أو لساني .

مع لطفى جمعة

كان بين زكي مبارك ولفطى جمعة معارك . هاجم كل منهما الآخر أعنف الهجوم . وكان من أهم هذه المساجلات معرضه لطفى جمعة لأرائه في الشعر الفنى فى القرن الرابع الهجرى . وقد رد عليه فى عنف ، وقدم بين يدي رده بهذه الكلمات :

« أما لطفى جمعة فأنا عائد اليه ، وماض فى مدرعه ، ليعلم أنى أصلب عودا من اولئك الرجال انذين استلانهم فصال فى تقديم وجل . وألف على حسابهم الأسفار الطوال (يقصد طه حسين فى كتبه عن الشعر الجاهلى) وسأريه أن الأدب أصعب مرتقى وأعز مثلا من أن يمتلك ناصيته من يقرؤه فى أوقات الفراغ ... قسّد تكون التى يحاول أصحابها أن يصبغوها بالصبغة العلمية ويبعدوها عن مدارات المحامين الذين يصورون الباطل بصورة الحق حين يشاءون . » وقد حدث أن دعى مبارك وجمعة الى مناظرة فى كلية الآداب بالجامعة المصرية (مارس سنة ١٩٤٠) موضوعها (انما يزدهر الأدب فى عهود الفوضى الاجتماعية)

وفد خرج زكى مبارك من المناظرة على حد قوله « ما ذكرت هذه المناظرة الا جزعت وتولاني الدم على الاشتراك في جدال يضيق به صدر الغالب والمغلوب لأنه لم يمض هفوات مزعجات »

ذلك ان « زكى مبارك » حمل لواء الراى الذى يقول بازدهار الادب فى عصور الفوضى الاجتماعية ، فواجهه الجمهور بالمعارضة ••• وعنده أن المناظرة لم تحمل المعنى الفعلى لها ••• « وهو أن من يحمل جانباً من الجنيين لا يعنى انه من انصار هذا الراى • وانما الأمر ان يأخذ كل مناظر نصيبه من المناظرة ليعرض المتناظران ما ذهبوا اليه على الجمهور ولا يعنى هذا الايمان بالراى » • ولذلك يعجب كيف قول بالزراية حينما نقدم لهذه المناظرة ••• وصور زكى مبارك موقفه من المناظرة فيقول ان اتحاد كلية الآداب اقترح عليه الموضوع ومضى يبحث عن مناظره •• ثم علم أن الأساتذة لم يرقهم أن يناظروا المشاغب الأكبر على حد تعبير الدكتور هيكل (وهل من العقل أن يتقدم أحد الاساتذة لمناظرته ، وقد شاع وذاع أنى أكبر المشاغبين ؟ ••)

• وهى تهمة ظالمة • ولكنها حقت على ، وسأقضى بقية العمر فى الدفاع عن نفسى ، ولكن بلا نفع ولا عناء • لأن الناس عندنا يؤذيهم أن يصححوا رأيهم فى رجل ظلموه بلا بينة ولا برهان •

وأخيرا ظفر اتحاد الكلية برجل يناظرنى • ولكن أى رجل ؟ كاتب مشهور كانت لى معه وقائع فى بعض الجرائد والمجلات ؟ فقلت فى نفسى هى مكرمة من مكرمات الأستاذ لطفى جمعة • فقد هداه القلب الطيب الى أننى رجل ينهائى الأدب والذوق عن الاستخفاف بأقدار (الزملاء) ، ويميل الأستاذ لطفى جمعة على أذنى ، وهو يقول :

أهنتك على أن عرضت سمعتك للأراجيف فى سبيل الحق • ثم ابتسم وانتظر أن يصنع ما صنعت ليظفر بتهنتى • وينهض الخصم الشريف ، فيسلك فى تحقيرى جميع المسالك ، ويدعى أننى فوضوى أئيم • وينهى الجمهور عن الانخداع بأرائى • ويعلن عجبه من أن يكون لى كتاب باسم (التصوف الاسلامى) فى مجلدين كبيرين ، مع أنى من أنصار

الفوضى الاجتماعية • ويقضى فى تحامله وتجنیه ساعة وبعض ساعة ، وأنا
سأهم مطرق ، أكاد أذوب من العُجل والحياء •

وأعود الى نفسى فأندم على تعريض سمعتى لهذا الضيم البغيض •
وأعرف أنى أخطأت فى قبول المناظرة مع هذا الخصم الشريف • وأعاهد
الله على اعتزال الناس الى يوم الممات • وما الذى يغرينى بصحبة بنى آدم ،
وليس فيهم غير شجا الخلق وقذى العيون •

لقد أقمّت دارى على حدود الصحراء ، لانس بالليل ، ولأنسى أننى
موصول الأواصر بهذا الخلق ، ولأناجى موات البادية حين أشاء •

لطفى جمعة الرجل الفاضل الذى أثبت عليه فى خطبتي ، يقضى فى
شتمى ساعة وبعض ساعة • تلك احدى الأعاجيب ان كان الفكر فى زماننا
من الأعاجيب •

أين أنا من دهرى وزمانى • أملى يشتم جهرة فى كلية الآداب ،
وقد حملت على كاهلى أحجار الاساس • هوذلك ، وعلى نفسى أنا الجانى
فقد عرضت سمعتى للجدل الذى يسمونه مناظرات • وينتهى الاستاذ
لطفى جمعة من خطبته ، وقد مزق آرائى كل ممزق • وقد شفى صدره
منى • وقد كانت بينى وبينه تارات وضغائن وحقوق (١) •

(١) من معارك زكى مبارك التى واجهته ولم يشترك فيها هى معركة
سنة ١٩٤٤ قام بها محمد أحمد الغمراوى ودرينى خشبة وامتدت من
فبراير الى سبتمبر سنة ١٩٤٤ لم يرد على ما كتب عنه الا بكلمات قصيرة
فى هوامش الرسالة •

الملاكم الأدي في ثقافتنا الحديثة

مبارك مع الزيات

كانت فترة عمل الدكتور مبارك في الرسالة هي أخصب فترات حياته الأدبية • فقد كتب بها مدة طويلة • وقد تولى مبارك الاشراف على مجلة الرسالة أغلب فترة الحرب العالمية الثانية على حد تعبيره اذ يقول : « حين خرجت أول صفارة من صفارات الانذار طار الاستاذ الزيات الى المنصورة ومعه الشيخ محمود زنتي • وبقيت وحدي أشرف على تحرير الرسالة بدون مكافأة لأن هذا العمل كان في نظري خدمة وطنية » •

وقد أشار زكي مبارك الى أن قلمه تجلى في الرسالة الى « أطف حدود التجلي » فقد كان يكتب في كل عدد ثلاث مقالات ، منها مقال باسمه • ومقال باسم كاتب كبير ، ومقال باسم الأديب المجهول •

ولكن زكي مبارك ترك الرسالة بعد أن وقعت بينه وبين الزيات خلافات متعددة من بينها خلافه بشأن دعوته للصفاء بين الأدباء وبين توفيق الحكيم الذي هاجم الزيات بحجة أنه حاد عن رسالته في الرسالة : وفي ذلك يقول الزيات موجه خطابه الى توفيق الحكيم •

« يقول (١) اني حدث قليلا عن رسالتى في الرسالة • وقليلا من معناها زكى مبارك • وزكى مبارك يا توفيق لون من ألوان الأدب المعاصر لا بد منه ، ولا حيلة فيه • هو الملاكم الأدي في ثقافتنا الحديثة أما عنفه وشمسه فهما الصنع المميز للونه • ولو شئت أن تجرد هذا الملاكم المبارك من عنف الهجوم وخشونة المراس لما بقى منه غير توفيق الحكيم وأسلوب الحكيم وحمار الحكيم •

(١) الرسالة ٢٩ من يونيه سنة ١٩٤٢ •

على أنه هو نفسه أول الشاهدين على أن صفارتي قد بحث من طول
ما أهابت به وهو في قفازه الستريسي يهـدر في المنجل بين الجبل ،
مفضيا بعض الأغضاء عن قواعد الملائكة •

وزكى مبارك بعد هذا سليم الصدر ، جريح القلب ، رياضي
الروح ، لا يتحرج أن يطلب الى صديقه في مقل هذا العدد أن ينصره
ظالما أو مظلوما ، في حدود تفسيره الخاص •

وقد رد زكى مبارك على الزيات يعلن مقاطعته للرسالة :

صديقي الزيات : حتى أنت قد خاب أملى فيك • أنا الذي دعنا
الى الصفاء بين الأدباء كما رأيت ، وبذلت في ذلك ما بذلت ، ورددت
الحقوق الى أصحابها • وأدبت الواجبات على تمامها ، وأزلت من النفس
أسباب الكدر ، وظهرت القلم من أدران البشر •

•• ليكن اليوم آخر عهدي بك وبالرسانه والأدباء •• لن أكتب
شيئا لك ، ولن أذكر بعد اليوم أدباءنا بخير ولا بشر • سأصمت عن
أشخاصهم صمت القبر ، لأنصرف الى الإنتاج وحده ، من حيث هو انتاج
ماضيا في اصدار كتبي لقرائي الأوفياء • فلا حلم في صفاء ، ولا أمل
في مودة بين أدباء •

وخلاف آخر وقع بينهما - الزيات وزكى مبارك - فقد اختلفا مرة
مرة بشأن مقل لمبارك عن الرسول •• فلما استدار العم ضلّب الزيات من
مبارك مقلّا لعدد الهجرة وقال له لا تكثر كما كفرت في مقل السنة
الماضية ••

ويقول مبارك : « سبحان الله • وأنا كفرت في السنة الماضية
يا زيات ، هل تصدق أن من خصومي من يدرك من عظمة الرسول
ما أدرك ؟ • ان بيني وبين الرسول صلة وثيقة هي البلاء بالندى والناس
فكيف يتوهم قوم أنهم يغارون عليه أكثر مما أغار عليه ، وهم لا يتقدمون
لنصرته الا مدفوعين بالثمن الذي أعرف وتعرف •

ان من خلق الله من يأكلون الشهه بفضل الرياء ، فكيف يؤذيهم
ان أشرب أكواب الصاب والعلقم بسبب القول الصريح ؟ ••

ويسجل زكي مبارك أن الزيات اخرجته من الرسالة بعد أن أتاح
الفرصة للكاتبين محمد أحمد الغمراوي ودريني خشبة في نشر تقدمهما
لكتابيه « الشر الفني » والتصوف الاسلامي ••

ولكن الزيات مع ذلك كان ينظر الى زكي مبارك نظرة تقدير ••
حيث يقول « ان كنت قرأت ما ألف وكتب في النقد والمناظرة ، فستظنه
خارجا من معركة بولاقية ، كان فيها شدالشعور ، ولكم الصدور ، ونطح
الروس ، وتمزيق الملابس •

وان كنت قرأت له التصوف الاسلامي فستتخيله ما زال في
ستريس ، مريدا للشيخ الطماوي الشاذلي • يعكف على الاوراد ،
ويشارك في الاشهاد ، ويحمل الابريق ، وينقر الدف فهو أشعث ، أغبر
ضاو ، من أثر الذكر والصوم والعبادة ••

وبالرغم من هذه السخرية به ، فزكي مبارك ، عنده - : « ان أردت
كلمة الحق » مجاهد بأسل من المجاهدين القلائل الذين شقوا طريقهم في
الحياة بالقوة ، وأخذوا نصيبهم من المعرفة بالله ، وأحلوا أنفسهم المحل
للالتق بالصراع •

وهو أحد الأدباء الذين لم يقيم مجدهم الأدبي على الظروف والحظ •
وان كان الحظ قد وقع في حياته فهو الحظ المنكود : لأنه يعلم
بكدح فلمه ، وتقدم بفضل جهده ، ثم كانت الظروف التي تساعد
ضيره تلح عليه بالنكران والحرمان من غير هواة •

ومن أثر ذلك كن هذا الاعلان المستمر عن نفسه وعن عمله وهي
صفة لا تتفق كثيرا مع وقار العلم وجلال الخلق • ولكنها أتت اليه من وراء
الوعي على ظن أن الناس ينكرون عليه فضله وينفسون عليه مكانه •

ولو استطاع زكي مبارك أن يتملق الظروف ويصانع السلطان ،
ويحذق شيئا من الحياة لانتفى كثيرا مما جرته عليه بدواة الطبع وجفاوة الصراحة

ولكن هذه الأغراض النفسية ستبقى فيه وفي الناس ، ويبقى ذلك
المجهود العلمي الضخم الذي قدمه الى الادب العربي ، في شتى مناحيه ،
شاهدا على صدق خدمته للأدب ، ورفيع مكانته في النهضة . .

زكي مبارك وأحمد لطفي السيد

هل تقف مساجلات احمد لطفي السيد مع هذا الكاتب ؟ ما أظن ،
فان « زكي مبارك » لم يترك كتابا دون ان يصونه ويندشه ويعترض
طريقه بالرأى ، ويعلن موقفه من آدبه وأسلوبه . ول زكي مبارك عنه :
« فأحمد لطفي السيد لا يؤخذ عليه الاعيب واحد هو أنه لم يستهدف لأى
خطر فى سبيل حرية الفكر والعقل والوجدان . وبذلك خلت آثاره من
اللهب الذى احترق به اشبعون من أقطاب الفكر واليين . .

ووصف زكي مبارك أسلوب لطفي السيد بأنه : كان بطيء الحركة
الى حد الجمود . وهو خال من البشاشة البيانية . وأنه كتب متعملا ،
متكلف وهو يجر كلامه بتأقل وإبطاء ، وأنه كتب هيوپ . والحذر
المأثور عنه هو الذى قضى بأن تمر ثورته الفكرية بلا ضجة ولا ضجيج .

وقال زكي مبارك « ان خطبة أحمد لطفي السيد هي لفظ مركب
مفيد بلوضع العربى ورد على لطفي السيد حين أشدد بالجمعت الانجليزية
وقال عنه : « انه لم يدخل فى حياته جامعة انجليزية . وأن السر فى دفاعه
عن الانجليز أنهم لا ينظرون بعين العطف الى من تتقنوا ثقافة فرنسية ،
فهو يريد أن يشهد العالم على أنه لا يؤمن بغير الثقافة الانجليزية . وانما
يفعل ذلك ، رغبة فى اقناع السادة الانجليز بأنه يصنع فى هواهم ما كان
يصنع عمر بن أبى ربيعة ، اذ يقول :

أحب لحبك من لم يكن صفيا لنفسى ولا صاحبا ،

زكى مبارك والرافعى

• وهاجم مصطفى صادق الرافعى (١) عندما كتب مقالته « صعاليك الصحافة » فقال :

« نأخذ فى حساب الأستاذ الرافعى ، الذى توهم أن الصحافة أصبحت فى أيدي الصعاليك • مع أنه مدين للصحافة أثقل الدين • ولولا الصحافة لظل قلمه يمشى مشية المقيد فى الوحل ، كما كان منذ سنين •

• أصدر الرافعى كتاباً أسماه « وحى القلم » • وطاف به على الجرائد والمجلات ، وكان ينتظر أن تقوم الدنيا وتقع ولعله كان يرجو أن تزلزل الجبال • فلما رأى الدنيا على حالها من الرزاة والسكون ، راح يهدد ويصخب ، ويتعقب ويتلوم ، ويبغى ويستطيل • ولم يحسب للعواقب أى حساب ••• أكان ينتظر هذا الكاتب أن يترك الصحفيون ما يشغلهم من شئون المجتمع ، السياسية والاقتصادية ، ليفرغوا لكتابه • فلا يكون لهم حديث سواه •• ؟

• ما رأيك اذا وقف لك أحد الصحفيين فى معركة فاصلة ورماك بحب التكلف والافتعال فى علم الانشاء والتأليف ؟ • وما رأيك اذا جازاك أحد الصحفيين ظلماً بظلم • وقل انك تعيش فى غير زمانك • وأن أسلوبك ليس الا صورة من العوج والالتواء ؟ •

مبارك وأحمد زكى (باشا)

• وهاجم أحمد زكى (باشا) شيخ العروبة • فقال :

« كنا نظن أن الادب البارع الذى يظهر فى مقالات شيخ العروبة أدب جديد رفه به أيام الشيخوخة • ولكن يظهر أن هذا الأدب صفة من صفاته لعهد الطفولة ••• فقد حدثنا حفظه الله أنه استباح أن يقول لأستاذه

فى المدرسه الثانوية (التجهيزية) « ما عندكش مرايه ؟ » • • • • • وكان فى
مقدورى أن اعمله بمثل ما عامله به الأستاذ الكبير ، المرحوم محمد
مسعود ، مدير امضوعات ، سابقا • ولكنى رفقت به لشيخوخته ، وقدرت
له ماضيه فى خدمة اللغة العربية • والله يشهد انى عصيت جميع
الناصحين ، فما رآنى أديب ألا حذرني عواقب ملايئته • وقد دعانى
الى مهاجمته ناس كرام يعرفون طباعه فأثرت الرفق ، رعاية للواجب ،
واحتراما لماضى (خم النوم) حرسه الله (١) • • •

وكان موضوع الخلاف « بردة البوصيرى »

مبارك والبشرى

• والمرحوم « الشيخ عبد العزيز البشرى » رجل صخاب ضجاج
يدق الأجراس الضخم حين يدخل الغابة للصيد • هل سمعتم بالرحى
التي تطحن بها القروية ، هو البشرى فى بعض نشره التفعاع • اذ يندر
أن تجد فى نشر هذا الرجل صفحة خلت من التكلف • • •

وهو كاتب يذكرك فى كل سطر بأنه أديب يتصيد الاوابد من
مجاهيل (القاموس) واللسان والاساس • • •

مبارك والمازنى والعقاد والبشرى

• « والمازنى من كبار الشعراء • ولكنه مشغول بالكتابة فى جميع
الأوقات ، لجميع الأحزاب • ولم يجد الفرصة للغد • وقد جنى المازنى
على نفسه بالكتابة اليومية • فلم يعرف قيمة الصبر فى الانحياز الى احدى
الجهات • فى زمن لا يعيش فيه المفكرون الا بأسننة من العصبية
السياسية والاجتماعية • • ولكنه يذكر المازنى فى مكان آخر (٢)

(١) ٢٣ من ديسمبر ١٩٣٢ - البلاغ •

(٢) الرسالة ٢٦ من يولية ١٩٤٣ •

فيقول : « انا لا ابالي نقد الدكتور طه حسين لاننى نقدته فى بحثه ، مقالة مقالة • فمن السهل ان يقول الناس انه ينتقد وفى نفسه اشياء وأنا لا ابالي نقد الأستاذ العقاد اى لان بيننا احقادا تنشر فى حين ، وتطوى فى بعض الأحيان وكان العيون ترى قبل عشرين سنة انك طويل جدا وان العقاد قصير جدا فشاء برك بصديقك ان تزعم ، انك القصير ، وانه الطويل • وما زلت تبنى وتعيد ، حتى آمن الناس بقولك ، وظنوا انك قزم ، وأن العقاد عملاق • »

ولكن هل كان هذا النقد الا سرا يضيفه زكى مبارك الى نما فى حياته من احساس بالتجاهل والنكران ؟! ...

لقد أغضب كل الناس ، ولم يترك فى قلب واحد من هؤلاء ، لمحة من لمحات الرضا أو الود ...

بل ان اندفاعه فى النقد كاد يخلق معركة حقيقية • فقد دفعه اندفاعه الى أن يهاجم الشيخ « سليم البشرى » شيخ الأزهر ، ووالد عبد العزيز البشرى ، ويقول ان شرح نهج البردة ، المنسوب اليه ، كتبه ابنه الشيخ عبد العزيز البشرى • وان الشيخ الكبير ، رحمه الله ، راجعه وحرر فيه بعض الأبواب ، فظن عبد العزيز وأخوته ، أن هذا الكلام فيه معنى اتهام والدهم بالتزوير •

ولقد رسم زكى مبارك صورة لهذه المسألة فى كتابه « الأسس والأحاديث » ، صفحة ٣١٨ تحت عنوان « الاستهداف للقتل فى سبيل النقد الأدبى » ، حتى ان عبد العزيز البشرى اتصل به تليفونيا ، وقال ان اخوته غاضبون لأبيهم ، وأنهم مستعدون لان يدبروا (أشياء شنيعة جدا) وأنهم قد يفكرون فى قتل زكى مبارك على باب داره •

وقد رد مبارك عليه بقوله « اننى لا أخافك ولا أخاف أخوتك ، ولو شئت ، لسمت فى حربكم ألف نبوت من ستريس • • »

وموقف آخر ، عرض زكى مبارك للمساءب ، يوم كتب مقالا فى « مجلة الفيوم » تحت عنوان (يا بحر يوسف ياما فيك كل بلطية)

وظن اهل الفيوم انه انما يعنى المرأة ... فحملت عليه صحيفة اخرى حملات واسعة ، وهجمته هجوما عنيفا . وهذا يبدو فلم رلى مبارك كما يقول دائما « امضى من السيف ، وأعنف من القضاء » ولى مبارك عبارات فى النقد . جد غريبة ، وجد عنيفة . فهو يقول : « سترى بيف أرجع اليك رجعة النيل فان عندى كلمة قاسيه لا يجروء على كتابها رجل غيرى ... عندى صواعق سأصيبها فوق رأسه ان حدثته نفسه بمصاولتى ... أنا لا أخف الجهر بكلمة الحق ... الحق الذى يعرفه الجميع اننى رجل مشغب .. ما أنكر أننى قد أبلغ أقصى حدود العنف حين أحارب أعدائى ، ولا عيب فى ذلك ، فالجروح قصاص .. اننى غمرت فى أكثر من ألف معركة أدبية ثم انتصرت فيها جميعه . فليس فى مصر عالم ولا أديب يستطيع أن يقول فى السر والعلن انه تنصر على زكى مبارك » وقد اشترك مبارك فى معارك متعددة غير التى رسمنا صوراً موجودة لها مع أحمد زكى (باشا) (نشرت فى باب شيث بن عربانوس) . ويوسف الدجوى ، وحسن القاياتى ، ومحمد عبد المطلب ، الشاعر المخضرم ، عليه رحمة الله ، ومحمد مسعود ، مدير المطبوعات سابقا ، وعبد الله عفيفى ، الشاعر .

المعلم الذى أثار المتاعب

بدأ زكى مبارك حياته معلما . وظل يعلم فى هذا الحقل ، حتى وصل الى منصب مدرس فى كلية الآداب . وعمل أستاذا فى دار المعلمين العالية فى بغداد . ثم عمل مقتصدا للتعليم فى وزارة المعارف . وكان مختصا بالتفتيش على المدارس الاجنبية . وكان من قبل رئيسا لقسم اللغة العربية بالجامعة الامريكية . وقد جمع بين العمل فى الأدب - والصحافة والتعليم .

ولكنه كان فى كل لحظة لا ينسى أنه واحد من المفكرين الذين يحملون القلم والذين يستطيعون عن طريقه أن يسددوا الضربات .. وكان يهدد دائما بأنه يستطيع أن يفضح خصومه على صفحات البلاغ ..

ولذلك كانت له خصومات ، مع وزراء المعارف ، أمثال السنهوري
واسماعيل القباني ، ومحمود فهمي النقراشي ... وقد نقله السنهوري
الى دار الكتب ، فكتب في البلاغ يقول :

« لن اطيع أمرك ، الا يوم يقوم الدليل على أنك وزير ، فقد
أسلمت أمور الوزارة الى (قباني بلا ميزان) - يقصد (اسماعيل
القباني) الذي صار وزيرا للمعارف في مستهل عهد حكومة الثورة .
« وأراد الوزير - وهذه عبارة مبسطة - أن يقيم الدليل على أنه وزير
بالفعل ، فأصدر قرارا بالاستغناء عن خدماتي » .

وفي هذه الفترة الحرجة من حياته قاضاه بنك مصر ، ندين عليه ،
وشركة مصر الجديدة ، وكان قد اشترى منها منزلا ... وامتنعت
وزارة المعارف عن دفع ايجار مدرسته باستئريس المقامة في منزله ..

وكان الغرض هسو تجويع الرجل الذي عرف كرامة الموظف .
ودعاه محمد حسن العشماوي (بشا) حينما عاد وزيرا للمعارف الى
العودة : فقال له « لن ندخلها ماداءوا فيها .. »

ولاقى مزيدا من المتاعب ، حينما نقد خطبة العرش في افتتاحية
الرسالة وحقق معه وطلب اليه أن يعتذر على صفحات الرسالة . فقال :
« لا أعذر عن مقال ، كتبه ، وأنا أعقد أنه حق » . فألغى عقده مع وزارة
المعارف . وقال له الزيات : يعز علي دكتوراً تخرج من عملك بوزارة
المعارف ، بسبب مقال في الرسالة ، وأرجو أن تقبل العقد ، صديق
النقراشي ، وقال العقد ان النقراشي لن يستطيع اخراج زكي مبارك من
التفتيش خوفا من السنة الجرائد الوفدية ، ولكنه سيتعقبه بالتفتيش لعله
يجد تقصيرا يقضى بفسخ العقد .

وفي تلك السنة زرعت فضة الله من الشمال الى الجنوب .
وفتشت جميع المدارس الاجنبية . وكتبت تقارير لم يسبق لها مثيل .
وجاء النقراشي وزيرا للمعارف ، وأمر السنهوري بمسابعة زكي
مبارك ، فأخرجاه من الوزارة .

وهاجم زكى مبارك المرحوم • على الجارم • • فقال : « انه كان كبير المفتشين عندما صدر قرار تعيينه مفتشا بالمندرس الأجنبية (سنة ١٩٣٧) • وكان يضيق صدره من الشعراء • • • وقد نشر شاعر قصيدة بامضاء (الجرم الصغير) • فأمر بنقله الى مكان سحيق • وقد مدح المرحوم على الجرم جميع الوزراء • وفي الخريف التي قصيدة طنانة في مدح الانجليز • وقال « انه يغتابني في كل مكان ، ثم يلتقي بالترحيب حين يراني »

وهاجم النقراشي • فقال : « كان النقراشي رئيسا للوزارة في آخر ديسمبر سنة ١٩٤٦ • والاقدار تخطى • أحيانا ، فيصير مثل هذا الشخص رئيسا للوزراء ، وقد ثار طلبة الجامعة ، فأصدر أمرا بأن يضربهم الجند بالرصاص ، وكانت معركة حامية ، بين الطلبة والجند ، فوق كوبرى عباس ، بالجيزة • • »

ويقول زكى مبارك انه عمل في دار الكتب في ٢٥ من ديسمبر سنة ١٩٢٤ فشرح الجزء الأول من الأغني • ثم دعاه الدكتور طه حسين لتدريس اللغة العربية في كلية الآداب فلما وقع الخلاف بينه وبين السنهوري أخرجته وزارة المعارف ، لأنه « موظف بعقد » ، ورأى السنهوري أنه ما زال ينتفع بأموال وزارة المعارف لأنه أستاذ الأدب العربي بالمعهد العلى لفرن التمثيل ، فكتب السنهوري بخطه كتابا يقول فيه : ان التدريس بالمعهد العلى مقصور على المدرسين بوزارة المعارف فانت معزول • يقول زكى : « خرجت والدمع ينفجر من قلبي ، قبل أن ينفجر من عيني » • وأعاد المرحوم على أيوب عندما جاء وزيرا للمعارف الى دار الكتب ، ثم أعاده طه حسين الى التفتيش في وزارة المعارف •

ورجع الى التفتيش عام ١٩٥٠ في الدرجة الثالثة ، كما كان يوم عينه المرحوم على زكى العرابي (باشا) عام ١٩٣٧ وكان اذ ذاك في حدود الستين •

ولعل هذا هو الذى كان يدفع المرارة الى قلم مبارك • فقد كان يرجو أن يتحسن وضعه المادى بعد حصوله على الدكتوراه الثالثة (التصوف)

التي نالها من الجامعة المصرية فقالوا له : لا يمكن أن تحصل على الترقية الا بعد طبع الرسالة • وقد كلفته الرسالة الضخمة أموالا كثيرة حين أعد منها خمس نسخ خطبة • • فكيف يطبعها وهو فقير الجيب » يقول في التعليق على ذلك : « حالى فى مصر حال عجيب • فقد عشت دهرى مظلوما وكان الظن أن يخف الظلم أو يزول بعد أن انتزعت الدكتوراه من أنياب الأسود • • »

• هل يصدق أحد أن وزارة المعارف المصرية لا تعطينى غير مرتب مؤقت الى أن يطبع ذلك الكتاب ؟ •

• هل يصدق أحد أنني لا أستطيع التعبير عن قيمة ذلك المرتب المؤقت ، لثلا يشمت أعدائي ، ولثلا يعرف الناس أن رجال الادب فى مصر ، قد يعيشون عيش الفقة والاملاق ؟ • • »

• هل أستطيع أن أخبر بأن وزارة المعارف فى مصر قدرت لى مرتبا لا يكفى أن يكون مصروف جيب • ولمن ؟ لرجل متهم بالغنى ، ولا يصحح ولا يمسى الا وهو مطوق بأغلال من التكاليف • • »

ويصور زكى مبارك عمله فى دار المعلمين العالية فى بغداد • فيقول : « خلعت عليهم - أى الطلاب - كل ما أملك من المعارف الادبية والفلسفية ، وعودتهم عادات حسنة ، هى الاعتماد على النفس • واقتحام أخطر الموضوعات ، ومواجهة أصعب المضكلات • وكنت أدعوهم الى احراجى بأدق الأسئلة الأدبية والنحوية والصرفية والبلاغية والفقهية ،

ويغمر زكى مبارك ويستطيل بأيامه » فى صحبة كلية الآداب التى أمضيت فيها مواسم شبابى ، يوم كنت فتى عارم العزيمة ، يؤذيه أن يقال ان فى الدنيا كتابا لم يطلع عليه • ويوم كنت مغمور القلب بأرواح الأمانى ، ويوم كنت أتوهم ان الجد فى طلب العلم لا يظفر صاحبه بغير الاعزاز والتبجيل ، ويوم كنت أخجل أن الكفاح فى سبيل الأدب قد تنصب له الموازين • كنت طالبا ومدرسا بها من سنة ١٩١٣ الى سنة ١٩٣٧ ، ودرت معها من ميدان الاسماعيلية الى ميدان الفلكى • ومن حى المنيرة

الى هصر الزعفران ، ثم الى حديقة الأورمان ، ولم يراحم هواها في فؤادي
غير الأعوام التي قضيتها بكلية الآداب في جامعة باريس .. ،

ولعل هذا كله هو الذي جعل « زكى مبارك » ينوح صارخا من
الظلم ويردد آهاته في كل آن . فقد كان يحس في كل لحظة أنه لم
يأخذ مكانه اللائق به بعد ثلاث اجازات (للدكتوراه) وأربعين كتابا
قيدت « صحبته المكتوبة وأثاته المكتوبة »

أَيَّامُ الْآخِرَةِ

لماذا تحطم زكى مبارك ؟

كان لابد لهذا الجهد المضخم العصبى العاطفى المندفع - كما يطلق
عليه زكى مبارك - ان ينفجر أو يتحطم .. فان هذا الرجل الذى كان
يتحدث عن « العافية » ويقول انه لم ير الطبيب يوما ، ولم يرقد فى
فراشه ، ولم يعرف المرض ، والذى كان ينتج فى خصوصية عجيبة .
ويصاوم فى عناد عنيف ، ويسافر الى أوروبا بلا زاد ، وله أسرة وأولاد ،
ويحصل على ثلاث اجازات دكتوراه ، ويكتب خمسة آلاف صفحة فى عام
واحد ، فى بغداد ، ويؤلف أربعين كتابا فى عشر سنوات ، ثم يجد نفسه
مازال موظفا بعقد فى وزارة المعارف لا يأخذ مكانه الحق ، فى الجامعة
أو فى مناصب الثقافة ... ويجسد الهجوم يواجهه من كل ناحية ،
والخصومات تدفع الأحقاد الى التبل منه ، ومناقشاته الأدبية ومساجلاته
تتحول الى عداوات وتملاً الصدور بالكرهية له ، فإذا به يبعد عن كلية
الآداب ، بعد أن يصل اليها . ويفصل من وزارة المعارف ، بعد أن يلحق
بها . وإذا به ينعى زمنه وحظه ، ويتحول الى اعصار يدور حول نفسه
ويتحدث عن آثاره وانتاجه ، ويزدهى بهما ويفاخر . ثم اذا به يصل
الى المرحلة العنيفة حين يحاول أن ينتج شيئا مثيرا ، فيتكلم عن الحب ،
ويحاول أن يكشف النفس الانسانية فى جرأة ، ويهاجم المرأة ، ويثير
الضجيج . فإذا لم يجد من ذلك كله ما يحقق له آماله فانه يجنح الى الخمر

والخمر أم الكبائر ، واذا به يسرف فيها ، واذا به يتعد عن المجتمع ،
واذا به يمضى أعواما مظلمة حزينة كثية ، لا يقرأ فيها كتابا ، ولا ينشئ
بحثا . واذا بالمساجلات ، يريد لها ، فلا يستطيع الدخول فيها . والكتاب
ينقدون كتابيه الغالين « النثر الفنى ، والتصوف الاسلامى » فذا هو غير
قادر على أن يرد على المهاجمين واذا به يهتم بالألحاد والكفر . واذا
هو عاجز عن مواجهة ما يكتبون .

واذا به يعود الى « البلاغ » لينكب فصولا ضعيفة الاسلوب ، ليس
فيه بيان زكى مبارك الرائع ، ولا فكاهته الحلوة ، ولا سخريته ، ولا
قوته ، وعرامته ، وصرامته وانما هى ذكريات تشل على ذهنه من وراء
الوعى ، فيكتبها فى أسلوب ساذج ، وعبارات مفككة ، ويعاود عبارته
التي تقول « نكتب التاريخ قبل أن يضع التاريخ » وما تزال الخمر تقصيه
من ميدان البحث والفكر ، حتى يوشك ان ينتهى ، ككتاب ، ثم كإنسان . .

وهذه نهاية طبيعية ، فان هذا الجهاز الضخم العصبى العاطفى
المندفع ، لابد له أن ينفجر أو يتحطم . وقد اختار أن يذوى ويذبل وراء
ذلك الشيء الذى يخدر ويذهب العقل لينسى هذه الآلام والمتاعب .

ولقد ذكر بعض النقاد أن امرأة لها أثرها فى تطوره وانحداره
وفى أزمتها ، فلقد كن يحب المرأة فى صورة لم تسو بشرا . وكان يحلم
بالحب الكبير الذى صورته بعض القصص العالمية الخالدة . ولقد افتقد
ذلك فى الواقع . فكان قادرا أن يصوره على لسانه كقصة ، يعيشها
ويرضى نفسه بأنه عاشها ولو بالخيال . . ولذا بدأ عليه التناقض . فهو
حين يدعو الى الحب والجمال ، ويسرف فى تصوير المرأة بصورة الملائكة
يحمل عليها حملاته العنيفة ، فيذكرها بأقصى ما يمكن أن تذكر به .
ولا شك أن « زكى مبارك » الفلاح الذى عرف الصوفية والدين فى أول
حياته ، والأزهر فى شبابه ، والذى سافر الى أوروبا وعاش مع الفرنسيين
فى عاصمتهم ، ورأى من صور الحرية والحياة والانطلاق ، ما رأى ، وهو
الرجل الذى زوجه فى أول شبابه ، حين خافوا عليه أوهام العاطفة
فأقام حياته ، وأنجب أبناءه ، قبل أن يذهب الى باريس ، وهو الرجل

الذى كان يفخر بزواجه الفلاحة التى حفظت عرضه مصونا ، وقلبه سليما ***

كان لابد أن تأتى اللحظات التى يحس فيها بحاجته الى عاطفة كبيرة تعوض احساسه بالنقص فى أوضاعه المادية والاجتماعية ، فالدكتور « مضروب فى ثلاثة » يعمل فى وزارة المعارف ، مفتشا للمدارس الأجنبية أو مراجعا فى دار الكتب و (زملاؤه) يشغلون أرقى المناصب ، فى وزارة المعارف ، والجامعة ، لأنه لم يكن متصلا بحزب من الأحزاب • أو ليس له فى الحكومة عم ولا خال ***

والحياة السياسية - اذ ذاك - كانت كذلك لاتعطى الا للأتباع الذين يسبحون بحمد هذا الزعيم أو ذاك •

أما زكى مبارك الذى عرف الحزب الوطنى فى شبابه ، ورأس تحرير جريدة « الأفكار » وعمل مع الصوفانى ، والذى سجن عاما كاملا ابان ثورة سنة ١٩١٩ فقد عز عليه أن يكون ذيلا لحزب من الأحزاب ، ولذلك تخلف ••

وكان كلما ارتفعت به السن ، وازداد درجات من الدكتوراه ، أحس بالندم على ما ضيع من وقت فى البحث وندرس ، فان دكتوراه باريس لم تمده بما كان يطمح ، فظن أن « دكتوراه » أخرى من الجامعة المصرية ربما تعطيه حقه ، ولكن دون جدوى •

هنالك أحس بالظلم ، وندم على أنه ترك صحبة النفوس والمحرات ، وقال : انه لو اتجر بالتراب لكان أغنى الأغنياء • وفى ابان أزمته هذه - وهو المرهف الحس - يرى أنداده ، ومن هم أقل منه ، يصلون الى أعظم المناصب ، بفضل الحزبية والنفاق *** بدت حياته ، وفيها فراغ ، وفى نفسه أزمة ، ولم تفده صرخاته ، ولم يكشف ما فى صدره من نوازع ولهب •• وهو العاطفى بطبعه ، الذى لم ينجح الى العقل ••

هنالك كان لا بد أن يفرج أزمته ، بحل من الحلول ، ولذلك كانت الخمر مغيبة عنه احساسه ساعة أو ليلة • ثم أسرف فيها ***

ومضى يحس في لحظات ، صحوه ، بالنقص في حياته الاجتماعية ، من حيث المنصب ، ومن حيث العاطفة •

تلك هي الصورة التحليلية التي أستطيع ان أجدها فيما قرأت لزكى مبارك في خلال هذه الفترة الأخيرة من حياته • ولهذا الاجمال تفصيل •

في خلال هذه الفترة كانت مقالات زكى مبارك في البلاغ ، بعد أن ودع الرسالة عام ١٩٤٦ الى أن توفي عام ١٩٥١ ، تمثل نفسيته المضطربة • وتصور هذه المرحلة ايضا المقدمة التي قدم بها لديوانه « الحان الخلود » وروى فيها قصة حياته ومصاوماته وخصوماته • يقول مثلاً :

« العالم الأول في سنتريس جده الشيخ دعاس مبارك • وكان من أكابر العلماء ، واقتفى أثره رجل فاضل ، هو الشيخ محمد غريب • ولكن اللجنة أسقطته في امتحان العالمية مرتين •

ويقول : « أما دكتور سنتريس فالجواب حاضر : وهو أنني بالقول والفعل كبير سنتريس ، واملاكي في بلادى لا يجتازها أحد الا بعد عبور نهرين ، وبعد أن تحفى قدماء من الشروق الى الغروب »

ويقول : « لقد عرف أبو شادى (صاحب أبولو) كيف يهاجر الى أمريكا فله معاش ضخم • وقد باع المناحل فى الاسكندرية بأربعة آلاف جنيه وأنا عاجز عن الهجرة لأسباب كثيرة أهمها فراق وطنى »

ويقول : الأرق يلazمنى فى الاسكندرية بدون ترفق • فمن لحظة الى لحظة أصحو وأوقد النور لأكتب للبلاغ أو أدون ملاحظاتي على المدرسين • أو لأقرأ كتباً فرنسية حتى أشبع • ثم أصحو مع الصافير ، لأؤدى الواجب الذى أكل منه لقمة العيش • ماذا أصنع ؟ ..

أنا رجل فقير يريد أن يعيش ، وقد سمعت الى الوظيفة ، لأعيش ولولا هذه الوظيفة لما كان من الممكن أن أرى خزان أسوان »

ويقول : « بأى حق يكون الأستاذ الزيات عضواً فى المجتمع اللغوى ولا أكون أنا عضواً فى المجتمع اللغوى • اثنان وأربعون كتاباً ، منهما اثنان باللغة الفرنسية ، ولسانيس ودبلوم ، وثلاث « دكتوراهات » ومع ذلك يقال اننى أدعى ما ليس من حقى ، شئ » يعيظ • »

ويقول : كتبت مرة فى البلاغ أن المجتمع اللغوى فقد هيبته حين خلا منه اسم زكى مبارك واسم خليل مضران • وانيوم أقول اننى زاهد فى عضوية المجتمع اللغوى ، لأن هذ استزبه ستجعلنى (زميلاً) لحضرة الأستاذ محمد فريد ابى حديد •

لقد قضى محمد فريد أبو حديد خمسين دقيقة ، فى كلام لا ينفع ولا يفيد ، فأضحكنى وأضحك أستاذنا « أحمد لطفى السيد » وأستاذنا طه حسين • أما أحمد أمين فقد عرف كيف ينتفع بالوقت ، فقد أمضاه فى النعاس • أما الدكتور منصور فهمى فقد اكتفى بالتشاؤب الموصول «

ويقول : « يقول المؤذن فى مسجد سيدى جابر « الصلاة خير من النوم » فأبتسم لأنى قضيت الليل سهران أعد النجوم • وقد عدت النجوم فرأيتها مماثلة لشعر الجياد من الخيل • وللناس عقول بعدد شعرهم وسهم وأنا أيضا لى عقول بعدد شعر رأسى •

والعقول فى لغة الصعايدة والشراقوة (عجول) •

ما الذى يوجب أن تشغلنى الذكريات ، فأذكر أيامى فى مصر وفرنسا والعراق • هذا توجيه الاشواق الى الأحباب • والمغنى المصرى يقول :

أنا قمت بالليل وجدت الغراب عطشان
علقت له ساقيه من فوق ساقيه وحبالها مرجان

ويقول :

أنا قمت بالليل وجدت الغراب عطشان
علقت له ساقية من فوق ساقية وحبالها مرجان
ويقول : « ان راتبى فى وزارة المعارف ضئيل • وأنا أكمله بالمكافأة التى أخذها من البلاغ أجرا على مقالات لا يكتب مثلها كتب ولو غمس

يديه فى الجبر الأسود • ثم انى أنفق نصف مكافأة البلاغ على كتب
فرنسية وعربية • فسا الذى يبقى لأنفقه على نفسى وعلى أبنائى ؟ »

ويقول : « حقيقة لم ألتفت إليها من قبل • هى عودة ذاكرتى • فقد
قضيت ثلاثة أيام بلياليها ، بدون نوم فأعدت على نفسى أكثر أجزاء
القرآن الشريف ، وثلاثة أرباع ألفية ابن مالك وثلاثة أخماس أشعار
لافونتين ولا مرتين ، وهوو جو ، ودى موسيه » •

ويقول : « أنا فى حرب مع زمنى • ولكننى سأنتصر لأن الله معى •
لا موجب للخوف من الغد • فقد يكون فيه جزاء لا يخطر فى بالك •
إذا غامت السماء اليوم ، فستصفو غدا » •

ويقول : « ان بنى آدم خائنون • تؤلف خمسة وأربعين كتابا ،
منها اثنان باللغة الفرنسية ، وتنتشر ألف مقالة فى البلاغ ، وتصير دكاترة
ومع هذا تبقى مفتشا بوزارة المعارف »

كما يقول : « يظهر أننى أجنبي • فان عيوني خضراء ، والعيون
المصرية سوداء • يجب أن ينشر البلاغ هذا الكلام السخيف ، لأنه سخيف
فالعقل أتعبنا فى هذه البلاد » •

ويقول : « سأكتب الى البلاغ حديثا أجمل من الورد فى الفجر ،
وأشهى من علم الفقير بأن فى جيبه خمسة قروش أو خمسة ملاليم • نكتب
للبلاغ بمداد من دمع العيون »

ويقول : أنا حزنت كثيرا حتى صار شعرى أشد بياضا من الصباح
ويقول : فى هذا اليوم سأدفع حسابى الى بنك مصر • وفى الغد أسافر
الى الاسكندرية مع سعدية لنغنى معا فى محطة الرمل ..

ويقول : أنا ماض الى تفتيش مدارس الاسكندرية • وسأنتهز
الفرصة فأغرق فى البحر الآمى • والمنتظر أن يوحى الى البحر بقصيدة
جديدة • أنا أمضى الى القطار مبكرا لأجد مكانا مريحا بين ركاب ، أختار
وجوههم ، وأعرف قيام القطار ، بالمزادة على « البلاغ » •

وفي الاسكندرية أواجه البحر عند غروب الشمس ، وهي تستحم
عند الغروب ، وتظل سباحة الى الشروق ، وهي الجمرة التي تظل تحترق
وهي تغرق •

من الأغاني القديمة : يا بنت اسكندرية مشسيكم ع البحر غيه
وسأشمت (بزملائي) في البلاغ ، وأنا منهم مقتاظ • (فعل شمت لا يوجد
في اللغة الفرنسية) سأتركهم لنيران الظهيرة في المطبعة بين تحرير
وترجمة وتخير والتخير هو استقاء الخبر ، وهي كلمة لا يعرفها
أعضاء المجمع اللغوى •

ويقول : ماذا أصنع ؟ يقال : اننى أتحدث عن نفسى كثيرا ، وجوابى
هو قول ابن الرومى :

وعزير على مدحى نفسى غير أنى جشسته للدلالة
وهو عيب يكاد يسقط فيه كل حر ، يريد يظهر حنه
لابن الرومى شارع باسمه بالتقرب من محطة الرمل ، فهل هو ابن
الرومى الشاعر ؟ يجوز ان يكون أحد اليونان سمع باسمه فسعى الشارع
باسمه •••

إذا نزلت فى محطة سيدى جابر ، وجدت شارع باسم عسر الخيام ،
والسبب يرجع الى أن أحد أعضاء البلدية تأثر بالشارع • وفي الاسكندرية
شارع باسم حفتى (بك) نصف •

وفي مقدمة ديوان « ألحان الخلود » (١) عبارات من هذا النوع أيضا
هى أشبه بتداعى المعانى والذكريات •

• لم تكن الحياة هينة فى العامين الماضيين ، فقد خرجت من عملى
فى وزارة المعارف ، بعد معركة عنيفة بينى وبين السنهورى ، فقد شويت
وجهه على صفحات البلاغ ، وجعلته أضحوكة يتندر بها الناس فى الأندية
والمجالس والقهوات •

(١) صدر سنة ١٩٤٧ •

♦ لى أبناء والحمد لله • ولكن أبائى من روحى أعز على من أبائى من بدنى : انها أشعارى ومؤلفاتى • اذن يجب أن أنفق على أبائى من روحى بعدما أنفقت على أبائى من بدنى •

♦ جاوزت الخامسة والخمسين ، ولم أشعر بمرض يلزمنى السرير ليلة واحدة وتاذت عيناى من كثرة المطالعة فى المؤلفات العربية والفرنسية ، ومع ذلك نجحت فى امتحان القومسيون سنة ١٩٣٧ ، حين عينت مفتشاً بوزارة المعارف • وكانت سنى تزيد على السابعة والأربعين •

♦ كان الدكتور طه هو رئيس اللجنة التى أودى أمامها امتحان الدكتوراه فى الفلسفة فاعتذر وأتاب عنه وكيل الكلية الأستاذ « محمد شفيق غربال » •

وأراد الدكتور طه أن يصرف الجمهور عن حضور امتحانى ، فأعلن فى جريدة الأهرام أنه سيلقى محاضرة فى الجمعية الجغرافية عن « فكاهات الجاحظ » • ولكن محاضرتة ضاعت عليه ، فلم يحضرها أحد بالرغم من الاعلان •

وفى الساعة السابعة اتصل تليفونيا بإدارة الكلية ليعرف النتيجة ويا هول ما عرف ! لقد عرف انى ظفرت بإجازة الدكتوراه فى الفلسفة برتبة الشرف ، فما كنت أنتظر أن أظفر بدرجة علمية يمضيها أحمد لطفى السيد ، وطه حسين ، وهو من كبار خصمائى • أخذت هذه الدرجة بالقوة ، قوة البحث ، قوة كتاب التصوف الاسلامى • وهو كتاب أشقيت نفسى فيه تسع سنين • انه كتاب لم يسبقنى اليه سابق ولن يلحقنى فيه لاحق ، ولن تنجب الجامعة المصرية فتى يؤلف كتاباً مثل هذا الكتاب •

♦ وكما قلنا من قبل ، قال : « كنت ألقى دروساً مسائية فى تدريس اللغة الفرنسية بمدرسة اليانس فرانسيز ، وكنت أخرج مكثوداً بعد ساعتين من الدرس • دخلت البيت ، فوجدته فى سكون على غير المؤلف ، فعرفت أن (أحمد) مات • وأن زوجتى لا تريد أن ترانى لئلا أقرأ فى سطور وجهها أن (أحمد) مات •

أويت الى فراشي ، وهو يقع في الدور الثاني من البيت ، وفضيت
الليل كله في أحلام مزعجت . ان للشكل طعما مرا غاية المرادة . وكفته
بيدي . وحملته الى متواد الأخير . »

« زكي مبارك في أيامه الأخيرة »

ولقد كن زكي مبارك - في أيامه الأخيرة - يرتاد انجوع والأندية
الأدبية وقد خلا أسلوبه من رفعة وصفائه . فإذا به يغني ويصرخ ويضحك
ولكن هذا التوقد في كلمات زكي مبارك لم يكن الا مقدمة لانطفاء هذه
الجدوة المتوهجة .

وفي هذه الفترة أخذ زكي مبارك - يهمل ملابسه وكتبه واتساجه
ويظهر ان مكتبته أصابها الفوضى ، كما ذكرت بعض الصحف ورسمته
عددا من الصور الفوتوغرافية - في برجه العاجي ، وقال المحرر :

« برج الدكتور العاجي مؤلف من خمس غرف وصالة كبيرة . ويضم
أكثر من عشرين ألف كتاب ، وضع بعضها في نحو ثلاثين دولابا ، ووزع
البعض الآخر في أركان الغرف ويقرب النوافذ والمقاعد ، وعلى الأرض .
وقد حرم الدكتور على الناس بلا استثناء دخول برجه أو الدنو منه .
ولهذا فان التراب وبقايا السجائر مازالت في مكانها تزيد وتتكاثر منذ
عشرات السنين . وكثيرا ما يهبط الوحي على الدكتور بفكرة رائعة أو بيت
من الشعر ، ثم لا يجد في هذا المخزن العظيم ورقة بيضاء ، فيسارع بتسجيل
الفكرة أو الشعر على خشب النوافذ ، أو جدران الحائط . وكثيرا ما غرت
(التليفون) بين المجلدان والأوراق فلا يعثر عليه الدكتور الا بعد جهد
جهد . »

وفي السنوات الأخيرة كان الدكتور مبارك يقيم طوال يومه وحتى
منتصف الليل في قهوة أمام ميدان التوفيقي . وقد أعفى نفسه من مهـ .
العمل في وزارة المعارف . ولم يعد يكتب الا كلماته في البلاغ . فكتب
« التاريخ قبل أن يذهب التاريخ » ، تحت عنوان : « الحديث ذو شجون . »

اليوم الأخير

توفي زكى مبارك يوم « ٢٣ من يناير ١٩٥٢ » بعد عملية جراحية كتب لها النجاح وقت اجرائها ، وجاءت نهاية أجله بعدها بساعات وفاضت روحه بمستشفى الدمرداش ، بينما يسير مع اصدقائه فى شارع عماد الدين ، فى مساء اليوم السابق لوفاته ، اذ اصيب باغماء مفاجئ ادى الى سقوطه على الأرض ، واصيب على أثر ذلك بجرح فى رأسه فحمله مرافقوه الى منزله بمصر الجديدة ، فى سيارة خاصة . وظل غائبا عن الوعي حتى الساعة الخامسة والنصف من صباح اليوم التالى . وكان كبار الأطباء قد أجمعوا على ضرورة اجراء عملية تربية فى الحبل . فنقل الى مستشفى الدمرداش وتمت العملية بنجاح . الا انه أصيب من جراء سقوطه بارتجاج فى المخ ، أدى الى مفارقة الحياة ..

وهكذا تحطم المخ الذى طالما كتب ، وصاوى ، وقاى ، وساجل ، وأثار الدنيا . وكان آخر حديث له فى جريدة البلاغ وآخر كلمة له .
هى : « أن (أحمد محبى فؤاد) يذكر فى خطاب له أن زوجته تستغرق فى الضحك ، حين تقرأ مقالاته ، ثم تبكى بعد ذلك . ويطلب توضيحا لهذه الحالة الغريبة . والجواب عند زوجتك يا سيد فؤاد » .

وفى هذا المقال ، قال زكى مبارك :

« أنا مسافر الى الاسكندرية . فهشونى يا قرائى ، سأرسل الى البلاغ مقالة أصور بها آلامى فى حياتى . فعل سافر معناه بالفرنسية : « قطع الرجل جزءا من حياته » . لأننى مفتش المدارس الأجنبية بمصر . وسأدفع فضاء الله من الشمال الى الجنوب .

وكان يقال من علمنى حرفا صرت له عبدا . والدكتور طه علمنى ثلاثة حروف : ألم تسمعوا أننى دكاترة ؟ ..

الدكتوراه الرابعة من جامعة الاسكندرية . وقد أعددت البحث . وسأنجح . فان تجاهل الأساتذة منزلتى ، فسأهجوهم فى البلاغ ، وهى فرصة لمقالة آخذ بها دنائير .

وقد رثاه محمد عبد القادر حمزة (باشا) فقال : « كان كنزا من كنوز الأدب العربي ، لا أظن أن مصر ستري له ميلا بعد عشرات السنين . كان هدية القرية المصرية الى الجامعة لزهريه ثم الى السربون ثم الى الجامعة المصرية . »

خلة الوفاء ظهرت في زيارته للعراق ، وبلغت ارقى صورها . اذ كان للفقيد الكريم قطعة من التبوغ المصري والوفاء ، ثم يلبث أن جعل له ولبلاده في العراق من نباهة الذكر وبعد الصيت ملا أظن ان العراقيين سينسونه أبدا فلما عاد الى مصر ظل اسم العراق لا يغادر قلمه ، حتى مات » .

وقال محمد زكي عبد القادر : « كان زكي مبارك كاتبا مطبوعا وأديبا (فنانا) وشاعرا موهوبا ، ورجلا انطلق في الحياة كما تشاء الحياة . ولو أراد أن يكون صاحب جده لكان ولكنه آثر أن يعيش بانعريض لا بالطول . أحب من الحياة شرها وخيرها فأحسن التعبير عنها . أحبها أعمق ما يكون الحب ، دخل مرة ، والجمعية العامة لنقابة الصحفيين منعقدة . وفي القاعة أكثر من ثلثمائة صحفي ، مشغولين بالانتخابات . وأخذ الأديب الكبير يغني . ولفت البعض نظره الى أن هذا ضحيج وعجيج . ورجاه أن يكف فابتسم ابتسامته الرقيقة البريئة . وقال : « كيف اغني يا أخى .. »

كان زكي مبارك يكتب لنفسه . وهذه هي سمة القوة في الفن . لم يحاول أن يزوق أو يلبس عمامة الواعظ أو يدعي أنه رجل لا يأثم ..

وصور محمد بيومي الجنيد العقدة النفسية التي جعلت من انتاج الدكتور زكي مبارك في بضع السنين الأخيرة انتاجا سطحيا ، والتي جعلته ينطوى على نفسه فهزت من كيانه . ولكنه كان يغالب دهره ، ويحاول الصمود أمام الزمان . وكثيرا ما كانت مقالاته في العهد الاخير مرآة تنعكس عليها أحاسيسه ، فيشكو ثم يشكو ، ثم يعود اليه صحوه فيرى نفسه على حقيقته ، أديبا ملأ الدنيا أدبا وعلما . وأضاف الى المكتبة العربية ثروة ضخمة هي عصارة ذهنه سنوات طوالا . »

وبعد !

هل أستطيع أن أقول اننى استطعت أن ارسم صورة لحياة زكى مبارك ودراسة لأدبه ؟ ..

الجواب : اننى لم أبلغ الغاية التى ترضينى • وانما أردت أن أرسم صورة خفيفة الظلال غير عميقة لهذا الكاتب الذى يمثل جانباً قوياً من جوانب أدبنا المعاصر ، والذى مضى منذ عشر سنوات ، دون أن يجد من يكتب عنه كلمة ، أو يعرض سيرته وأدبه للناس ، بعد أن كان يملأ الدنيا ويشغل الأدباء والمفكرين ..

لقد كان فى منهجى أن أعطى هذه الصورة ، وأكتب دراسات عن أولئك الذين نسيهم الناس وغفل عنهم أقرانهم وزملائهم وقد بدأت بالزهاوى • وأرجو أن أكتب دراسات أخرى عن أعلام لم ينالوا ما هم أهل له من تقدير •

ولقد حاولت أن أصور (زكى مبارك) دون تحيز أو مجاملة • لم أجعل لعاطفتى كبير دخل فى دراسته • وقد كبحت جماح مشاعرى عنه حتى يظهر بخيره وشره ، دون عدوان عليه أو مبالغة فى تقديره •

فهل ترانى وفقت فى رسم هذه الصورة ؟ ..

ولقد جعلت لكلام زكى مبارك المقام الأول فى هذا البحث وحاولت أن أجعله يرسم الصورة بنفسه دون (رتوش) •

كان زكى مبارك منبسطة الأسارير ، ذا عينين خضراوين له جسم متوسط الطول ، متين التراكيب • يقول « ورثت خضرة العينين عن أمى ، سقى قبرها الغيث » •

وقد وصف نفسه بأنه الكاتب الوحيد الذى يخجل من أن يقول فى السر ما يعجز عن قوله فى العلانية • وهو يعيش فى وطنه عيش الغرباء • وليس لديه من الوقت ما يمكنه من زيارة الشواطئ وقد شغل وقته

بالتأليف والتصحيح ، من اصباح الى منتصف الليل • ووصفه خصومه بأنه
غير مصقول •

ويقول : انه سيموت قبل الأوان بسبب الاسراف فى الطعام والشراب
ووصف النقاد أدبه بأنه أشبه بالعواصف (١) الثائرة ، غير انها تهدم
لبنى ، وتقلع لتبت شجرا مشرا طيبا •

يفخر بأنه فلاح لا يؤذيه النوم فوق الأرض الجرداء ، وعندما بدأ
حياته صوفيا كان كثير التساؤل عن كل شيء • وكذلك عاش موصول النقاش
والمجاج •

وصف نفسه بأنه يعشق جميع الصور ، ويهيم بجميع المعاني ، وظواهر
الوجود • صور شعرية تموج بألوان السحر والفنون •

وهو يرى أن توهج الشيب فى رأسه لم يخمد نار شبابه • يخيفه
البحر أعنف الخوف ، ولكنه لا يخاف الفرق ، انما يخشى الدوار الذى
عنى أهواله عشرات المرات من عبور البحر المتوسط من الاسكندرية الى
مرسيليا •

يرى أنه وقف لأعداء العروبة والاسلام بالمرصاد • مزق أوهام
الخوارج عن العروبة والاسلام شر ممزق ، ودحر من سولت لهم أنفسهم
أن يتناولوا على ماضى الأمة العربية وعادى من أجل الحق رجلا ، يضرون
وينفعون • ولا ينظم الشعر الا اذا جاشت نفسه وفاض قلبه •

أبرز مظاهر أدبه ، العنف ، والوصول الى آخر الشوط فى الاعجاب
أو الكراهية • يؤمن بأن الآثار الأدبية والفنية والطبيعية لا تعطى سرها الا
للرجل المنفرد • وهى أشبه بالغبوانى تنفر من الصاحب والشريك •

يؤثر الأدب الصريح المكشوف على الأدب المقنع الهيب • يرى أنه
لولا نشأته على الوقار لكان من كبار المصارعين • يرى أنه لم يكن الا طيف
زار فى السحر ساقية الكرخ • وفى بغداد أحب العراق • ومن أجل
معه شراب ماء الفرات صرفا ممزوجا بالطين فرآه أشهى من الرضاب المعسول

(١) من مصطفى سلامة (مجلة الثقافة)

من طرائفه أنه في خلال زيارته لبعض أنحاء العراق رأى نباتاً اسمه
(انهضخ) الذي يذكر اسمه في مقدمات كتب البلاغة يقول : « وقد بلغته
تحيات الأستاذة بالأزهر الشريف •

ويرى أن كتاب التصوف الاسلامي ، هو خير ما كان وما سيكون في
التعبير عن العبقرية العربية •

ومن عباراته الجميلة قوله : « لقد سمعت أنك بعث دارك بـثمن بخص
تسد ديونك فهل علمت أن لك عقيب اندار ؟ »

وهو يؤمن بأن العزلة أصبحت طبيعة ثانية له لا يمكن منها الخلاص
وأنه ما دخل بلدا الا أذاع ما فيه من محمد ومناب •

وعنده أن المجد أعظم من الحب • وأن المجد هو الذي يسوق أسراب
الملاح صاغرات •

وقد عرف زكي مبارك بالولع بالعبارات الفرنسية يضعها بين السطور
دون أن يترجمها • وكان يكتب اسمه : (محمد زكي عبد السلام) •
ويطبع مؤلفاته على حسابه في الاغلب ويوزعها في البلاد العربية •• وقد
غنى بصوته في الاداعة قصيدة « غرام يوم الثلاثاء » ••

ومن عباراته : أن المستميت لا يموت • فأبرز فنون أدبه : الجدل
والسجال • ويوصف أدبه بالحماسة ، والاندفاع العاطفي ، والحديث
عن النفس • وقد كان يرى أمامه صورة رجل واحد ، يريد أن يكون
نده وقرينه ، وهو طه حسين •

وبعد • فهذا زكي مبارك بحسناته وسيئاته • أردت أن أعطي صورة
منصفة صحيحة عنه بخيره وشره ، أردت أن أرسم له صورة كاملة ، لم
ألجأ الى التحليل كثيرا ، ولكني تركته هو يتكلم ويرسم الصورة ، صورة
الانسان ، يضعفه وقوته ، في أوج قوته وشجاعته ، وفي ساعات ظلمه
واحساسه بالكرب ، وشعوره بأنه مغبون لم ينصف •

ان عيب زكي مبارك ولعله من حسناته أو علامات الخلاف بينه وبين

كتاب جيله أنه كان كتابا مفصوحا صريحا ، سجل كل شيء ، ولم يخف عنا شيئا من حياته العامة وخاصة .

• أما غيره ، فقد أظهر جوانب القوة ، واخفى جوانب الضعف .

ان عيب زكي مبارك أنه ترك لنا مذكراته فلم تكن في حاجة كبيرة الى البحث عن خلفيات حياته . لذلك لم يكن هذا الكتاب الا تنسيقا لأرانيه وتقديمها في صورة تعين على رسم صورة لحياته وشخصيته .

ولم يكن من الممكن أن تتجاهل شيئا من الصورة ، لأنه سجلها بقلمه :
سجل أهواءه مبادئه .

ولكنك حين تقرأ هذه الصفحات قراءة انصف ، تراه عظيما ، وترى صراحته ونقائه واضحين في كل حركة ، حتى في مجونه وشماسه . فانه يجعلك تنظر اليه في ثقة ، حين تراه يحدثك عن كل شيء في جرأة ودون خوف : « ان الذي يخدعك هو الرجل الذي يخفي عنك أشياء ، ويظهر أخرى . انه الرجل الذي يداري أنيابه ، ويبدو لك في صورة الوقار والسماحة وهو مطوى الاضالع على الغل والحق .

لقد كره مبارك هؤلاء الناس ، وأراد أن يغير التقليد ، فيبدو لأول مرة في تاريخ أدبه المعاصر الأديب الواضح الصريح فلنعجب به ولننظر له على أنه انسان يخطئ ويصيب ، كل ما هنالك أن الناس الذين نعرفهم قد توقروا وأخفوا عنا حياتهم الخاصة ، أما هو فكان كبير الثقة بأننا لا ندرجه عندما يكشفها لنا .

ان « زكي مبارك » في حقيقة أمره يصور جنبا قويا من تاريخ أدبنا العربي المعاصر وهو مرآة لجيل كامل . فاذا تساءلنا : هل مات أدبه ؟ قلنا : لم يموت . وعندي أن أدب زكي مبارك سيحيا لأن كاتبه حارب الاستعمار . فقد ذهب الى فرنسا وعاد ، وما زالت أمانته لأتمته أكبر من أمانته للغرب . ولم تحص عليه كلمة واحدة انحرف فيها الى دعوى التعريب ، بل لعله كان قد ازداد عمقا في فهم القومية العربية والايمان بوطنه الكبير .

ولم يكن زكي مبارك صنيعا حزب من الأحزاب . ولم يكن له سناد

من الأسندة التي رفعت كثيرا من الأدباء في مصر • فهو يرى أن أحدا لم يعز أدبه كما أعز سعد زغلول أدب المنفلوطي والعقاد • وكما أعز ثروت أدب طه حسين • وكما أعز محمد عبده أدب حافظ • ولم تقم قيمته الأدبية على أساس من الشهرة السياسية ، ولم يصل الى مركزه الأدبي بفضل الحزبية المعروفة اذ ذاك •

وزكى مبارك ، الى هذا ، له قدرة واضحة على تصوير السمائل والأحاسيس ، وقد خلق فنا جديدا ، لم يصل الى مباراته فيه أحد ، وفي أسلوبه رصانة وبلاغة ، يمتزج بالبساطة والطرافة • وما من موضوع علمي يطرقة ، الا أحسست انه يمزج الجد فيه بروح الفكاهة فاذا انت تسر منه ، ولا تخشاه • وقد اخترع آفاقا جديدة في الكتابة الرمزية • كما ابتدع نماذج ، جرى على لسانها ما عجز عن قوله صراحة •

وقد غضب عليه الكثيرون - ومنهم المازني - لأنه على حد قول المازني « يحشر في كتبه كل ما يسمعه من الناس ، في مواطن الجد والهزل • ولا يعنيه انه يسوءهم ان يروى عنهم ما يمضون به أوقات الفراغ في مجالس السمر أو اللهو » •

ويلحق زكى مبارك على ذلك فيقول •• « ولنفرض أن في تعقب هفوات الناس متعة لبعض الأهواء • فهل غاب عن أذهان الكتّاب أن المجالس فيها من الشعر والجاذبية ما لا يوجد فيها من العيوب ؟ »

ان هناك أرواحا تشوق الى تعرف الكرم والنبل في السمائل والخصال وتشاق الى معرفة الجوانب القوية من أخلاق الرجال • فلا يظن أحد اننا نقع الصدق حين تتغاضى عن سرد العيوب • فنحن نعرف أن العصمة لله وحده ، وان في كل امرئ مغمزا ، ونعرف بجانب ذلك ان الخير في الانسانية اقوى من الشر ، وأن الانسان بطبيعته مخلوق نبيل ، لا يغيره عن الفطرة الا أصدقاء السوء من الناس ومن الأراء •

وهو في كل مكان يحل فيه ، نجده يخزن لأدبه ، ويعب من رحيق

الحياة ، ليحيل ما يرى فنا من فنون الأدب فاذا ذهب الى بحيرة التمساح ،
ابان احتلال منطقة القناة ، وتطلع الى قلمه ، فانه يقول :

« وقفت على شاطئ بحيرة التمساح وقفة الغريب .. »

— ما اشقى أن يعيش المرء في بلاد عيش الغرباء • فهلا تصدقوناني
لم أستطع التفاهم مع من رأيتهم على ذلك الشاطئ • الا باللغة الفرنسية ؟

زرت ذلك الشاطئ • مرة قبل نصف الليل ، فرأيت مكانا تأتلق فيه
المصابيح • وكان في نيتي ان اركب زورق لأشهد جمال الليل في بحيرة
التمساح • ثم رجعت عن تلك النية • عز على ، أن تشهد مساء تلك
البحيرة مصرياً يلهو ، خشيت أن تسألني ميه تلك البحيرة عما أملك من
سفائن • خشيت أن أجهل مصري في تلك الميه فاعتصمت بالشاطئ •

وهو يصدق حين يقول : « وأوصى بزيارة البحر من حين الى حين •
فهو من أقوى مصادر الايحاء • وهو الذي فجر ينابيع الشعاعية في
صدرى • فقد عبرته أربع عشرة مرة في ذهابي وايابى من القاهرة الى
باريس » •

فاذا ذهب الى الصعيد بغية التفتيش على المدارس ثم ينس قلمه ، ولم
ينس الأدب ، فهو يسجل ملاحظاته وآراءه •

« قطار الصعيد » ••

« في هذه اللحظة أشعر بالندم على أنني ركبت القطار السريع ، ولم
أركب القطار (القشاش) • وهو القطار الذي يقف في جميع المحطات ،
ويباع فيه القصب والبرتقال بسعء •• يمر القطار السريع على قرى
الصعيد مرور الطيف • فلا يكاد المسافر يتذكر أن في كل قرية من تلك
القرى أرواحاً وقلوباً ، ولأهلها تاريخاً أو تواريخ •• هذه منارة تدل على
مسجد • فأين من يذكر أن مساجد الصعيد كان لها أياد بيض في حفظ
العلوم الاسلامية ؟

وذاك فلاح يناجي الأرض مناجاة الحبيب المحبيب ، فأين من يذكر أن

الفلاح المصرى قد يكون أخوف الناس من الله ثم لاتمنعه تقواه من انتهاب
شبر أو (فتر) من أرض الجيران » •

وقال : « أحبك يا وطنى • أحبك • أحبك باعظم مما أحبك مصطفى كامل ،
ومحمد فريد ، وسعد زغلول • • أحبك يا وطنى وأستعذب عذابى فيك •
لأنك فى عينى وقلبى غاية فى روعة الجمال • لم يعان أحد من الظلم فى
وطنه ما عانيت ، فما زادنى ذلك الظلم الأثيم الا عرفانا بجمال وطنى •
وهل رأيتم جميلا غير مظلوم ؟ »

وهكذا : الصديق هو أول ميزة لأدب زكى مبارك •

ركما قلنا من قبل ، فان من الصديق ، قوله : « يسرنى أن أسجل
اعترافى بالجميل لزوجتى الفلاحة التى سادت سيرة أمها ، وجدها •
فحفظت قلبى سبيما من الهموم التى تزلزل عزائم الرجال • وهو يصور
مشاعره بالنسبة لكل ما يراه ويربط بين مرائيه وبين الأدب » •

« ليس لدى ما يمنع من الاعتراف بانى لم أر الطاووس وهو —
ينشر جناحيه زهوا واختيالا الا منذ يومين • • ولقد احيا فى نفسى هذا
المشهد حسرة قديمة طالما عذبتنى بصنوف الآلام ، لتقصيرى فى دراسة
الطير والحيوان ، ثم سكنت قليلا حين تذكرت اننى لم تفتنى فى دراسة
الحيوان جملة واحدة ، فقد اهتممت بدراسة الحيوان الناطق الذى اسمه
الانسان •

على أن الأدب الذى شغلت بدرسه ، وقضيت فيه أنفـس أعوام شبابى
ليس شيئا آخر غير دراسة أوهام الحيوان الناطق واحلامه ، وتصوراتـه وكيف
يحب ، وكيف يحقد ، وكيف يخطئ ، وكيف يصيب •

وقد ابتلانى الله بطوائف كثيرة من الدسائس والكائدين والمسلم ،
فكانت فرصة عظيمة لفهم غرائز هذا الحيوان ، وطباعه ، وميـوله ،
وأطماعه » •

وهو صادق الايمان بوطنه ، وبالأدب العربى • يردد اسمهما فى كل
وقت اذ يقول :

« الى الأدب العربي يرجع الفضل في تأريث البصوة العربية ، »

وكان يرى « ان اعظم مجد لمصر هو ان تستصيع التفاهم مع الأمم العربية الاسلامية في اشرق لتتخذ منهم دروع حصينة ، تقى اللغة العربية عدوان اللغات الاجنبية . وهو يرى ان أدباء اليوم تغلب عليهم « الحذر والتهيب . وقد ابتلتهم المدنية بضروب من الصقل والتهذيب » وهي شارة العبودية ، عند من ينظرون في البلاد أنهم يجعلون الأدب مذهب من مذاهب العيش . والذي يتأدب ليعيش يظل طول دهره ذليلاً جباناً . لا يصلح لجدل ولا نضل ، ولا يلين قلمه الا في مدارج الرياء . »

وهكذا يبدو أدب زكي مبارك في صورة الصراحة وانصاف ، ويصل فيها الى اقصى الحدود . .

بل انه يرى ان الأدب عند بعض الأدباء ليس الا وثبة وصولية ، يحققون بها غرضاً . ثم ينتهي الامر . . يقول : وكبر الأدباء في مصر لم يعد لهم الا الظفر بالراحه وبلهنية العيش ، وهم ينظرون الى الادباء المجاهدين نظرات لا تخلو من الشئمة والازدراء . وكاد الجمهور يطمئن الى ان الأدب ليس الا وثبة وصولية يصطنعها من رزقهم الله حسه المعاش .

وبعد . فان جملة القول ان « زكي مبارك » قد عاش أدبه بصيغته الريفية بكل ما فيها من صراحة وخشونة وصراع . ولذلك وضعه البعض بأنه غير مصقول . وقال عنه آخرون انه الملاك المادبي ثقافتنا الحديثة . ولكن زكي مبارك الريفى المزعة لم يكن عند غير الخشونة والعنف والصلابة . وهى صفات ربما كانت تحمل محمل النقد . ولكنه كان ريفياً أيضاً فى صدقه وبساطته وصراحته ، وريفياً أيضاً فى نقاء قلبه وبعدد عن الأحقاد ، وإيمانه الصادق بالرأى الصريح ، والنأى عن الدلة والتناق .

فلما حاول زكي مبارك ان يصل الى أرقى الدرجات ، ووجد من الموانع ما حال بينه وبين ذلك ، ذهب بقوته الذاتية ، ولم يعأ بأى معوق ، بل انه فعل ذلك وهو زوج ، وله أولاد . قد يقال انهم ربما يمنعون الرجل - أى رجل - عن الاندفاع فى مغامرة لا يعرف لها غية .

واستطاع ان يصل الى ارقى تدرجات العلمية • ولكن صراحة زكى مبارك واعتزازه بكرامته ، وصدقه ، وبعده عن النفاق ، وصلابته فيما يؤمن به ، وطبيعته الريفية بما فيها من عيوب ومحاسن قد ابعده عن تيارات الأحزاب ، ومن ثم لم يستطع أن يصل الى مكانه الحق ، حيث كان التابعون للأحزاب من العلماء والأدباء والموظفين هم الذين يصلون وحدهم • على حين انه كان قد سدت أمام ذوى النزعات الاستقلالية أو المبادئ القومية - بعيدا عن مواطن الشهوات الحزبية - أبواب الرزق أو مدارج الرقى •

فلما اندفع زكى مبارك مرة اخرى ليحصل على اجازات أخرى من الدكتوراه لم يزد ذلك شيئا ، ولم يحقق له أملا من آمال الوصول الى المكان اللائق به •

هنالك انفجرت نفسه فى صيل مستمر ، ومعارك متصلة بينه وبين ادباء جيله ، اراد بها أن يؤكد شخصيته ، ولم يكن فى بعض هذه المعارك متجنبا ، وانما كان قد حيل بينه وبين الرزق صراحة ، فكان لذلك أثره فى نفسه •

فلما تعددت هذه الصور على أيدي وزراء المعارف ، الذين كان قد صاولهم ، فحملوا فى أنفسهم له السخيمة ، اهتزت شخصيته اهتزازا عنيفا فمضى ينحرف عن طريقه ، ويغرب فى هذا الانحراف ، ويدارى عقله الواعى بحجب جديدة ، هنالك مضت حياته مظلمة كثية حتى انتهت فجأة على نحو بالغ القسوة •

ولكن ذلك لا يمنع من القول ان أدب زكى مبارك كان فى خلال حياته كلها - حتى فى ابان أزمته النفسية - صادقا صريحا قويا ، فيه الايجابية والوضوح •

ويمكن أن يوصف أدب زكى مبارك بأنه أدب القوة والاييجابية • وهو فى مجموعته ، حيث يرسم وجهها جديدا ، فيه القوة والجرأة والصرامة والنزعة العاطفية •

ولذلك ، فهو لن يموت • • وسيحيا • • وستبقى ذكرى زكى مبارك طيب الله ثراه •

فهرس

الموضوع	الصفحة
حياة زكى مبارك وأدبه	٣
مطالع الحياة	٧
منتريس بالمنوفية	٧
فى منتريس	٩
أبى	١٠
مطالع الحياة فى الأزهر	١٣
من رسائل المعتقل	١٦
ذكرىات طالب اشترك فى الثورة	١٧
حياته فى الجامعة	٢٥
فى باريس	٣١
فى السربون	٣٥
فى بغداد	٣٩
ملاحح شخصيته	٤٢
غربة القلب	٦٣
الشاعر	٦٦
مبارك الكاتب	٧٢
أسلوبه ومنهجه فى البحث	٧٨
وجدانيات مبارك	٨٤
آراء زكى مبارك	٩٣
فى الأدب العربى الحديث	١٠٥
زكى مبارك والتصوف	١١٠
فن جديد فى الكتابة	١١٦
خصومات مبارك وهماركه الأدبية	١٣١
أضخم معركة خاضها زكى مبارك (المعركة مع طه حسين)	١٣٤

الصفحة

الموضوع

١٤١	قصّة أحمد الله إليك
١٤٦	ذكر مبارك في معركة مع أحمد أمين
١٥٢	معركة مع السباعي بيومي
١٥٥	مع العقاد
١٥٧	زكي مبارك مع سلام موسى
١٥٩	زكي مبارك وشوقي
١٦١	مع لطفى جمعة
١٦٤	الملاكم الأدبي في ثقافتنا الحديثة
١٦٨	زكي مبارك والرافعي
١٧١	المعلم الذي آثار المتاعب
١٧٥	أيامه الأخيرة
١٨٣	زكي مبارك في أيامه الأخيرة
١٨٤	اليوم الأخير
١٨٦	وبعد